أعلام التاريخ

نابليون



دار المعارف بمصر

نَابلِيُوْن

نابليون

تأليف

هربرت فشر

نقله إلى العربية

محمد مصطفى زيادة   محمد نوفل



دار المعارف بمصر

فهرس

نابليون

فهرس الصور

فهرس الخرائط

مقدمة

عدت من إنجلترا بعد إتمام المرحلة الأولى من تعليمى الجامعى سنه ١٩٢٥م ، مزوداً بنصائح متنوعة من أساتذتى ، ومنها نصيحة مكتوبة نفحنى بها صاحبها وهو باسم بعينيه الخبيرتين العجوزتين ، ومن نصها بضعة أسطر هى فى العربية : « إياك أن يعلوك الصدأ ، وإياك أن تخلط بين الصدأ والمعدن فى تدريس التاريخ ، أو دراسته ، أو البحث فيه . ولديك بمصر من أسلافك المصريين — فى هذه الجامعة التى عشت فيها معنا — فئة قليلة لكنها كفيلة بأن تشرح لك ما ليس فى استطاعتى عملياً شرحه الآن . . . »

وكنت عرفت من أولئك الأسلاف زعيمهم وأسبقهم جيد المعرفة ، وهو الآن صاحب السعادة الأستاذ محمد رفعت باشا ، المستشار الفنى لوزارة المعارف ، إذ جاء إلى مدرسة المعلمين السلطانية وقتذاك ، لتدريس التاريخ الحديث باللغة العربية ، لأول مرة فى معهد مدنى عال بمصر ، فعلمنى بالسنة النهائية لى بهذه المدرسة الكريمة العالية ؛ وكان له فضل كبير فى تشجيعى على المضى فى دراسة التاريخ ، وفى إرشادى إلى مناهج البحث التاريخى ، وفى توجيهى إلى الجامعة التى هو من أوائل المصريين الذين تعلموا فيها .

ثم عينتنى وزارة المعارف مدرساً للتاريخ بالمدرسة العباسية الثانوية

بالإسكندرية ، فما عتمت بها حتى أخذت أبحث جاداً عن بعض آخر من أولئك الأسلاف ، فوجدت منهم صديقاً قديماً كبيراً هو الأستاذ محمد نوفل ، المراقب العام للتعليم الثانوى سابقاً ، وكان وقتذاك ناظر مدرسة ابتدائية جديدة البناء ، تفوح منها رائحة البناء الجديد من أجل التعليم ، وهى مدرسة العطارين فى حى كوم الدكة . وانقضى شهر أو بعض شهر رتبت فيه سكناى ومطعمى ، وأعمالى المدرسية ، وصداقاتى لأوقات الفراغ . غير أنى ما لبثت أن ألفيت لدىّ من الوقت ما حيرنى ، وحير معى صديقى القديم الكبير ؛ ودار الحديث يوماً حول النصيحة التى استفتحت بها هذه السطور ، وحول صاحبها وما استطاع أن ينجز من بحث وتأليف ، وأستاذية جامعية طويلة فى غير جلبة أو صيت عام . ثم تطور الحديث إلى اقتراح بقيامى على نقل كتاب من الكتب الضرورية لتدريس التاريخ الحديث فى المدارس المصرية ، من الإنجليزية إلى العربية ، فرضيت بالاقتراح على أن يشاركنى صديقى فى تنفيذه ، وكذا كان مولد الفكرة الحميدة فى نقل كتاب نابليون للأستاذ فشر ، أستاذ التاريخ بجامعة شفيلد ، ثم وزير المعارف فى إنجلترا ، ثم رئيس كلية باليول بأكسفورد ، حيث توفى سنة ١٩٤٠ م .

هذه ذكريات موضعها تصدير الطبعة الأولى من هذا الكتاب الصغير ، حين ظهر وليداً فريداً وحيداً أو يكاد ، لا الطبعة الثانية هذه التى تخرجها دار المعارف فى سلسلة أعلام التاريخ ، بعد أن أصبح النقل من مختلف اللغات الأوربية إلى العربية جزءاً هاماً من

النهضة المصرية الحديثة ، وبعد أن أضحى فى متناول القارئ عشرات من الكتب المنقولة إلى العربية ، وليس فى التاريخ فحسب . على أن هذا الكتاب — فيما أعتقد — لا يزال حافظاً مركزه العلمى بين الكتب المنقولة أو المؤلفة فى موضوعه ، لأنه مكتوب فى نغمة موضوعية متوخية تدوين ما لنابليون وما عليه ، فى الهدم والبناء ، وفى الحرب والسياسة ، من زاوية إنجليزية علمية معتدلة ، بأسلوب هادئ متصوّن ، لا يثب ولا يرسب ؛ ولأن صاحب الفضل فى كتابته ليس من أرباب المؤلفات التى تظهر لتختفى بعد جيل ، وأقل من جيل ؛ ولأن الكتاب على صغر حجمه يشمل حياة نابليون وفرنسا — وناحية من التاريخ المصرى كذلك — ، أوائل القرن التاسع الميلادى ، وهى مرحلة صاخبة زاخرة بالحوادث التوجيهية الكبيرة ، والشخصيات اللامعة النزور ، وذلك دون أن يكون سرداً لقيام فلان وعزل فلان من زعماء السياسة وقادة المعامع وموظفى الإدارة ، ودون أن يكون لجاجاً بارداً أو استطراداً ثقيلا ، مما لا يرحم القارئ أو وقته أو عقله ، ولا يرحم التاريخ وأهله .

والواقع أن هذه المرحلة من التاريخ الفرنسى — والتاريخ الأوربى العام كذلك — تستطيع أن تكون امتحاناً دائماً لكل مقدم جديد على التأليف فيها ، إذ اصطدمت حوادثها المتزاحمة بموجات جوفية عنيفة من التطور البشرى العالمى ، والمؤرخ أثناء بحثه فى هذه المرحلة وأشباهها يتراوحه صخب الحوادث الهادرة ، وعنف الموجات التطورية المتواصلة ، فإذا

غلبته صناعة السرد وفنّ الحرص على إيراد الحوادث الكبيرة والصغيرة — لقلة التمييز بين الهام والتافه — ضاع وتاه ، وغاب عن الموجات التطورية جهلا بها ، أو غابت هي عنه قصوراً منه ، وجاء عمله قطعة من التاريخ الهباء الجاف (dryasdust) ، وهذا على أية حال نوع من الأمساخ التاريخية التى لا يستسيغها القرن العشرون للميلاد ، وهو القرن الرابع عشر للهجرة . أما إذا انتبه المؤرخ إلى الموجات التطورية التوجيهية للحوادث ، وجعل منها — على قدر إمكانه — دليلا وهادياً ، جاء عمله أحسن رئياً وأصدق تعبيراً عن الحقائق ، وهو ما اتفق لمؤلف هذا الكتاب الصغير فى نابليون وعصره المبين .

وأحب أن أقول إن هذا كله من بديهيات الكتابة فى التاريخ ، يعرفه المؤرخون وغيرهم ، وأسوق للتدليل عليه فقرة فى كتاب فاتتنى قراءته أيام صباى والتاريخ الحديث ، واستطعت قراءته هذه الأيام فى فراغ الصيف الماضى ، وهى فقرة فى وصف غزوة نابليون روسيا ، هذا نصها فى اللغة العربية : « نتجت عن الحملة الروسية نتائج دوّخت التاريخ ، واعتنى المؤرخون المعاصرون بهذه النتائج أكثر من اعتنائهم بحوادث الحملة نفسها ، على أهميتها فى فنون الحرب والتخريب والإفناء . ولهذا يقف الباحث فى هذه الحملة أمام صورة معظمها معنويات أخلاقية خالدة ، وقيم تاريخية جغرافية دائمة النفع للبشرية عامة ، وهى أقصى ما يتطلبه القارئ من أقلام المؤرخين المعاصرين وغير المعاصرين » . ولمؤلف كتاب نابليون هنا عبارات فى هذه المعنويات ، وهى تبدو أبلغ ما جاء

فى الكتاب كله .

واقتضت هذه الطبعة الثانية عودة إلى الكتاب بكثير من التعديل والتحرير فى المتن والحواشى ، حذفاً وإضافة ، مما تضفى التجارب والسنون على الظامئين إلى المعرفة حيث توجد ، وهذا فضلا عن إضافة بعض الصور غير التى اشتملت عليها الطبعة الأولى .

ولفئة أخرى من الأسلاف الذين تقدمت الإشارة إلى اثنين منهم أول هذا التصدير فضل التوجيه فى هذه الطبعة الثانية ؛ وأولئك هم أصحاب العزة الأساتذة أصدقائى القدماء عبد الرحيم عثمان محمد بك ، وكيل وزارة المعارف سابقاً ، ومحمد شفيق غربال بك وكيل وزارة الشئون الاجتماعية ، ومصطفى عامر بك مدير جامعة الإسكندرية ، ومحمد قاسم بك مدير الإذاعة المصرية سابقاً ، ومحمد عوض بك مدير معهد السودان . فلكل منهم ملاحظات مختلفة أبدوها لى ولزميلى فى المتن والحواشى ، أيام قراءتهم الطبعة الأولى ، وسجلتها كلها لنفسى منذ خمس وعشرين سنة ؛ ولا شك أنهم نسوها تمام النسيان ، لكن لم تنسها أوراقى ، فأفدت منها لهذه الطبعة فوائد سوف يرونها فى الصورة التى يخرج الكتاب فيها ، ولكنهم سوف ينكرونها حذر الإعلان عن أنفسهم . وغاية ما أرجو أن يجد الجيل الحالى فى هذا الكتاب — من المنفعة والمعرفة — مثلما وجد فيه السابقون لهم ، من أجيال الراغبين فى استجلاء حقبة هى خط التقسيم الزمنى بين أوربا قبل الثورة الفرنسية وبعدها . وأود هنا أن أشكر تلميذى وصديقى أحمد عيسى ، أمين

المكتبة العامة بجامعة القاهرة ، وابراهيم أحمد العدوى ، مدرس تاريخ العصور الوسطى بكلية دار العلوم ، لمختلف معونتهما فى إتمام هذه الطبعة .

محمد مصطفى زيادة

مصر الجديدة { ٣ ربيع الثانى سنة ١٣٧١ هـ
أول ينـــاير سنة ١٩٥٢ م

الفصل الأول

شباب نابليون

إذا ذكرنا نابليون بونابرت فكم يحضر الذهن من الأخيلة والذكريات!
من ذا الذى يجهل ملامح أكبر فاتحى العصور الحديثة، وقائد قادتها، فى جسمه الصغير الذى يكاد يجعله فى عداد الأقزام، ورأسه المستدير، وخديه الشاحبين، وحاجبيه الكثيفين، وأنفه وشفتيه وكأنها منحوتة مثل أجمل تماثيل القدماء، وعينيه الغائرتين البراقتين الرماديتى اللون يتطاير منهما تارة شرر كهربى، ويغمرهما تارة أخرى تفكير لا يعرف مداه؟ وقوامه لا شك مألوف كذلك؛ كما هى مألوفة تلك الملابس التى طالما لذ المصورين رسمه بها. من ذا الذى لا يعرف القوة الهائلة التى تتمثل فى صدره وكتفيه، والصولة الباهرة التى تنم عليها كل إشارة وحركة منه، والأسنان البيضاء، واليدين الدقيقتين، والقبعة المونقة، والمعطف الطويل الرمادى اللذين طالما سار بهما إلى الظفر؟ من ذا الذى لم يرَ صورته بطلا نحيلا صغيراً يقود الطلائع فى وقعة أركولا، أو إمبراطوراً جاثياً أمام محراب كنيسة نتردام رافلا فى الحلل الطويلة الفاخرة التى أعدت لحفل تتويجه، أو قائداً عابساً على رأس كوكبة فرسان خائرة تمشى متعثرة على ثلوج روسيا فى الشتاء المهلك، أو شبحاً فى عباءة واقفاً على

ظهر سفينة بكتفين مقوستين وذقن مرتخ ونظرة فى الفضاء مملوءة أسى تنبعث من عينين كئيبتين ؟ إن الأفكار والعواطف التى تذكو لسماع ذلك الاسم المجيد ، لتشبه فى تباينها وتضاربها ما لقيه نابليون نفسه فى أدوار حياته ، كما نراها فى صور المصورين ، ومن المتعذر أن نعثر فى التاريخ كله على رجل مثل نابليون أثار عواطف متضاربة ، وملك — وهو على قيد الحياة — مشاعر الإعجاب فى الناس ، كما ألقى فى نفوسهم الرعب ، فحق عليه غضبهم . ولم يقف الأمر عند المعجبين به ، والناقمين عليه ؛ فإن أكثر النقاد بصيرة لينظرون إلى تاريخ حياته ، لا بآراء متباينة فحسب ، بل بشيء من الحيرة أمام ما حوته من مواقف العظمة والدهاء ، التى منها ما هو حقيقى وما هو مزيف . فهو فى نظر هؤلاء الذين يتعبهم الفحص النفسى رجل عملى أتى بالمعجزات ، قام ولا جاه له ولا ثروة ، وارتقى إلى ذروة الأطماع البشرية ، فدحض بذلك الدعوى القائلة بأن السياسة سر لا يدركه إلا قليل من ذوى الأنساب والألقاب . على أن ذلك الرجل الذى قالت عنه مدام دى ستايل [1] :

---

(١) مدام دى ستايل (Madame de Stael) هى ابنة نكر ، وزير المالية الشهير فى فرنسا قبيل الثورة . نشأت فى العز ، وأعجب رواد صالون أبيها بذكائها وهى فى سن الحادية عشرة . وبدأت تشتغل بالأدب والكتابة وهى بنت يافعة ، وتزوجت سنة ١٧٨٦م من البارون ستايل ، سفير السويد فى باريس فيما بعد . عاشت مدام دى ستايل ملكة صالونات باريس حتى قامت الثورة ، وتطرف زعماؤها ، فهاجرت مع المهاجرين إلى إنجلترا . ثم رجعت إلى فرنسا سنة ١٧٩٥ م ، واشتغلت بالسياسة والأدب . لكن حكومة الإدارة لم ترض عن مبادئها ، فهجرت فرنسا مرة أخرى . ثم عادت إليها سنة ١٧٩٧م ،

٣

إنه «لم يُبق لبنى الإنسان من مخلفات قوته الهائلة سوى معرفة بعض أسرار جديدة فى فن الاستبداد» ، هو كذلك وليد الثورة الفرنسية ، وأنصع دليل على صحة المبدأ الديموقراطى الذى نادى به ، ناصحاً بفتح أبواب الحياة فى كل مجتمع لأصحاب المواهب. هذا ، وما دام الناس يقلّبون صحائف الماضى بحثاً عما يحرك القلوب من تقلبات الزمن ، أو حبًّا فى استقراء عظيم حوادث السياسة ، أو رغبة فى الاطلاع على أمثلة من أعمال القوة والإرادة البشرية ، أو استقصاء لأسرار ذوى العواطف الحارة ، أو جرياً وراء إدراك القوى البشرية التى تسيطر على العالم ، فإنهم سوف يواصلون درس حياة نابليون ، وسوف يجدون فيها دائماً قصة — لا تقل فى عجائبها عن أساطير الجبابرة والجن — يظهر فيها أكبر انفجار للقوى البشرية ، وهو الانفجار الذى أحدث فى العصور الحديثة تغييراً كبيراً فى حياة الإنسان المتمدن .

حين كان نابليون فى بدء حياته العظيمة . غير أن نابليون لم يعجبها ، فلم تحدث بينهما صداقة أو مودة ، وانقلب تعارفهما كراهية اضطرت معها إلى ترك فرنسا مرة ثالثة .

ثم رجعت مدام دى ستايل إلى فرنسا سنة ١٨٠٢ م ، فأصبح صالونها بسرعة مجمع الحاقدين على نابليون والساخرين منه ، وظل كذلك حتى عيل صبر الإمبراطور سنة ١٨٠٤ م. عند ذلك ابتدأ نابليون يضطهدها ، ولا شك أنه صغر من شأن نفسه باستمراره على ذلك ، إذ طردها غير مرة من فرنسا ، وصادر مرة أحد كتبها . ولما سقط نابليون رجعت مدام دى ستايل إلى باريس ، حيث لقيت كل حفاوة من لويس الثامن عشر ، غير أنها اضطرت إلى الهرب حين رجع نابليون من إلبا . ولم ترجع مدام دى ستايل إلى فرنسا بعد ذهاب نابليون وإمبراطوريته ، بل ماتت فى إيطاليا سنة ١٨١٧ م .

ولد نابليون فى أجاكسيو فى ١٥ أغسطس سنة ١٧٦٩ م ، وهو ثانى أولاد شارل مارى بونابرت ومارى ليتيشيا راموليتو . وأبوه من أصل فلورنسى له فروع فى بلدتى سارزانا وسان منياتو[1] فى تسكانيا . غير أن أجداد نابليون استوطنوا منذ عام ١٥٢٩م جزيرة كورسيكا[2]، وهناك بين المناظر الساحرة التى أنجبتها الجبال الوعرة، والغابات الكثيفة الحافلة بشجر القسطل ، والسماء الصافية ، والبحار الزرقاء ، عاش آل بونابرت موضع احترام جيرانهم . وعلى الرغم من قلة ثرائهم ، فإنهم بمحافظتهم على نسبهم، وبموازنتهم بمستوى من حولهم الضاربين فى السذاجة وشظف العيش ، كانوا معدودين أحسن أسرات أجاكسيو حالا . خدم فى مجلس الجزيرة خمسة من آل بونابرت فى أوقات مختلفة ، غير أن الأدلة تثبت أن سلف نابليون من جهة الأم أكثر مقدرة من سلفه من جهة الأب . نعم كان أبو نابليون رشيقاً ذكياً، ميالا إلى الشعر والبلاغة ، شأن كل إيطالى ، لكنه عاش مسرفاً مضطرباً فى أحواله المالية ، مغامراً للحصول على ما يريد من المال . أما أم نابليون فامرأة مقطوعة النظير ، حفظت لآخر عمرها جمال وجهها وهيبتها اللذين أكسباها إعجاب الناس فى كل مكان ، وكانت ذات عقل سليم خال من الرياء والتصنع . وظلت هذه المرأة طول حياتها لا تتكلم الفرنسية ، أو تنطق بها دون أن

---

(١) انظر مصور رقم ٣ ، إيطاليا .

(٢) انظر مصور رقم ١ ، جزيرة كورسيكا، للتحقق من مواقع البلاد المذكورة هنا فى هذا الفصل من الكتاب .



أم نابليون

(متحف فرساى بباريس)

تغلط غلطات فاحشة . عاشت مقتصدة لدرجة الشح ، وعلى خلق قويم راسخ مثل طود من الصوان ؛ فقابلت تكاليف الحياة أول أيامها بثبات ، ولم يغيرها ما وجدت نفسها فيه من العز فيما بعد . وليس أدل على كل ما تقدم من أن باؤولى [1] دعاها سنة ١٧٩٣ م باسم كورنيليا [2] مشيراً إلى أن هذه المرأة الريفية الحسناء — ذات الذكاء والعزم — خليقة بأن تكون أماً للأبطال .

فى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى كان من الشرف أن ينتسب الإنسان إلى أهل كورسيكا ؛ وتتبع كل شغوف بالحرية أخبار النضال المجيد الذى قام به سكان الجزيرة الصغيرة ، أولا ضد حكم جنوا الممقوت ، ثم ضد سلطان فرنسا . فى تلك الآونة غدا اسم باسكال باؤولى — بطل حرب استقلال الجزيرة ، وزعيم الأمة ، وواضع شرائعها — مشهوراً فى

---

(١) باسكال باؤولى بطل تاريخ جزيرة كورسيكا . ولد فيها سنة ١٧٥٥ م ، وتزعم حركة تحريرها من حكم جمهورية جنوا . ثم ابتاعت فرنسا الجزيرة سنة ١٧٦٨ م ، فرفض باؤولى تسليم الجزيرة للفرنسيين ، وغلب على أمره عام ١٧٦٩ م . عند ذلك فر الزعيم إلى إنجلترا ، ثم عاد إلى وطنه سنة ١٧٨٩ م ، إبان الثورة الفرنسية . بيد أن أعمال الحكومة الفرنسية لم ترضه . ونفرته من وظيفة الحاكم العام ، فنظم ثورة غرضها سلخ الجزيرة عن فرنسا وضمها إلى إنجلترا . لكنه أخفق فى مسعاه ، وعاد ثانية إلى إنجلترا كسير القلب سنة ١٧٩٦ م ، ومات قرب لندن سنة ١٨٠٧ م ، ودفن فى كورسيكا عام ١٨٨٩ م ، وسوف يمر القارئ بكثير من أخبار باؤولى مفصلة فى متن الكتاب .

(٢) كورنيليا زوجة أحد قادة الإمبراطورية الرومانية فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وأنجبت من زوجها ابنين وابنة ، وترتكز شهرتها على حسن تربيتها لأولادها الذين خدموا روما خدمات جليلة بعد أبيهم .

كل عواصم أوربا . وكانت أوصاف الجزيرة البعيدة ، موضع إعجاب السياح والساسة الذين أثار بُعدها فى خيالهم أخبار بطولة أهل العصور القديمة . لذا بدت كورسيكا فى نظر أوربا كاليونان فيما بعد وهى تحارب الأتراك ، أو كجمهوريات البوير فى جنوب أفريقية وهى تقاوم الإمبراطورية البريطانية . أما نابليون الذى ولد فى تلك السنة التى انضوت فيها الجزيرة إلى فرنسا نهائياً ، فقد امتلأت سنوات شبابه بحوادث ذلك النضال ، ولا بد أن أخبار مخاطرات تلك الحرب الطاحنة جاءت إليه تترى من كل ناحية . من تلك أن أباه كتب مرة منشوراً ثورياً لأهل كورسيكا ، وأن أمه — قبل ميلاده بأيام — طوردت فى الغابات والجبال ، حيث شاركت الجيش الوطنى فى حركاته الجريئة . وإذ غدا باؤولى أثناء تلك السنوات المثل الأعلى فى عين نابليون ، كان أقصى أحلامه أن يكتب تاريخ الجزيرة مسقط رأسه ، أو أن يكون سبب تحريرها من الفرنسيين .

اشتهر أهل كورسيكا بالرزانة والشجاعة والإقدام ، وكان كره العدو عند الكورسيكى فضيلة ، والانتقام واجباً ، والعفو عاراً . وإحساس الكورسيكى بواجبه نحو عشيرته ، كإحساس الأسكتلندى نحو أسكتلندا ، أو الألبانى أو الزولو[1] نحو بلادهما ، وكان يتيه مثلهم ثقة وفخراً بنفسه ، ذا حذر وفراسة فى حكمه على أخلاق الناس ، داهية فى التصنع إلا إذا ثارت حفيظته فأفسدت كل شىء . وكان شرفه

---

(١) الزولو فرع من قبائل البانتو المنتشرة فى جنوب إفريقيا .

يمنعه من السرقة ، ويأمره بالكرم وحسن معاملة المرأة لكدها فى المنزل والحقل معاً . فالكورسيكى على وجه عام شديد العزم ، رزين لا ينغمس فى الملاهى ، يجلس ليلعب الورق فلا ينبس ببنت شفة ، ويتحمل التعذيب دون أن يظهر ضجراً . لكنه مع ذلك إذا استهواه الحديث ينطلق بالكلام كالسيل ، مما يدل على الهمة النزاعة الوثابة التى لا تطيق صبراً ، وهى حلية القوم كلهم . بتلك الصفات — وبعض صفات أخرى — صار نابليون كورسيكياً لحماً ودماً .

قضى نابليون معظم أيام المدرسة فى فرنسا ، فلم ير مسقط رأسه ، ولا وجه أمه ، مدة سبع سنوات وتسعة أشهر : غادر أجاكسيو فى ١٥ ديسمبر سنة ١٧٧٨ م ليتعلم اللغة الفرنسية فى أوتان (Autun) [1] بفرنسا ، وعمره إذ ذاك تسع سنين ؛ رجع إليها بإجازة فى سبتمبر سنة ١٧٨٦ م ، وعمره سبعة عشر عاماً ، وهو ضابط فى آلاى من آلايات المدفعية . وكان غيابه الطويل مثيراً لوطنيته ، مذكياً لنار الحماسة فى فؤاده . والسبب أنه أحس دائماً أيام تلمذته فى برين (Brienne) وأيام المدرسة الحربية فى باريس ، أنه فى أرض معادية ، يتكلم لغة غير لغة أهله ، ويضطر لمخاطبة صبية يحتقرونه للكنته الأجنبية وماله القليل وحسبه المعدوم . أدى به ذلك الشعور بالغربة إلى التفكير فى سريرته كثيراً . حتى إنه بعد أن كان أيام طفولته عربيداً مشاغباً ، أصبح عبوساً غير محبوب بين زملائه « جافاً كالقضيم » — كما قال هو

(١) انظر مصور رقم ٢ فرنسا ، للتحقق من مواقع البلاد الفرنسية المذكورة فى فصول الكتاب .

عن نفسه – تجيش فى صدره الأطماع .

لم يكن نابليون قديراً فى إتقان اللغات ، لكنه أظهر منذ طفولته ميلا للعلوم الرياضية شحذه فيه أساتذته الفرنسيون . وأراد أبوه من أول الأمر أن يلحقه بالبحرية ، لكن الفكرة تغيرت – نزولا على رغبات نابليون نفسه فيما يبدو – قبل أن ينتهى من حياته الدراسية فى برين . وقر الرأى على أن يدخل المدفعية ، لأنها الفرع الوحيد من فنون الحرب الذى ترجح فيه كفة الذكاء وحب العمل كفة ضآلة الشكل والجسم . أظهر نابليون من أيام طفولته ميلا للحياة الحربية ، فكان وهو فى طريقه إلى المدرسة الصغيرة فى أجاكسيو يستبدل بخبزه الأبيض خبزاً أسمر خشناً من جرايات المعسكر ، قائلا إنه يروض نفسه على حياة الأجناد .

أما الدلائل التى تشهد على نموه العقلى والخلقى – فى هذه المرحلة من حياته – فإنها مقنعة فى ذاتها على رغم قلتها . من تلك أن رسائله إلى أهله من المدرسة اتسمت بالجدة والوضوح . وإليك مثالا مما كتبه وهو فى الرابعة عشرة ، يصف أخلاق أخيه الأكبر يوسف ، قال ما معناه : إن ولعه بالهزل لا يهيئه لحياة الجيش ، فليكن قساً . ولما علم بموت والده ، كتب – وهو فى الخامسة عشرة – خطاباً مملوءاً شعوراً ناضجاً قال : « لقد فقد البلد مواطناً فطيناً متنوراً أميناً ، لكن هكذا قدر المولى تعالى » . أمام ذلك الجد وتلك الرزانة نسائل أنفسنا : هل كان نابليون صبياً أيام صباه – أيام رأى أن مهنة الحرب ليست مجال المظاهر الخلابة ، بل إنها العلم الذى يحتاج استيعابه إلى الانهماك فى الدرس حتى

ينال صاحبه العظمة السياسية . لذلك أحب دراسة التاريخ والجغرافيا حبًّا كبيرًا ، وخيل إليه كثيراً أنه أحد أبطال قصص بلوتارك[1] ، وكان كتاب « بحث فى تاريخ العالم » الذى كتبه بوسيويه[2] وسرد فيه تاريخ تعاقب الدول ، أول ما حرك فى نفسه الأطماع .

فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٧٨٥م ترك نابليون المدرسة الحربية فى باريس ، ليلتحق بآلاى لافير المرابط عند فالنس ، وهو إذ ذاك فى السادسة عشرة من عمره ، لا يملك مالا ولا أصدقاء ، ولا يعرف أحداً من ذوى النفوذ يستعين به على الرقى فى الجيش . مات أبوه ، ومات كذلك ماربو وبوشبورن ، الموظفان الفرنسيان فى كورسيكا ، واللذان تعهدا بالعناية أسرة نابليون بعد وفاة عائلها . وضاقت بأمه الحال فى حين كان راتبه الأسبوعى — وهو فى وظيفة ملازم ثان — لا يتجاوز الخمسة والثمانين قرشاً مصريًّا . فإذا رضى نابليون بذلك الضيق ، فسوف ينتظر ست سنوات حتى يصبح ملازمًا أول ، وست سنوات أخرى حتى يصير يوزباشيًّا . وإذا استمر على ذلك المنوال فربما يجد نفسه ، وهو فى مقتبل العمر ، من المحالين

---

(١) بلوتارك كاتب يونانى عظيم ، عاش فى القرن الأول الميلادى ، وأشهر كتبه « الموازنة بين العظماء » وهو يحتوى على تراجم كثير من مشاهير اليونان فى العصر الذى قبله .

(٢) جاك بوسيويه واعظ دينى فرنسى مشهور ، وذاع صيته فى باريس حتى استدعاه لويس الرابع عشر للوعظ فى كنيسة اللوفر سنة ١٦٦١ م ؛ وبقى بوسيويه فى باريس منذ تلك السنة ، وعين أستاذاً لولى العهد ، ويقال إنه كتب من أجل تعليمه كتابه المذكور الذى يعتبر فخر مؤلفاته .

على الاستيداع ، وحينئذ لا يكفى راتبه لعيشه . لكن ذلك المستقبل المظلم شدد من عزمه ، فاستعان على حاله بالقصد فى المعيشة ؛ ولما كان — لقلة ما بيده — غير قادر على الانغماس فى الملاهى الدنيئة أكب على الدرس والمطالعة . وصف نابليون فيما بعد تلك الأيام قال : « كنت أشعر دائماً أن الوقت من ذهب حتى فى الأوقات التى كنت فيها خلواً من العمل ».

امتلأت فرنسا وقتذاك بمجموعة من الأدباء ، امتازت كتابتهم على ما سبقها فى تاريخ الأدب الأوربى بدقة وسمو فى مراميها ، واستهوائها القارئ للاستزادة مما حوته من الجمع بين الأمل والعواطف والفكاهة . أولئك الكتاب هم الفلاسفة الفرنسيون فى القرن الثامن عشر ، وهم الذين قاموا ينادون بتحكيم العقل والإنسانية فى أمة بدأت تشعر أنها تعيش تحت نظم هى فى الحقيقة بقايا غير صالحة من أزمنة همجية تسودها الأوهام . هاجم أولئك الفلاسفة كل ركن من أركان النظام الفرنسى ، مستعينين بأوسع المبادئ ، موجهين استفهامات محرجة ، شارحين للملأ ماذا يكون فى الحياة من سعادة لو قضى على ظلام النظام القائم واستعيض عنه بنظام مسير بحزم وتفكير . وأسهم جميع كتاب ذلك العصر على اختلاف مذاهبهم وأمزجتهم فى تلك الحركة الأدبية بسهم كبير ، وإليك فولتير وأسلوبه الممتع وكتابته الرشيقة ، وتيرجو وسياسته الفلسفية الرصينة ، ورينال وموهبته فى الأسلوب الخطابى ، وروسو ومقدرته الفذة على أن يكتب فى لغة موسيقية اعترافات نفس حساسة وتصورات عقل منطقى . لا جرم أن مطالعة كتب أولئك الأدباء فى الغرفة الحقيرة الموحشة التى سكنها

نابليون ، وهو ملازم ثان فقير معدم ، كانت بمثابة تربية عقلية واسعة النطاق . ولا غرابة أن يفتتن نابليون ، وهو في السابعة عشرة من عمره ، بأمثال روسو وريناك ، وأن يراض على الترحيب بثورة سياسية في فرنسا .

أتيح لنابليون مدة السبع السنين الأولى في الجيش فرص كثيرة للمطالعة ، إذ كانت أعماله قليلة قصيرة وإجازاته كثيرة طويلة . ويتأجج في قلبه نار حب الاستفادة ، شأن الذين تنشرح صدورهم لأول مرة . كتب لأمه يصف حياته في ذلك الوقت قال : « ليس لدى ما يشغلنى غير عملى . وإنى أنام قليلا ، إذ أذهب إلى مضجعى الساعة العاشرة مساء ، وأصحو الساعة الرابعة صباحاً ، وآكل مرة واحدة في الساعة الثالثة كل يوم ». نتج عن كثرة مطالعة نابليون لمؤلفات الفلاسفة المتقدمين أن أصبح يحتقر الرهبان ، ويكره الملوك ، ولا يؤمن بمذاهب الديانة المسيحية . غير أن الفلسفة لم تصادف هوى في نفسه ، ولم تستهو أخلاقه ، لأن عقله من الصنف الذى لاتؤثر فيه العلويات ، بل يلذه قراءة الوقائع والأرقام ، ويمعن في مطالعة كتب التاريخ والجغرافيا والرحلات ، ابتغاء معرفة الحال السياسية في العالم الذى يعيش فيه . ويظهر من كراساته المدرسية كيف مهر نابليون في علم الحساب ، إلا أن ولعه بالملموس امتزجت به عواطف روحية ، غير مقصورة على ما يخالج ضمائر الشباب الثائر فحسب ، بل حاوية لما تصبو إليه أفئدة ذوى الأغراض والمطامع . لذلك بدت حال نابليون أشبه بمن يحلم بالعظمة ويصبو إليها ، وهو لا يزال كلفاً بمواجهة الحقائق ، ورؤية

الأشياء واضحة ، والرجال على أشكالهم المجردة . فرأى فى أوسيان[١] وفرتر[٢] مثلين فى حب التعمق فى أسرار الكائنات وما وراءها ، وفى كورنى وراسين[٣] كيف يبلغ الفرد أوج عظمته المدنية . كما كان يرى أن التاريخ ليس دائرة معارف وحقائق فقط ، بل أساس العلوم الوضعية ، ومنارة الحق والعامل على قطع دابر التحيز ؛ لذلك كان مطمحه أن يثبت تاريخ بلاده ، ليشهد العالم على ما ثارت ضده من الاستبداد الذى ترسف فى أغلاله . أراد ذلك ولو أنه شحذ قلمه غير مرة فى كتابة مقالات وقصص صغيرة ، شأن من يدرب نفسه على كتابة القصص الخيالية . وفى سنة ١٧٨٧ م شرع يكتب « رسائل عن كورسيكا » وبعد ذلك بقليل جمع معلومات كثيرة وهو فى أجاكسيو ، ليؤلف تاريخاً مفصلا عن الجزيرة .

جاءت الثورة الفرنسية ، ففتحت أبواب الأمل لكل فقير ومحروم

---

(١) أوسيان شاعر إيرلندى قديم ، نظم قصائد فى وصف أبطال القبائل الغالية التى نزحت من إسكتلندا إلى إيرلندا وسكنتها لأول مرة فى الأزمنة القديمة ، وهذه القصائد مترجمة إلى الإنجليزية منذ سنة ١٧٦٣ م .

(٢) آلام فرتر قصة ألفها الكاتب الألمانى جيته سنة ١٧٧٢ م ، ترجمها إلى العربية أحمد حسن الزيات ، وهى تعطى صورة واضحة عن الحركة الأدبية الأوربية فى القرن الثامن عشر الميلادى .

(٣) كورنى وراسين أكبر الكتاب المسرحيين فى فرنسا أواسط القرن السادس عشر الميلادى ، وظلت مؤلفاتهما المسرحية تملأ دور التمثيل حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى .

فى فرنسا . أما نابليون فلم يحلم إلا بكورسيكا ، وظن أن اقتربت الساعة لتحرير بنى وطنه من ربقة البيروقراطية [1] الفرنسية . لذلك حصل على إجازة فى سبتمبر سنة ١٧٨٩م ، وذهب مع أخيه الأكبر يوسف إلى كورسيكا ، وأوغل فى ثورة الكورسيكيين [2] ، فخطب فى الأندية ، وألف عرائض ثورية مهيجة ، وساعد على إنشاء حرس أهلى ، حتى أصبح فى أجاكسيو بلدة الصيادين رأس الحركة ضد القساوسة والأشراف. وفى سنة ١٧٩٠ نجح نابليون بوسائل غير مشروعة فى انتخابه قائداً ثانياً لفرقة من المتطوعين الكورسيكيين ، معتقداً أن الانتخاب لا يتضارب مع وظيفة فى الجيش الفرنسى ، ووقف بحكم وظيفته الجديدة على أسرار تأليف الجيوش غير النظامية . غير أن تغييراً طرأ على أفكاره السياسية حينما ألغت الثورة الفرنسية نظم الحكم القديم فى كورسيكا (٣٠ نوفمبر سنة ١٧٨٩) ، وأصبحت الجزيرة مديرية من مديريات الملكية الديموقراطية الجديدة فى فرنسا ، بعد أن كانت مستعمرة من مستعمرات التاج . ذلك أن حبه القديم لكورسيكا لم يتغير ، بيد أن عداءه لفرنسا أخذ يزول ، ولا سيما أن الجمعية الأهلية فى باريس اعترفت بمزايا مواطنيه ، وأذنت

---

(١) البيروقراطية والثيوقراطية والأرستوقراطية والأتوقراطية والديوقراطية والديموقراطية ، كلمات صاغتها اللغات الغربية للدلالة على أنواع مختلفة فى حكم الأمم ، والبيروقراطية معناها نظام الحكم القائم على المركزية المدرجة التى يكون فيها الموظف مسئولا أمام رئيسه المباشر فقط .

(٢) قامت الثورة الفرنسية فى الجزيرة كذلك ، باعتبارها من ولايات فرنسا التى ثارت ضد النظام القديم .

لباؤولى بالعودة إلى بلاده،ورخصت بتمثيل كورسيكا فى النظام النيابى الذى اعتزمته فرنسا .

لكن أبى القدر أن يكون نابليون حاكم شعب من رعاة الأغنام ورواد التلال الخضراء . وذلك أنه لما نشبت الحرب بين أوربا والثورة ، وأصبحت الحكومة فى باريس فى أيدى اليعقوبيين ، اتهم باؤولى زعيم الكورسيكيين (وكان من أول أمره من دعاة الملكية الدستورية ومديناً لإنجلترا لإكرامها إياه أيام نفيه) بأنه من حزب المعتدلين الممالئين لإنجلترا . وقوى تلك التهمة خيبة حملة بحرية فرنسية أنفذتها الحكومة اليعقوبية بقيادته إلى مادالينا ، وهى جزيرة صغيرة على مقربة من سردينيا[١] ؛ إذ اتهم باؤولى بأنه السبب فى خيبتها ، لتهاونه وفتوره فى قيادتها ، مع أن السبب الحقيقى حدوث فتنة بين البحارة . انتهز تلك الفرصة لوسيان بونابرت أخو نابليون ، الذى رفض باؤولى مرة أن يعينه ناموساً له ، وكان سنه إذ ذاك ثمانية عشر ربيعاً ، وقال إن باؤولى خائن ، وكتب لليعقوبيين أن زعيم كورسيكا لا يصلح إلا للمقصلة . قبلت الحكومة فى باريس بدون تمحيص قول ذلك الشاب الثورى ، وقررت فى أبريل سنة ١٧٩٣م القبض على باؤولى، وعهد لمندوبى المؤتمر الأهلى فى باستيا[٢] فى إنفاذ القرار. قامت قيامة أهل كورسيكا عند وصول أخبار تلك الإهانة التى لحقت برجل يعتبرونه أباً لهم وزعيماً حقبة من الدهر ، أما باؤولى فإنه

---

(١) و (٢) انظر مصور رقم ١ ، جزيرة كورسيكا .

احتمى بحصن كورت[1] الجبلى ، حيث التف حوله المخلصون من رجاله الرعاة ، وأعلن استعداده لملاقاة كل ما تنويه فرنسا نحوه . عند ذلك أضحت الجزيرة على باب فتنة داخلية ، وأصبح مركز آل بونابرت حرجاً بسبب الفعلة الطائشة التى أتاها لوسيان .

أما نابليون فتغيرت حماسته الأولى نحو الثورة الفرنسية ، لأنه قضى صيف عام ١٧٩٢م فى باريس ، وشهد الهجوم على قصر التويلرى فى ٢٠ يونية من السنة نفسها ، ومذبحة الحرس السويسرى فى ١٠ أغسطس ، فكبر على تربيته العسكرية أن ترى الغوغاء تعيث فساداً ، وأن ترى فرقة منظمة تمزق ، لعدم وجود قائد حازم مقدام . قال دهشاً لصديقه بورين [2] بينما تدفقت الجموع نحو قصر الملك فى ٢٠ يونية : « ما أجبنهم ! (يعنى القائمين بالدفاع عن القصر) كيف يسمحون لهؤلاء

---

(١) انظر مصور رقم ١ جزيرة كورسيكا .

(٢) لويس بورين زميل نابليون فى المدرسة الحربية فى برين ؛ التحق بالخدمة فى الوظائف الدبلوماسية ، وفى سنة ١٧٩٥ م رجع إلى فرنسا ، فوجد نابليون قائداً فى الجيش الفرنسى وحاكماً حربياً على باريس ومن ذوى النفوذ فيها . وفى سنة١٧٩٦م طلب نابليون من صديقه بورين أن يكون ناموساً له فقبل ، وبقى مستودع أسرار نابليون حتى بعد أن أصبح إمبراطوراً ، ثم عزل لاتهامه بالتلاعب فى الأعطية الخاصة بميرة الجيش . وفى سنة ١٨٠٧ م عفا عنه نابليون ، وتعين ملحقاً سياسياً للسفارة الفرنسية فى هامبورج ، غير أنه ارتكب جريمة التلاعب ثانية ، فأعيد إلى فرنسا ، وحكم عليه بدفع مليون فرنك غرامة للخزينة الفرنسية . لم يغفر بورين للإمبراطور ذلك الحكم القاسى ، وبقى من ذلك الحين من أشد أعداء نابليون واسم نابليون . وكتب بورين مذكراته فى عشر مجلدات طبعت فى باريس سنة ١٨٢٩ م ، وصف فيها نابليون فى جميع أدوار حياته ، وذكر دخائل أطماعه .

الرعاع بالدخول ؟ أليس فى مقدورهم القضاء على أربعمائة أو خمسمائة من تلك الجموع بقوة المدافع ، فتلوذ البقية بالفرار ؟ ». وفى أثناء مذبحة ١٠ أغسطس ذهب إلى حدائق التويلرى ، وتمكن بعبارة خلابة أن يمنع أحد أهل مرسيليا من ذبح رجل قائلا : « أى رجل الجنوب ! جدير بنا أن نخلص هذا التعيس » . بالجملة شفت تلك المناظر نابليون من أحلامه الأولى ، فكتب إلى أهله أن اليعقوبيين أصابهم جنون ، وأن الحكم بيد شرذمة من الدساسين السفلة ، وأن الناس إذا فحصنا عن أعمالهم ألفيناهم لا يستحقون الجهود التى تبذل لإرضائهم . فى وسط ذلك الإرهاب ، وجد نابليون سلوة فى دراسة علم الفلك الذى اعتبره العلم السامى .

رجع نابليون إلى كورسيكا خريف سنة ١٧٩٢ م برتبة يوزباشى ، وعلم أن أسرته مغضوب عليها من باؤولى ملك كورسيكا غير المتوج ،إذ حال دون انتخاب يوسف بونابرت للمؤتمر الأهلى فى باريس ، وأعلن أنه لا يعتقد فى كفاية شبان أسرة بونابرت « اليعقوبيين » الذين أعانوا عليه أعداءه . وعلى الرغم من ذلك لم يقطع نابليون علاقته بالرجل الذى ظل زعيم النابهين من أهل الجزيرة ، فتولى تحت زعامته قيادة المدفعية فى الحملة التعسة إلى مادالينا(١) . ولما حملت الأنباء إلى أجاكسيو قرار القبض على باؤولى كتب نابليون عريضة للمؤتمر الأهلى فى باريس ، واحتج بلهجة شديدة على المعاملة السيئة المجحفة بوطنى عظيم شريف مثل

---

(١) انظر ما سبق هنا .

باؤولى . بيد أن الفتنة التى قامت فى كورسيكا ، كانت أشد أن تهدئ ثائرتها رسالة مهما تبلغ عبارتها من الحماسة ؛ لأن البونابرتيين كانوا أصدقاء ساليتشى (Salicetti) حاكم الجزيرة من قبل فرنسا، وأنهم بذلك أعداء باؤولى . ولما شاع خبر طيش لوسيان فى بلدة كورت ، استحال بذلك عمل أى ترضية ، وأصبحت المسألة حرباً بين أهل بونابرت ومن يمالئونهم ، وبين أهل الجزيرة . حدث فى أثناء تلك الشحناء أن أخذ نابليون أسيراً فى قرية بوكونيانو الجبلية ، ثم تمكن من الهرب ، واختفى فى أجاكسيو ، ومنها فر إلى شمال الجزيرة . وحدث ذات ليلة ، بعد ذلك بقليل ، أن أوقظت أم نابليون فى جوف الليل ، لتهرب بأربعة من أولادها إلى وادى الزيتون الجميل قرب بلدة ميللى ، ومن هناك إلى حصن كابيتلو على البحر . وعقد بعض أنصار باؤولى النية على مطاردة آل نابليون والمنتمين إليهم من كورسيكا ، فأحرقوا لهم ستة بيوت وطاحوناً وبستانين ، فما كان من نابليون إزاء تلك المطاردات ، إلا أن سافر هو وأسرته ، على ظهر سفينة قامت من ميناء كالڤى فى ١٠ يونيه سنة ١٧٩٣ م ، ووصلت طولون بعد ثلاثة أيام . كل تلك الحوادث يمكن استيفاء تفاصيلها من بطون الكتب الكثيرة ، أو من أحاديث أهل الريف الحالين فى منازل كورسيكا الحجرية .

حفل ذلك الصيف بالحوادث فى فرنسا ، ففى الغرب قام الملكيون فى وجه الحكومة ، وفى نورمنديا قام الجيرونديون [1] كذلك ، كما قاموا

---

(١) انقسمت الجمعية التشريعية فى بادئ الأمر إلى ثلاثة أحزاب : وهى الحزب اليعقوبى المتطرف ، وأشهر أعضائه جماعة الجيرونديين ، نسبة إلى إقليم الجيروند الذى

فى بوردو ومرسيليا ؛ وفى ليون قامت ثورة خطيرة . واسترد الحلفاء بلجيكا ، وأجلوا الفرنسيين عن مراكزهم الحربية على الحدود مثل ما ينس وكونديه وفالنسين ، فأصبحت فرنسا مهددة بزحف جيوش الحلفاء إلى الأراضى الفرنسية . وفى ٢٨ أغسطس سنة ١٧٩٣م وصل أسطول إنجليزى يخفق عليه علم لويس السابع عشر إلى تولون ، وهى الميناء الحربية الهامة على البحر المتوسط ، لم تشهد الحكومة وقتاً أشد خطراً على كيانها — وعلى وحدة فرنسا — من ذلك الوقت الذى جعل المعتدلين المتوسطين حيارى لا يعرفون أى منقلب ينقلبون ، إذ تنازعتهم عوامل متضاربة : من حكومة ملطخ اسمها بقتل الملك ، وبتجاوز الحد فى أحكامها العرفية ، وعلم أبيض يخفق رمزاً للرجعية ؛ وجيوش للحلفاء تتقدم وتتوغل فى البلاد تحمل لها الإهانة والعار .

لم يجد نابليون صعوبة فى اختيار طريقه : رأى من صالحه أن ينضم للحكومة القائمة ، رغم احتقاره لساسة باريس القابضين على زمام الأمور ، فأعلن فى صراحة أن حياة فرنسا متوقفة على حزب الجبليين[1]. بعد ذلك بقليل — أى فى ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٣ م — التحق نابليون

= انتخبوا عنه . وكان هذا الحزب اليعقوبى حزب اليسار ،وينقم على الدستور الفرنسى الجديد ، بعكس حزب الفويان الذى عضد الدستور الجديد ، ولذلك كان هو حزب اليمين . أما الحزب الثالث فاسمه حزب الوسط ، واشتمل على أفراد عرفوا بالحذر والتردد ، يخدمون الحزب بعد الآخر دون اتخاذ خطة سياسية معينة ، اللهم إلا خطة الميل للأغلبية ، وهذا أضعف الإيمان فى السياسة .

(١) عند ما انعقد المؤتمر الأهلى بعد الجمعية التشريعية فى سبتمبر سنة ١٧٩٢ م ،

عملا بنصيحة صديقه الكورسيكى ساليتشى بأركان حرب المدفعية لجيش الجمهورية المعسكر أمام تولون ، حيث ظهرت صفاته العسكرية لأول مرة . ذلك أنه رأى قبل أن يخطر ببال أحد أن نجاح الحصار الذى ضربه الجيش الجمهورى حول تولون يتوقف على إرغام الأسطول الإنجليزى على ترك الميناء الداخلية ، وأن أحسن وسيلة للوصول إلى ذلك الغرض هو حصن ليجيلت (L'Eguillette) الواقع عند نهاية الطرف الغربى من رأس كير (Caire) . وبعد مضى ثلاثة أشهر قضاها نابليون فى عزيمة لاتكل وشجاعة لا تفل توجت أعماله بالنجاح التام ؛ إذ دخل الجيش الجمهورى تولون ظافراً فى ١٩ ديسمبر سنة ١٧٩٣م ، وأتى من أعمال الانتقام الشنيعة ما أنسى الناس فظائع أيام الحصار . لاجرم أن الحكومة — وعلى رأسها روبسبير[1] — أصبحت مدينة للضابط

= كانت الأحزاب المبينة فى الحاشية السابقة تغيرت أوضاعها ومبادئها : إذ أصبح الجيرونديون حزب اليمين ، وأصبح بقية الحزب اليعقوبى حزب اليسار . وأخذت طائفة شديدة التطرف مقاعدها فى أعلى شرفات المجلس فلقبوا بالجبليين ، وهم بقية أخرى من الحزب اليعقوبى . وكان بين حزبى اليمين واليسار حزب ثالث عرف أعضاؤه باسم السهل ، وسياستهم الموافقة على رأى الفريق الأقوى .

(١) مكسمليان روبسبير باريسى المولد ، تعرف أيام دراسته إلى ديمولان (Desmoulins) الذى كان له بعدئذ شأن كبير فى الثورة الفرنسية . وفى سنة ١٧٨١ م أصبح روبسبير محامياً ، وانتخب سنة ١٧٨٩ م لمجلس طبقات الأمة ، وصار بسرعة أحد زعماء حزب اليسار . وظل نفوذ روبسبير يزداد حتى أيام المؤتمر الأهلى وحكم الإرهاب ، حين عين عضواً فى لجنة الأمن العام ، ثم انفرد بالسلطة ، وأصبح الحاكم المطلق فى فرنسا لمدة ثلاثة شهور ، من أبريل إلى يوليه سنة ١٧٩٤ م .

الشاب الذى تسبب فى ذلك الانتصار الباهر ، فى وقت ما كان أحوج الحكومة إلى أى انتصار . لذلك كافأته بالترقية إلى رتبة لواء ، وفى ربيع سنة ١٨٩٤م أوفدته — بناء على طلبه — إلى جهة جنوا بحجة المخابرة لتوريد مواد غذائية ، والغرض الحقيقى درس الجهة تمهيداً لإعلان الحرب .

لا يخفى أن حياة أى قائد من قادة جيش الجمهورية — مهما يكن إخلاصه وقدره — متوقفة على وشاية واش أو كيد كائد . مثل ذلك أن نابليون كان صديقاً لروبسبيير ، والرسول السرى لحكومة الإرهاب[1] ، ومع ذلك اشتبه روبسبيير فى اشتراكه فى ثورة ترميدور[2] ؛ ولما رجع من جنوا

---

(١) بعد أن حوكم لويس السادس عشر ملك فرنسا ، وحكم عليه بالإعدام فى ١٧ يناير سنة ١٧٩٣ م ، رأى زعماء الثورة أنه تحتم عليهم المضى فيما شرعوا فيه من الإرهاب ، سواء أرغبوا فى ذلك أم كرهوا ، حتى لا تسنح الفرصة للرجعيين وأنصار الملكية بالثأر منهم . وتهيأت الأحوال والظروف كلها لهم لتحقيق أغراضهم إذ أحاطت بالبلاد إذ ذاك أخطار نشأت عن حالة الفزع — التى أوجدها قتل الملك — فى داخل البلاد وخارجها .

(٢) تفصيل ثورة ترميدور أنه لما خاف كثير من أعضاء المؤتمر الأهلى على أرواحهم من فتك روبسبيير الذى أصبح الحاكم بأمره فى فرنسا ، وبدأوا يحسون ألا حاجة للارهاب وإراقة الدماء ، تآمروا على روبسبيير وانتهى الأمر بإرساله إلى المقصلة فى ٢٩ يوليو سنة ١٧٩٤ م الموافق ١٠ ترميدور بحسب تقويم الحرية الفرنسية .

هنا يجدر ذكر شىء عن تقويم الحرية الفرنسية ، الذى وضعه المؤتمر الأهلى ، ليحل محل التقويم الجريجورى ، على أن يكون مبدؤه تاريخ إعلان الجمهورية فى يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ . واشتمل هذا التقويم على أسماء جديدة للأيام والشهور والفصول ، ومحى نظام الأسابيع : انقسمت السنة إلى اثنى عشر شهراً ، وهى فنديمير وبرومير وفريمير ونيفوز وبليفوز =

مزوداً بالمعلومات الجغرافية ، اتهم بأنه الرأس المفكر لروبسبيير ، ونزعت منه درجته الحربية ، وزج فى أعماق سجن حصن كاريه (Carré) قرب أنتيب (Antibes) فى ١٢ أغسطس سنة ١٧٩٤م ؛ غير أن أوراقه لم يوجد بينها ما يثبت عليه التهمة ،لأنه تجنب التدخل فى الأمور مع ذلك الحاكم العجيب . يثبت ذلك أنه لما عرض عليه روبسبيير قيادة الجيش الداخلى فى باريس رفض ،اعتقاداً منه أن ليس لأى عنق نجاة من المقصلة فى تلك المدينة ، وأن آونة اكتساب أكاليل الغار فيها لم تحن بعد . أفاد ذلك الحذر نابليون ، إذ لم تثبت عليه التهمة الموجهة إليه ، فأطلق سراحه فى ٢٠ أغسطس ، وأعيد إلى رتبته الحربية بعد ذلك بقليل . وسرعان ما برهن نابليون من جديد على عظم مواهبه ، حين شتت عن بلدة ديجو (Dego) ، فى ٢١ سبتمبر ، شمل فرقة من النمسويين ، حاولت قطع المواصلات بين فرنسا وجنوا ، والفضل فى ذلك للحركات الصائبة التى دبرها بصفته قائد المدفعية .

منذ ذلك الوقت أصبح نابليون متطلعاً لقيادة الجيوش فى إيطاليا

=وفنتوز وجرمينال وفلوريال و بريريال ومسيدور وترميدور وفريكتيدور ،والمتأمل فى معانى تلك الأسماء فى اللغة الفرنسية يجد أنها تدل على المواسم الزراعية والجوية المختلفة فى فرنسا . وكان كل شهر بحسب ذلك التقويم يحتوى على ثلاثين يوماً ، مقسمة إلى ثلاثة أقسام ، كل قسم منها عشرة أيام . وكانت أسماء الأيام عددية مبنية على اللاتينية ، وكان اليوم العاشر دائماً يوم عطلة ،ليحل محل يوم الأحد فى التقويم الجريجورى. ومن أجل التوفيق بين سنة تقويم الحرية الفرنسية والسنة الشمسية اتفق على إضافة خمسة أيام فى آخر كل فركتيدور ، ليكتمل عدد أيام السنة ٣٦٥ ، على أن تكون تلك الخمسة أيام عطلة .

لإلمامه بطبيعة أرضها ، ولأنه رسم خطة يستطيع بتنفيذها أن يقضى على الجناح الأيسر للتحالف الأوربى ضد فرنسا . لكن الحكومة حالت بينه وبين ذلك ، واستدعته ليذهب مع الجيش المكلف بإخماد الثورات فى غرب فرنسا برتبة أمير لواء المشاة . رأى نابليون أن لو أطاع الأمر فإنه سيلقى عملا لا يدرى مداه ، وأنه سيخوض غمار حرب أهلية كلها مخاطر ، ليس من ورائها فائدة ، ضد عصابات غير نظامية من الأشراف والفلاحين الملكيين . ولذا ذهب إلى باريس ، وامتنع بجرأة عن تنفيذ ما كلف به ، بحجة المرض ، معتمداً على معاضدة بارا (Barras) وفريرون (Fréron) زعيمى حزب الأغلبية ، اللذين أعجبه بمقدرته فى حصار تولون . ظل الحظ باسماً لنابليون مدة من الزمن ، فاستشارته لجنة الأمور الحربية ليرسم خطة جديدة للقتال فى إيطاليا ففعل ، وقبلتها الحكومة ، وبعثت بها للتنفيذ فى ميدان القتال . غير أن المقادير شاءت أن يحال ظهير نابليون وصديقه فى الدوائر الرسمية دولسيه يونتكولان (Doulcet Pontecoulant) ، على المعاش . بذلك أصبح نابليون ولا عضد له ، وتنبهت وزارة الحربية لمعاندته القديمة ، وفى ١٥ سبتمبر سنة ١٧٥٩ م بينما انتظر أن يوفد إلى القسطنطينية لتنظيم قوات المدفعية فى جيش السلطان شُطب اسمه من قائمة القادة الفرنسيين .

أنقذ نابليون من هذه السقطة قيام ثورة فى باريس : ذلك أن المؤتمر الأهلى الذى أصبح مكروهاً بحق من كل المنتمين للملكية ، ومن كل المعتدلين بحق كذلك ، أثار غضب الناس حين قرر أن يكون

ثلثا الأعضاء فى الهيئة التشريعية المقبلة — تحت نظام حكومة الإدارة الجديدة — من أعضائه . أخذ الناس يقولون إن قراراً كهذا ، يدل على أن كل عمل للخلاص من حكم الإرهاب ، ولمنح فرنسا حكومة منظمة محترمة ، ليس إلا كلاماً لا قيمة له . وقالوا أيضاً ما فائدة الدستور الجديد — ومجلس الإدارة الخماسى ، ومجلس الشيوخ ، ومجلس الخمسمائة ، وما إلى ذلك من الاحتياطات التى اتخذت لمنع تسلط الغوغاء — إذا ظلت دفة الأمور فى يد تلك العصابة التى وقفت جامدة أمام مذابح سبتمبر [1] ، والتى نفذت حكمى إعدام الملك والملكة ، والتى حولت باريس إلى مجزرة ، والتى أزهقت روح ولى العهد بإيداعه سجن الهيكل بضع سنين ؟ عزم الحرس الأهلى المؤلف من ثلاثين ألفاً على الانتقام من تلك الهيئة التى قررت قانون الثلثين المقوت ؛ ولما كان الجيش الموالى للمؤتمر لا يزيد على خمسة آلاف ، باتت الحكومة فى خطر شديد .

تخلص المؤتمر من ذلك المأزق الحرج يوم ٥ أكتوبر سنة ١٧٩٥ م بفضل مدافع القائد نابليون ، الذى أعيد إلى الخدمة بوساطة صديقه

---

(١) كانت خواتيم الجمعية التشريعية (أغسطس سنة ١٧٩٢) أياماً عصيبة فى فرنسا ، لاقتراب الأعداء من الحدود الفرنسية . لذلك قررت الجمعية القبض على الأشراف حتى يأمنوا شر الخيانة ، فامتلأت بهم السجون . ولما وافت الأخبار بسقوط فردان فى يد الأعداء استولى الجزع على الفرنسيين ، وطافت بالسجون عصابات مسلحة أودت بحياة جميع من كان فيها ، واستمرت هذه المذابح حتى ٥ سبتمبر ، وبلغ عدد ضحاياها نحو ١٥٠٠ ، لذلك لقبت بحق مذابح سبتمبر .

بارا . ففى الليلة السابقة لذلك اليوم تعين بارا قائداً لجيش باريس، ولما لم يكن بارا جندياً آل أمر الدفاع عن المؤتمر إلى نابليون الذى أبلى بلاء حسناً . قال تيبو يصف نابليون فى هذه الآونة : « إن نشاطه أدهش الألباب ، حتى خيل إلينا أنه حاضر فى كل مكان فى وقت واحد . وبهر الناس بأوامره الوجيزة السريعة الواضحة ، حتى أعجب الكل بنشاطه فى عمله ، وتحول إعجابهم ثقة به ، وتقمّهم حماسة لعمل ما يأمرهم بأدائه » . ولما كان نجاح حرب الشوارع متوقفاً على المدفعية، فإن مجىء مورا[1] بالمدافع من ميدان السابلون حقق النصر للمؤتمر . ذلك أن الجموع كانت كلما تقدمت من ميدان كنيسة سان روش نحو قصر التويلرى منعتهم نيران المدافع من التقدم،وسرعان ما انجلت الواقعة عن انتصار جيوش المؤتمر ، مع العلم بأن خسائر الطرفين لم تتجاوز المائتين من النفوس .

لا شك أنه لو جاءت النتيجة على عكس ذلك لهوت فرنسا من جديد إلى حضيض الفوضى والفتنة الأهلية،وليس فى هذه العبارة دفاع

---

(١) مورا قائد من أكبر قادة نابليون . وأخلصهم له،إذ توثقت العلاقة بينه وبين نابليون منذ هذه الوقعة ، فتزوج من كارولين أخت نابليون ، وتعين سنة ١٨٠٨ م ملكاً على نابلى ، وعمل فى الحملة الروسية سنة ١٨١٢ ، وفى موقعة ليبزج سنة ١٨١٣م. ثم تنافر نابليون ومورا حوالى ذلك الوقت . فخابر مورا الحلفاء فى الانضمام إليهم ، بشرط الاعتراف به ملكاً على نابلى . ولما رفض الحلفاء طلبه ، عاد مورا إلى نابليون وحارب معه فى فترة المائة يوم ، غير أنه هزم فى إيطاليا ، كما هزم نابليون فى واترلو ، وخسر كل منهما جيشه وتاجه .

عن المؤتمر وأعماله، فمهما تكن صحائف المؤتمر سوداء ، ومهما تكن أعماله شنيعة ، فهو لا يقل فى شرف أغراضه عن كثير من مناوئيه ، بل يزيد عليهم ، لأنه يمثل المصالح الكبيرة فى فرنسا ، ويعمل للمحافظة على ثلاثة أمور تصبح فى خطر لو قضى عليه المؤتمر فى ڤندمير[1] ، تلك الأمور الثلاثة هى التسوية العامة التى أنتجتها الثورة ، واتحاد الأمة ، وحماية الحدود من الغزو الأجنبى . أما نابليون فكوفئ بتعيينه قائداً للجيش الداخلى ، ولا يخفى أنه بإنقاذه المؤتمر لم ينقذ لفرنسا نظامها الاجتماعى الجديد القائم على المساواة فحسب ، بل أنقذ حكومة ملوثة يدها بدم الملك ، وعازمة على مواصلة القتال ضد المغيرين على حدود بلادها .

فى تلك الآونة التى زها فيها الحظ ، وقع نابليون أسير حب امرأة من أصدقاء بارا وتاليان[2]، وهى أرمل المركيز إسكندر بوهارنيه الذى عمل قائداً فى جيش الجمهورية سابقاً ، والذى دقت المقصلة عنقه أيام حكم الإرهاب ، كما دقت أعناق كثير من الأبرياء والمخلصين مثله . ولدت جوزفين بوهارنيه فى جزيرة مارتينيك من جزائر الهند الغربية سنة ١٧٦٣م ، وكانت على جانب عظيم من الرقة والجاذبية شأن سكان

---

(١) ڤندمير أول شهور السنة فى تقويم الحرية الفرنسية . انظر ما سبق هنا ، ص ٢٠ ، حاشية ٢ ووقعت الفتنة المذكورة فى اليوم الثالث عشر منه .

(٢) تاليان أحد زعماء الثورة فى أول أدوارها ، ويرجع إليه الفضل فى تدبير المؤامرة التى انتهت بإعدام روبسبيير .



جوزفين

(متحف اللوفر بباريس)

الجنوب ، ذات صوت خافت رنان ، هيفاء القد ، حلوة اللسان ، رشيقة الحركة أما حسن ذوقها فى المحافل ، فلم يقل عن حسن محياها ، مع قدرة على إخفاء ما نقص من تربيتها العقلية والمدرسية ، حتى عجز أكبر رواد الصالونات تأنقاً أن يعيب عليها شيئاً .

أما نابليون القائد الشاب ، الذى لم يكن فى اصفرار وجهه وقصر قامته وخشونة مظهره ما يحبب النساء فيه ، فإنه وقع فى حب هذه الأرمل الأرستوقراطية التى زادت عمرها على عمره وقتذاك ست سنين . ولم يثنه عن حبها فقر تشكوه وطفلان تعولها ؛ لأن صداقتها المتينة مع بارا ذى النفوذ الكبير ، رجحت على كل الاعتبارات الأخرى ؛ هذا إذا سلمنا جدلا أن للتفكير والتقدير مجالا مع الحب المبرح .

أما جوزفين فكانت من الرزانة والروية بحيث ملكت عواطفها ؛ غير أنها لم تلبث أن خضعت إرادتها لتلك الشجاعة والثقة بالنفس وسعة العقل ، ولتلك النظرة المتغلغلة التى كأنما ينبعث منها شرر تخشع منه الأبصار ، ولتلك النار الكامنة فى طيات ذلك الحب المبرح . وكيف تعجز جوزفين أمام كل ذلك عن إدراك أن الأيام تكن مستقبلا زاهراً لنابليون ؟ تم الزواج آخر الأمر فى ٩ مارس سنة ١٧٩٦م ؛ وقبل ذلك بيومين تعين نابليون قائداً للحملة الإيطالية بناء على اقتراح كارنو[1] فى

(١) كارنو قائد فرنسى منقطع النظير ، دخل الجيش مهندساً سنة ١٧٩١ م ، وانتخب عضواً فى الجمعية التشريعية وفى المؤتمر بعدها ، حيث كان من المتطرفين الذين صوتوا فى جانب إعدام لويس السادس عشر . وتعين كارنو فى لجنة الأمن العام وصارت =

بجلس الخمسمائة ؛ إذ أدرك ذلك الرجل المجرب — وهو المحور الأكبر فى نتصارات الثورة فى الخارج — قيمة الخطة التى وضعها نابليون فى صيف لسنة السابقة لغزو إيطاليا ، وقدمها إلى لجنة الأمور الحربية ، وأشار بأن يعهد إلى الجنرال بونابرت إنفاذ الخطة التى وضعها .

=بيده إداة الشؤون الحربية ، ولا يكاد التاريخ يعرف لذلك الرجل مثيلا فى قدرته العجيبة على تنظيم الجيوش وتجهيزها ، فلم يحل الحول على تعيينه حتى انقلبت هزائم فرنسا إلى انتصارات .

الفصل الثانى

الحملة الإيطالية

ظلت الحرب قائمة بين الثورة الفرنسية وملوك أوربا نحو أربع سنين عبثت أثناءها آفات الجبن والفتنة بالجيوش الفرنسية ، ثم ما لبثت هذه الجيوش نفسها أن أدهشت العالم بشجاعتها وإقدامها ؛ ففتحت بلجيكا وهولندا وساڤوى ونيس ، وغزت أكثر من مرة بلاد الألمان ، وفازت فى عهد العلم ذى الثلاثة الألوان بما كانت تحلم به — ولا تناله — فى زمن علم الملكية البربونية الأبيض . وبلغ مجد فرنسا شأواً جعلها تعتبر استرداد حدود غاليا القديمة[1] الممتدة إلى الرين وجبال الألب شرطاً جوهرياً فى سياستها. لا يقوم للسلام قائمة بدونه . لم يكن السبب فى ذلك الغلو الجديد تفوق الجيوش الفرنسية فقط ، أو كمال المعدات التى جعلتها أحسن جيوش أوربا فحسب ، بل حماسة الأمة الفرنسية التى بدأت تتدرج فى مضمار الحرية . لذلك وجدت الملكيات القديمة

(١) غاليا اسم لاتينى قديم لبلاد فرنسا الحالية من بحر المانش وخليج بسكاى إلى نهر الرين وجبال الألب ، أى قبل دخول قبائل الفرنجة تلك البلاد فى القرن الخامس الميلادى وتسميتهم لها باسم مشتق من اسمهم أى فرنسا .

نفسها — وهى الشحيحة بدماء جيوشها المرتزقة — قبالة دولة مستعدة لتضحية آلاف من أبنائها كل أسبوع ؛ ووراءها ذلك البذل الذى فاق ما بذله فردريك الأكبر ملك بروسيا من النفوس فى وقائعة . ونتج عن ذلك أن أخذ تحالف ملوك أوربا[1] يتفكك ، نظراً لتكاثر الصعوبات فى وجهه ، فضلا عن أن التحالف نفسه لم يكن من أول الأمر وثيقاً . لذلك انسحبت بروسيا من الحرب سنة ١٧٩٥م ، وجرت وراءها كل شمال ألمانيا ، وحذت إسبانيا حذوهما . أما روسيا فبقيت معادية ، ولكنها لم تحرك ساكناً لاشتغال جنودها فى بولندا ، ولمرض القيصرة مرضاً قضى على حياتها .

لم يبق إذاً من الدول الكبرى فى حالة حرب مع فرنسا سوى إنجلترا والنمسا ، اللتين أصرتا على عدم الاعتراف بالحدود الفرنسية الجديدة . لذلك أصبح استمرار الحرب البرية متوقفاً على موقف النمسا ومقدرتها ، أما إنجلترا فلعلمها أن الثورة أفسدت نظام البحرية الفرنسية ، رأت أن فى استطاعتها الاستيلاء على مستعمرات فرنسا والتربص بأساطيلها التجارية ، وإرسال جيوش للإغارة على ممتلكاتها ولا جرم أنه كانت هناك صعوبات متنوعة فى سبيل الحصول لفرنسا على اعتراف رسمى من هاتين الدولتين بحدودها الجديدة ثمناً للسلم . لأن الاعتراف بنظرية الحدود الطبيعية معناه أن تصبح فرنسا حاكمة بلجيكا بما فيها نهر الشلت ،

---

(١) هذا التحالف معروف فى تاريخ أوربا أثناء الثورة الفرنسية باسم التحالف الأول .

وهو المجرى المائى ذى الأهمية التجارية العظيمة ، الذى طالما أثار الغيرة بين هولندا وإنجلترا ، حتى أدى الأمر إلى عدم استعماله للملاحة ، وهذا فضلا عن أن بلجيكا فيها كذلك ثغر أنفرس العظيم الذى إذا استولت عليه دولة قوية ، أمكنها مزاحمة لندن فى سيادتها التجارية . ثم إنه كان من المستحيل أن تتخلى النمسا عن أرضها البلجيكية لفرنسا دون تعويض ، فوق أن إنجلترا تستهين بالحرب عشرين سنة عن أن ترى العلم الثلاثى الألوان يخفق على أنفرس . على أن مسألة البلجيك ، وهى موضع اهتمام دائم من ناحية الوزارة الإنجليزية ، لم تك موضع الخلاف الوحيد بين فرنسيس الثانى إمبراطور النمسا وبين الجمهورية الفرنسية ، لأن الإمبراطور الشاب العنيد القصير النظر ، عقد النية — بصفته ابن أخى مارى أنطوانيت [1] وحليف ملوك بربون — على أن ينتقم لما حل بأسرته من الأذى ، وبمقام الملوك من الإهانة ، ولما له من الحق فى حماية المصالح الألمانية على نهر الرين بصفته إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، ولما عليه من واجب المساعدة لسردينيا التى انتزعت منها ساقوى ونيس ، إذ أن ملك سردينيا يعد حارس أبواب إيطاليا الغربية ، وليست إيطاليا نفسها إلا من لوازم النمسا ، ومصلحتها فى أن تكون إيطاليا بعيدة عن تأثيرات الثورة الفرنسية أكثر من مصلحتها فى المحافظة على أنفرس أو حماية نهر الرين ، أو الانتقام للملكيين ضحايا المقصلة والثورة .

---

(١) زوجة لويس السادس عشر ملك فرنسا ، قتلت بعد زوجها فى أكتوبر سنة ١٧٩٣م.

وأدرك نابليون أن فرنسا لن تحصل على صلح شريف إلا أن تفوز الجيوش الفرنسية بقيادته فوزاً واضحاً فى إيطاليا وسبق لنابليون أن رسم الخطة لذلك فى مذكرة بديعة ، كتبها فى يولية سنة ١٧٩٤م ، أى قبل سنتين من الحملة الإيطالية لروبسبيير — الذى كان أصغر منه سناً — وأشار فيها إلى ضرورة اتخاذ خطة الدفاع على الحدود الإسبانية وخطة الهجوم العنيف على الحدود الإيطالية . فلما أصبحت بيده قيادة الجيش فى إيطاليا جعل خطته أن يسير من سهل الرڤييرا عابراً جبال الأبنين ، لمنع الاتصال بين الجيوش النمساوية والسردينية المنتشرة على الممار الواقعة شمال بلدة ساڤرنا ، حتى إذا تم له فصلهما أمكنه إخراج النمساويين من إيطاليا وعبور جبال التيرول إلى باڤاريا ، أو التقدم عند تريستا شمالا حتى يتصل بالجيش الفرنسى المعسكر عند الرين ، ثم يتقدم ظافراً بالجيشين نحو ڤينا فيملى شروط الصلح عند أسوارها .

من المعلوم أن فن الحرب يسير دائماً مع التقدم العلمى والمادى : ففى القرن السابع عشر الميلادى حين كانت البنادق تُحشى من فوهاتها ، ومدفعية الميدان ثقيلة الحمل صعبة الاستعمال — حتى إن اثنى عشر مدفعاً اعتبرت كافية للجيش ، وست قذائف كافية لأى ملحمة — فى ذلك الزمن كانت الغلبة فى الحرب للسيف وأسنة الحراب ، والملاحم على ندرتها قصيرة حاسمة ؛ وفى تلك الملاحم كان تعيين مراكز حَملة الحراب وحَملة البنادق ورجال المدفعية والخيالة يستغرق معظم اليوم ، كما كان تغيير المراكز عند الحاجة يستغرق ساعات كثيرة . فى ذلك

الزمن لم يكن فى مقدور أى قائد حازم أن يقسم القوى التى تحت إمرته ، أو يخاطر بالاشتباك مع جيش يفوق جيشه عدداً ؛ كذلك كان من المستحيل أن يرغم أى جيش — مهما يكن متفوقاً — جيشاً آخر على الاشتباك معه ، ما دام الآخر لا يريد ذلك ؛ وكان فى مقدور القائد الحازم أن يخفى مركز جيشه لمدة أسابيع ، وأن يقوم بعمل مناورات بدون أن يشتبك فى موقعة حربية مدة سنة .

شهدت القرن الثامن عشر ثورة فى فن الحرب ، بإدخال سلسلة من التحسينات فى الأسلحة النارية : فما وافت سنة ١٧٢٠م حتى كانت بندقة الجندى فى فرقة المشاة تصلح لإطلاق أكثر من طلقة واحدة ، فى الدقيقة ؛ ثم اخترع مدفع للميدان خفيف الحمل سهل الاستعمال ؛ ثم جاءت المدفعية التى تجرها الخيل « المدفعية الراكبة » . وأخيراً جاء اختراع جريبوڤال عام ١٧٦٥م — وكان ضابطاً فى جيش لويس الخامس عشر — وهو مدفع للميدان عظيم المنفعة ، خفيف الوزن . ولم تقتصر نتيجة تلك التحسينات على المدفعية ، التى أصبحت على جانب عظيم من الأهمية فى الحرب ، إذ صار المدفع لأول مرة عاملا هاماً فى حركات المشاة ، بل تغيرت كل قوانين خطط القتال وتدابيره ، حتى أصبح من الممكن تجزئة الجيوش إلى فرق ، ما دام فى استطاعة الفرقة الواحدة أن تدفع عن نفسها ضد قوة متفوقة إذا كانت فى موقع حسن ، أو أن تسلمَ بنفسها على الأقل بسلسلة حركات ساقية ، إذا هى وقعت فى مأزق خطير . ومن ثم أصبحت مسألة المسائل أمام رجال الحرب كيف

يفيدون من تلك الطريقة الجديدة، وهى سهولة القيام بمناورات حربية على طول الخط الأمامى، بفرقة من الجيش يمكن تغيير أوضاع فئاتها تدريجاً. وكذلك انقضى نظام إبقاء الجيش كتلة واحدة، ونظام اصطفاف الجيوش للقتال؛ وصار فى مقدور القادة تسيير الجيوش من نقط بعيدة إلى خطوط النار، وإرسال فرقة لشد أزر فرقة أخرى مغلوبة، أو لتحويل نظر العدو عن نقطة الهجوم الحقيقية. وأصبح من الضرورى معرفة طبيعة الأرض وانحدار الطرق حيثما كثرت وحدات الجيش؛ وبات من الممكن كسب موقعة باستخدام المصورات والبوصلة، وتقرير مصير معركة بانقضاض فرقة واحدة على جيش مختل مفلول الكتائب، بشرط أن تظاهر الفرقة المهاجمة نيران المدفعية مجتمعة.

أدرك الكتاب الحربيون الفرنسيون الذين عاشوا قبل الثورة مبادئ فن الحرب التى بنيت على التغييرات المتقدمة، وأوضحوها فى كتاباتهم، ووفوها حقها من البحث، قبل أن تسنح فرصة لتجربتها فى ميادين القتال. مثل ذلك أنهم عرفوا قيمة الحركات الهجومية، وضرورة السرعة فى تواصل فئات الجيش قبل القتال، واستخدام المدفعية تمهيداً لهجوم الكتائب كتلة واحدة. وعرفوا كذلك أهمية المدفعية الراكبة فى نجاح الحركات الساقية؛ ونصحوا فى كتاباتهم بضرورة خفة حركة الجيوش، وهو الأمر الذى يستلزم الاستغناء عن فرق خاصة لنقل المؤن والذخائر، وإرهاق القرى والبلاد المجاورة للمعسكرات بما تحتاج الجيوش إليه من المؤونة والعلف. وبالجملة كانت كل أصول فن الحرب: مثل وجوب مضايقة

العدو باستمرار ، وإخراجه من استحكاماته القوية ، ومفاجأته تحت جنح الظلام ، وإرباكه بهجمات عنيفة على مواطن ضعفه — كل تلك الأصول كانت معروفة لكل من درس مؤلفات الكتاب الحربيين جيبير وجريبوڤال ، وبورسيه ، ودى تيىْ . وعلى ذلك ألمّ بونابرت إلماماً تامًّا بجميع القواعد الجديدة فى فن الحرب ؛ وإليه يرجع الفضل فى تطبيقها ، وإثبات أثرها الفعال .

اتبع نابليون هذه القواعد الجديدة ، دون أن يزيد عليها ؛ وليست الجيوش الفرنسية مدينة له إلا بأنه هو الذى قادها للنصر المبين : ذلك أنه لم يخترع آلة حربية جديدة ، ولم يبتكر نظاماً جديداً ، ولم يضع قواعد جديدة لحركات الهجوم والدفاع ، بل انتهج ما وضعه غيره من طرق التسليح وتدريب الجنود ، وطرق الحرب المتبعة فى الجيش الفرنسى القديم ، الذى قضى فيه أيامه الأولى . غير أن نابليون فضّل من طرق الهجوم طريقة النظام المزدوج ، الذى أوصى به جيبير ، للجمع بين تأثير نيران الخطوط الأمامية وتأثير قوة الكتائب المتراصة الهاجمة ، باستخدامها بالتعاقب . لكنه لم يتبع تلك الطريقة دائماً ، بل قصرها على الجزء الذى يريد تطويق العدو فيه بالميدان ، حتى إذا ما سنحت الفرصة للانقضاض على العدو نيط الهجوم بكتل متراصة . ومع ذلك ترك نابليون لضباطه إدارة الخطط الفرعية ، أما « الخطط العامة » — كما سماها — لتوزيع الفرق على الميدان ، واختيار نقط الضعف التى يجب مهاجمتها فى صفوف العدو ، وتصويب كل نيران

المدافع نحوها، فكانت من اختصاصاته ، وفى تلك قلما طاش سهمه . غير أن نجاح عمليات الكتائب المتراصة التى اتبعتها جيوش الثورة الفرنسية اعتمد على عدم ثبات العدو ؛ لأنه يشترط أن يدب الخلل فى صفوف جيوش العدو أولا بفعل المدافع أو مناورات الطلائع ، حتى يكون لمفاجآت الكتـــائب أثر فعال . أما إذا تكونت جيوش العدو من رماة لا يعرف الروع إليهم سبيلا ، وحمتها من نيران المدفعية طبيعة الأرض المرابطة بها ، ففى هذه الحال لا يجدى هجوم الكتائب المتراصة شيئاً ، لأن نيران الرماة تحصد جبهة الكتيبة فتضيع الواقعة قبل أن تتمكن قوة هذه الكتائب من الانهيال بأجمعها على خصمها ؛ وهذا سر انتصار الجنرال ستيوارت الإنجليزى فى موقعة ميدا سنة ١٨٠٦م، وانتصارات ولنجتون فى حرب شبه الجزيرة الإسبانية [١] . غير أنه لا يفوتنا أنه حين تسلم نابليون قيادة الحملة الإيطالية سنة ١٧٩٦م كانت طريقة هجوم الكتائب المتراصة غير معروفة القيمة ، لأنه حتى وقتئذاك لم يقف جيش أمام الجيوش الفرنسية ، أو يثبت ضدها للتحقيق من مزايا هجوم الكتائب المتراصة .

يلاحظ أن الجيش الفرنسى — وهو أحسن جيوش أوربا أواخر عهد لويس السادس عشر — بلغ مستوى عالياً من القوة بسبب الانقلابات السياسية التى حدثت فى فرنسا . ذلك أنه على الرغم من هجرة كثير من ضباطه ، ظلت قوته الحربية كامنة فيه، لبقاء معظم رجال الجيش

---

(١) سوف يأتى الكلام على حرب شبه جزيرة إسبانيا والبرتغال، فى الفصل التاسع .

الملكى من مدفعيين ومهندسين فى خدمة العلم الثلاثى الألوان ؛ فضلا عن أن جيش الوطن والشعب أصبح لا يجزع للتضحية مهما تعظم ، كما أضحى قادراً على حركات حربيـــة لم تكن معروفة من قبل . والسر فى ذلك أن أبواب الرقى أصبحت مفتوحة لكل جدير بها ، بعد أن كانت موصدة إلا فى وجه الأشراف ، حتى صار من الممكن لرجل قادر أن يصبح فى بضع سنين فى مصاف عظماء القادة . زد على ذلك أن النفوس رخصت فى سبيل الوطن، وأصبح الجيش ذخراً فى الملمات ، لا متاعاً للملك يجب المحافظة عليه؛ وسرت حمية الأمة إلى ثكنات الجيوش، فأصبح كل جندى مستعداً للاقاة الصعاب وتذليلها فى سبيل ذلك الجهاد الذى لم يسبق أن وقفت أمة حياتها لنيله .

لما تولى نابليون القيادة فى إيطاليا ، لم يكن معروفاً لدى كبار ضباطه الذين زعموا أن ذلك الشاب الصغير — ذا الوجه النحيف ، والقامة الضئيلة ، والذى أبرز إليهم صورة عروسه مفاخراً بها — لا يمكن أن يكون تعيينه إلا نتيجة المحاباة وتدبير المكايد . « لكنه بعد أن وضع قبعة القيادة ، ظهر كأنما زاد فى الطول قدمين » ، كما لاحظ مسينا[1]

(١) مسينا (André Masséna) من أكبر قادة نابليون . بدأ حياته جندياً إبان الثورة وارتقى بسرعة ، وأبلى بلاء حسناً فى الحرب الإيطالية حتى لقبه نابليون (Enfant chéri de la victoire) . وظل مسينا يكسب لنفسه الفخار حتى أصبح مارشالا سنة ١٨٠٤م ، وبقى يعمل فى ميادين القتال حتى أيام حرب شبه الجزيرة ، حين غضب عليه نابليون . ولما رجعت الملكية البربونية إلى فرنسا دخل مسينا خدمتها ، وظل على ولائه لها حتى وفاته ١٨١٧م .

الذى قال عنه كذلك : « بدأ يناقشنا فى مراكز فرقنا ، وفى الروح المعنوية ، والقوة الحربية السائدة فى كل فرقة ؛ ثم رسم لنا الخطة التى نسير عليها . بعد ذلك أعلن أنه سيقوم فى الغد باستعراض الجيش ، وأنه سيبدأ مهاجمة العدو ، فى اليوم التالى بعده » . كان كل من مسينا وبرتييه[1] وأوجيرو[2] أكبر من نابليون سناً ؛ لكن القائد الجديد تكلم بتؤدة ووقار وروية ، حتى أقنع جميع من سمعه بأنه جدير بقيادة الأبطال . وكانت الأمة الفرنسية المتأججة فيها الحماسة لنصرة الشعوب ، مستعدة للسير وراء قائد مثله ، ذى عزيمة ماضية وإرادة حديدية ومهارة فى فن الحرب وأسراره ، بالإضافة إلى فصاحة وقوة خيال ، وحب للصيت ،

---

(١) ولد إسكندر برتييه (Alexandre Berthier) سنة ١٧٥٣ م . وكان أبوه جندياً ، فأدخله الجيش سنة ١٧٧٠م . ارتقى برتييه بسرعة حتى صار رئيس أركان حرب الجيش الفرنسى فى الحملة الإيطالية ، وقد رافق نابليون إلى مصر بالوظيفة نفسها . ولما أصبح نابليون قنصلا سنة ١٧٩٩م تقلد برتييه وزارة الحربية ، وظل يعمل حتى سقط نابليون سنة ١٨١٤م. عند ذلك اضطر برتييه إلى الخضوع للملكية الجديدة فى فرنسا ؛ غير أنه لما رجع نابليون من إلبا لم يطق برتييه البقاء فى فرنسا ، فاحتجب عن الناس ، وأقام فى بلدة على الحدود ، حيث كان يتتبع حوادث وطنه . وفى أثناء الحرب النهائية بين نابليون وأوربا سنة ١٨١٥ م ، أطل برتييه يوماً من شباك بيته ، فرأى فرقة من الجيوش البروسية الظافرة تتقدم نحو الحدود الفرنسية ، فلم يطق المنظر ، فألقى بنفسه من الشباك إلى الشارع ، ومات .

(٢) ولد بيير شارل أوجيرو (Pierre Charles Augereau) سنة ١٧٥٧م . وكان أبوه بائع فاكهة فى باريس . خدم أول حياته فى الجيش الفرنسى ، ثم اشتغل أستاذاً فى المصارعة . وفى سنة ١٧٩٢م دخل جيش الثورة الفرنسية ، وترقى فى أقل من ثلاث سنوات إلى رتبة قائد فرقة . وقد رافق نابليون إلى إيطاليا ، وبقى يرقى حتى صار من أكبر وأخلص القواد الذين التفوا حول نابليون ، ومات سنة ١٨١٦ م .

وقدرة على مسّ أوتار القلوب ببضع كلمات فى بلاغ أو نشرة حربية .

وتعدّ فاتحة حروب نابليون فى إيطاليا نموذجاً من نماذج فن الحرب : إذ طارد القائد الشاب الجيوش النمساوية إلى ما وراء نهر پو ، وأرغم السردينيين على مهادنته فى أقل من عشرين يوماً — أحرز كل ذلك بأربعة وعشرين مدفعاً من المدافع الجبلية الخفيفة ، وعدد قليل من الخيالة ، وجيش من المشاة ينقص فى العدد عن جيوش أعدائه كثيراً ، فضلا عن سوء حالته وقلة ميرته . بيد أن مقدرة نابليون فى سرعة تحريك جيوشه جعلها تفوق فى العدد جنود الأعداء عند كل معركة هامة ؛ ولا عجب فإن الحرب كانت بين الشباب الناهض الوثاب وبين الشيخوخة والهرم ، بين دقة الإلمام بتفاصيل ميدان القتال والجهل المطبق[1] ؛ ولا يفوتنا أن من أسباب نجاح نابليون دربة الجيش الفرنسى على القتال فى الأراضى الجبلية قبل أن يقوده هو . وكان حزم القائد الشاب لا يقل فى الاعتبار عن صولة جنوده ، ومن الدليل على ذلك أنه لما فصل جيوش الأعداء عند منتنت[2] (Montenotte) ، لم يقتف أثر النمساويين الذين ولوا الأدبار إلى سهول لمبارديا ، بل تحول شرقاً لاقتفاء البيدمنتيين [3] ، حتى

---

(١) المقصود هنا مقارنة بين الشاب نابليون والقائد النمساوى الهرم بوليو .

(٢) انظر مصور رقم ٣ إيطاليا ، للتحقق من مواقع البلاد التى نشبت عندها الحروب فى هذا الفصل من الكتاب .

(٣) البيدمنتيون نسبة إلى مملكة بيدمنت ، ويسمون أيضاً بالسردينيين ، لأن بيدمنت وسردينيا اسمان اصطلاحيان على مسمى واحد ، أى المملكة الواقعة فى الشمال الغربى من إيطاليا ، وتحتوى على بيدمنت وجزيرة سردينيا .

يتمكن بالقضاء عليهم من إبقاء مواصلاته مع فرنسا . مستمرة .وانتصر نابليون على البيدمنتيين فى مندوفى (Mondovi) وتشيفا (Ceva) ؛ ولو كان فى مكانه قائد عادى لزحف على تورين عاصمة بيدمنت ، ليملى بها شروط الصلح . لكنه لم يفعل ذلك ، بل عقد مع البيدمنتيين هدنة عند تشراسكو (Cherasco) ، حصل بمقتضاها على كل ما يحتاج إليه : إذ استولى على ثلاثة معاقل ، وعلى جميع الطرق الحربية التى تخترق بيدمنت . بذلك دل نابليون على أن السر فى قوته هو عدم إضاعة الوقت فى إحراز انتصارات صغيرة تافهة ، وإلمامه التام بجميع ما يلزم لعمله فى نواحى ميدان القتال . ثم اقتحم نابليون جسر لودى فى ١٠ مايو من السنة نفسها ، ولم تمض خمسة أيام حتى كان فى طريقه إلى ميلان .

وأهم شىء فى الأعمال الحربية التالية هو حصار مدينة مانتوا القوية ، التى اجتمع فيها من المئونة ما يكفى لمدة أربعة أشهر ، ومن الحامية ما يبلغ ثلاثة عشر ألفاً . ذلك أنه ما دام العلم النمساوى — ذو النسر الأسود — يخفق على تلك المدينة الحصينة المشرفة على نهر منشيو (Mincio) ، فلن يستطيع الفرنسيون التقدم شمالا نحو التيرول ، ولا شرقاً إلى تريستا ، لا سيما أنهم لا يمكنهم أن يأتمنوا الدويلات الإيطالية الصغيرة التى تعطف على النظام القديم ، وتعتبر دخول ذلك الملحد وجيشه الجمهورى — فى بلادهم ذات الثقافة القديمة — مبرراً كبيراً للفوضى . أرسل النمساويون جيوشهم أربع مرات لفك الحصار عن مانتوا ، وصدّهم

نابليون فى المرات الأربع ؛ وهنا أيضاً قل عدد الفرنسيين عن عدد النمساويين غير أن نابليون أدار حركات جيوشه بمهارة جعلتها تبدو — فى أحرج ساعات القتال — أكبر من أعدائها عدداً ، فبلغ عدد أول جيش أرسلته النمسا لفك الحصار عن مانتوا خمسين ألف مقاتل تحت قيادة ڤرمزر ، على حين بلغ كل ما أعدّه له نابليون اثنين وأربعين ألفا ، منهم عشرة آلاف مشغولين باستمرار الحصار تحت قيادة سروريبه .

وكان المنتظر إذن أن يفوز ڤرمزر بالمعركة ، لكن النمساويين أخطئوا فى تقسيم قواتهم : إذ سار ڤرمزر ونهر آديج على رأس اثنين وثلاثين ألف مقاتل متتبعاً الطريق بين بحيرة جاردا والنهر ، على حين سار القائد النمساوى الآخر كوازدانوڤتش متتبعاً الشاطئ الآخر للبحيرة ، على رأس ١٨,٠٠٠ مقاتل . وعلى الرغم من ذلك الخطأ كان الجيش الفرنسى غير كاف للقيام بما ألقى على عاتقه ، حتى إنه قرّ قرار المجلس الحربى الذى عقد فى روڤر بلا فى ٣٠ يوليه سنة ١٧٩٦م ، على ترك الحصار وترك المعدات التى كانت مهيأة له ، وحشد كل القوات الفرنسية لصد الجيوش النمساويه الآتية لفك الحصار . وسواء أكان هذا العزم بناء على اقتراح أوچيرو أم غيره ، فإنه اتفق وروح المخاطرة السائدة فى الجيش الفرنسى ، وتمشّى مع بعد نظر نابليون . ذلك أن الخسارة التى تنجم عن ترك الحصار وتضحية معداته ، ليست شيئاً بجانب الخسارة المعنوية التى تحلّ بالجيش إذا اضطر إلى التقهقر ، أو إذا حلت به الهزيمة فى الميدان . وكان كل غرض نابليون أن يقضى القضاء المبرم

على كل قوات العدو قبل أن تتجمع وحداته جنوبى بحيرة جاردا ؛ فصدّ كوازدانوفتش أولا بالقرب من لوناتو فى ٣ أغسطس ، ثم وجه قواته إلى ڤرمزر الذى سيّر جيوشاً جديدة لنجدة مانتوا ، فهزمه فى كاستليونه بعد قتال عنيف ، ورده إلى التيرول بخسارة ستين مدفعاً وعشرة آلاف مقاتل . بذلك خرج نابليون من المأزق الحرج فائزاً ، ورأى أن ينتظر وصول نجدات جديدة وأخبار انتصارات الجيوش الفرنسية فى جنوب ألمانيا[1] .

فى سبتمبر استأنف النمساويون الهجوم لفك الحصار ، لكنهم كانوا أقل نظراً وأكثر تفككاً من قبل ، إذ شطر ڤرمزر جيشه شطرين ، أحدهما تحت قيادة داڤيدوڤتش مخترقاً التيرول ، والآخر تحت إمرته بصفته القائد العام ، متخذاً وادى البرنتا طريقاً له . وفى ٤ سبتمبر انهزم جيش داڤيدوڤتش المؤلف من ١٠,٠٠٠ مقاتل عند ڤريدو ،

---

(١) كانت خطة الحكومة الفرنسية لمحاربة النمسا تهدف إلى مهاجمة فينا من ثلاث جهات بثلاث جيوش منفصلة : يسير الجيش الأول بقيادة جوردان من جهة وادى المين ، ويسير الثانى بقيادة مورو من طريق الدانوب ، ويسير الثالث بقيادة نابليون من سهل لمبارديا . سارت الجيوش الثلاثة لتحقيق هذا الهدف وعند ما انتصر نابليون على القائد فرمزر عند كاستليونه ، كان الجيشان الآخران مرابطين فى وادى الرين ، وكانا على باب الاتصال معاً للزحف نحو أعالى الدانوب، إلا أنهما أخفقا وتقهقرا . وفى ربيع سنة ١٧٩٧م تسلم هوش القيادة بدل جوردان ، ونجح فى عبور الرين ، غير أن مورو عجز تلك المرة عن العبور لقلة المراكب . وهكذا لم تصادف الجيوش الفرنسية فى وادى الرين نجاحاً . ثم مات هوش فى سبتمبر من السنة نفسها ، فزال بذلك أحد مزاحمى نابليون .

أمام قوة ضعف عدده بالضبط تحت قيادة مسينا وأوچيرو وڤوبوا . أما نابليون الذى أوغل فى وادى البرنتا ، فى طريق بين الجيشين النمسويين ، فإنه بعد أن قطع ٥٧ ميلا فى ستين ساعة ، لحق بڤرمزر واشتبك معه فى ٨ سبتمبر ، وألحق به خسارة فادحة تقهقر على أثرها إلى مانتوا ، فزاد الطين بلّة بانضمام جيش كبير منهزم لحامية تفشى الوباء فى أفرادها. ولما كان من المتعذر متابعة الحرب فى ذلك الوقت من السنة ، تركهم نابليون يقاسون هول الأوبئة ، وهى كفيلة بالفتك بهم . ثم أرسل إلى پاريس أكثر من مرة يطلب المدافع والنجدات ليواصل الحصار عن كثب ، حتى لا يضطر إلى الاقتراب من مستنقعات مانتوا ، التى كانت مباءة الأمراض .

كانت فترة الستة الأسابيع — بين صدّ المحاولة الثانية لفك الحصار عن مانتوا وبين المحاولة الثالثة والأخيرة — من أكبر ما وعاه التاريخ الإيطالى: ففى أثنائها استقبل جيش الجمهورية الفرنسية بأسماله فى ميلان ، ورحب به نفر من أهلها المتنورين ، الذين تأثروا بما جاءت به الثورة الفرنسية من التعاليم الحرة ، فأصبحوا يعتبرون الديانة الكاثوليكية ديانة عقيمة ، والبابا دجالا ، والحكومة النمساوية شبحاً من أشباح الاستبداد . عرف نابليون أن أمثال هذه العواطف تنحصر فى الطبقات التى حظيت بدراسة القانون أو الطب أو الآداب ، وأن السواد الأعظم من الإيطاليين لا يزال جاهلا ساذجاً . لذلك رأى من حسن السياسة ، بصفته قائد جيش جمهورى ، وبشير المبادئ الجمهورية ، أن يشجع هؤلاء الإيطاليين

الذين شغفوا بالحرية ، وتطلعوا إليه ليدلهم على مواردها . فلما أظهرت ولايات رجيو ومودينا وفرارا وبولونيا ميلا للديموقراطية ، باركها نابليون وكوّن منها جمهورية ما وراء نهر پو[1] التى ضمّ إليها شطراً من الولايات البابوية ؛ فعل ذلك ولم ينتظر موافقة حكومته . وفى كتاب بعثه لأهالى رجيو أعلن أنه " حان الوقت الذى ينبغى أن تصبح فيه إيطاليا من الأمم القوية الحرة " . ثم طلب الذخائر والرجال من أهل إيطاليا ، وسار فى ربوع البلاد يجمع لنفسه ولقادته وجنوده وحكومته النفائس الفنية الغالية .

بعد ذلك كتب نابليون ، بخبرته الحربية المطبوعة ، إلى حكومة الإدارة[2] شارحاً سوء عاقبة الدخول فى حرب مع الولايات البابوية أو مع مملكة نابلى ، بما تحت إمرته من الجيوش القليلة ، وضرورة إبرام صلح مع نابلى ، ومشاغلة البابا بمفاوضات حتّى تنقشع غيوم الجيوش النمساوية المهاجمة ، ولا سيما أن تطلّع الولايات الشمالية الإيطالية للحرية جعلها فى جانب الفرنسيين . هكذا أصبحت حكومة الإدارة — التى اختطت لنفسها مشروع غزو جنوب إيطاليا ومصالحة النمسا على قاعدة ضم لمبارديا إليها مقابل بقاء بلجيكا لفرنسا — وقد فشل مشروعها كله بما أحدثه نابليون ؛ وأضحى محتماً عليهما أن تحمى النظم الجمهورية

---

(١) اسم هذه الجمهورية (Tranpadane Republic) ، لأن نهر بو اسمه فى اللغة اللاتينية (Padanus) .

(٢) هى الحكومة التى قامت فى فرنسا منذ أكتوبر سنة ١٧٩٥ م ، بعد حوادث الإرهاب والمؤتمر الأهلى .

التي أقيمت فى لمبارديا وأميليا ، وأن تصبر على بقاء حكم البابا فى ولاياته ، والملكية البربونية فى نابلى ؟ وعرفت حكومة الإدارة كذلك أنه لا يمكن الاستغناء عن جندى واحد من جيش الشمال . لأن النمسا جمعت ٦٠,٠٠٠ مقاتل فى التيرول وتريستا ، استعداداً لفك الحصار عن مانتوا للمرة الثالثة بعد فشلها فى المرتين السابقتين .

برهن الفصل الثالث من قصة فك الحصار عن مانتوا على نهاية مبلغ مهارة نابليون : إذ كان الجيش النمساوى الجديد تحت قيادة ألفنترى ، وكان جندياً مدرباً كسابقيه من القادة النمساويين ، بل يفضلهم ، لأنه — على قول نابليون — كان أقواهم وأشدهم ثباتاً ، لا ينقصه إلا حماسة الشباب ، ولذا انتصر عليه نابليون ، ورجحت كفته فى حرب كانت فى الواقع سجالا .

ومن الغريب أن النمساويين قسموا تلك المرة كذلك قواتهم الزاحفة على ما نتوا ، كأن لم يتعلموا من الدروس السابقة خطر التقسيم ؛ فزحف ألفنترى من تريستا ، وتقدم القائد النمساوى الآخر داڤيدوڤتش من التيرول . أما خطة نابليون فملخصها أنه أراد اجتناب ذلك الهجوم المزدوج ، بأن يزحف بنفسه شرقاً للقضاء على ألفنترى عند نهر پرنتا وبأن يسرع بجيشه متتبعاً مجرى أعالى النهر فى التيرول حتى يواجه مؤخرة جيش داڤيدوڤتش ، على أن تذهب فرقة فرنسية تحت إمرة ڤوبوا لإيقاف هذا الجيش عن التقدم على نهر آريج. ولم يكن تنفيذ تلك الخطة هيناً، لأن القائد الحربى — مهما تكن مهارته — لا يمكنه أن يعتمد على

إنفاذ كل تفاصيل خطته كما يريد بالضبط . لذلك كانت أول ملحمة عند أركولا (Arcola) سلسلة من المصائب على جيش نابليون ؛ أضف إلى ذلك أن ڤوبوا لم يوفق لإيقاف داڤيدوڤتش ، وأن أوچيرو ومسينا أخفقا فى عبور نهر پرنتا . وفى ١٢ أكتوبر ظهر جيش ألڤنتزى على تلال كالديرو مهدداً أبواب بلدة ڤيرونا ؛ ولما خرج نابليون ليردّه إلى الوراء ، وجد أن الإقدام الذى اشتهر به جيشه فى إيطاليا لا ينفع أمام عدو فى مركز حصين ؛ وأسفر القتال الذى دام طول النهار عن صد الفرنسيين على طول خط القتال ، وردهم إلى البلدة خائبين . أصبح مركز نابليون حرجاً : لأنه إذا تقهقر إلى مانتوا فإن الجيشين النمساويين يتصلان بعضهما ببعض ، وإذا بقى فى ڤيرونا فمن المحتمل أن يحاط به وهو فيها ، وإذا حاول مرة ثانية أن يهاجم الجيوش المرابطة على تلال كالديير فإنه يلقى ما لقيه فى المرة الأولى . لكن بصيرته العبقرية أملت عليه خطة فحواها أن يدور بجيشه حول معسكر ألڤنتزى ، ويستولى على معدات النقل والمدفعية الاحتياطية ، ويشتبك معه فى قتال قبل أن يتمكن داڤيدوڤتش من الوصول لنجدته . على ذلك ترك نابليون ٣٠٠٠ مقاتل فى ڤيرونا ، وخرج هو بالبقية متتبعاً نهر أديج . ثم عبر النهر عند رونكو فى ١٥ أكتوبر ، واخترق أرض المستنقعات الواقعة بين نهر أديج وألبونه .

اعترض تقدم الفرنسيين عائق غير منتظر ، وهو أن الجسر القائم على نهر ألبونه عند بلدة أركولا كانت تحميه كتيبتان من

الكرواتيين(١) لكن نابليون ضرب لجنوده مثلا حسناً عندما حمل علماً وتقدم نحو الجسر ليحذو الجنود حذوه، ويقتحموا القنطرة . غير أنه عبثاً حاول، لأن النمساويين كانوا يمطرونهم ناراً حامية من نوافذ بيوت القرية الواقعة على الجانب الآخر للنهر . اضطر الفرنسيون إلى التقهقر ؛ وفى وسط زحام المتقهقرين سقط نابليون فى النهر ، ولم ينج إلا بعد عناء . وفى اليوم التالى كان جيش ألفنتزى كله محيطاً بأركولا ؛ وهنا نشبت معركة استمرت حتى ليلة ١٧ ، تناوب المتقاتلان أثنائها الهزيمة والنصر . ثم اقتربت ساعة الفصل : وذلك أن عدداً من الفرسان ، وعلى رأسهم عبد أسود من فرقة الكشافة ، التفوا حول مؤخرة الجيش النمساوى ، وهم ينفخون فى الأبواق ، ليوهموا النمساويين أن هناك هجوماً عنيفاً ، فكانت النتيجة أن دبّ الاضطراب فى صفوف النمساويين . وانتهز أوچير الفرصة ، وكان يقود ميمنة الجيش الفرنسى ، وانقضّ على النمساويين حتى ألجأهم أصيل اليوم إلى الانسحاب من مراكزهم ، بعد أن دافعوا طول النهار دفاع الأبطال عن قلعة أركولا .

جاء ذلك الانتصار فى وقت أحوج ما كان الفرنسيون إليه ، لأن ڤوبوا انجلى فى اليوم نفسه عن ريڤولى ، وأصبح الطريق إلى ڤيرونا مفتوحاً أمام داڤيدوڤتش . ولو أن داڤيدوڤتش تحرك بسرعة وعزم ،

---

(١) الكرواتيون نسبة إلى الكروات اسم علم لبعض فرق الجيش النمساوى فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وكرواتيا إقليم من أقاليم إمبراطورية النمسا والمجر حتى الحرب العالمية الأولى ويسكن هذا الجنس جمهورية يوجوسلافيا الحالية .



نابليون عند جسر أركولا

(متحف اللوفر بباريس)

لتمكن فى غير شك من تعويض هزيمة أكولا ، لأن ألڤنتزى انسحب يوم ٢١ أكتوبر إلى مرتفعات كالديرو ، وأصبح فى مركز يسمح له بمعونة داڤيدوڤتش . لكن من حسن حظ نابليون أن داڤيدوڤتش لم يكن صلب العود ، حتى إذا أجلاه الفرنسيون عن مرتفعات ريڤولى تقهقر مذعوراً أمام المطاردة العنيفة التى قام بها ڤوبوا ومسينا .

بعد ذلك بأربعة أشهر ، جاءت الساعة التى قررت مسألة فك الحصار عن مانتوا : وذلك أنه فى ١٣ يناير وجد القائد الفرنسى چوبير نفسه عند ريڤولى فى وجه جيش نمساوى ، يتقدم من الشمال تحت قيادة ألڤنتزى ، ويفوق جيشه عدداً . فأرسل چوبير فى طلب الإمداد ، وإلا اضطر إلى الانسحاب من مواقعه ؛ ولم تمض الساعة الثانية من صباح اليوم التالى ، حتى وصل إليه نابليون من ڤيرونا ، وأبصر على ضوء القمر معسكرات النمساويين الخمسة ، ونارها تضىء الليل ما بين البحيرة ونهر أديج استخلص نابليون مما رأى أن المعدات تهيأ لنشوب معركة حوالى الساعة العاشرة ، وأن عدد النمسويين يبلغ ضعف عدد الفرنسيين . لكن موقع ريڤولى يمتاز بأن كل جيش يأتى لمهاجمة البلدة من التيرول ، لا يمكنه إجلاء حاميتها عن مراكزها إلا بتسلق القمم العالية المشرفة على الهضبة ، كما لا يمكنه تسلق القمم العالية قبل أن يترك وراءه كل خيله ومدفعيته . فنتج عن ذلك أن أعان الفرنسيين — على قلة عددهم أثناء المعركة — ستون مدفعاً وفرق كثيرة من الخيالة ، على حين اعتمد النمسويون على المشاة وحدهم . أضف إلى ذلك نشاط

نابليون ، ووصول مسينا بنجدة بعد مسيرة ليلة كاملة ، وهنا ترى كيف تأكد النصر للفرنسيين . فلم تكد الشمس تميل عن كبد السماء حتى اندحر النمسويون ، ولولا تراكم الثلج فى الطريق لتعقبهم الفرنسيون إلى ما بعد بلدة ترنت . بعد ذلك بثلاثة أسابيع خفق العلم الثلاثى الألوان على ما نتوا ، وزال الحجر الذى وقف عثرة فى سبيل نابليون .

ثم التفت نابليون إلى البابا ليسوى حسابه معه ، قبل أن يبدأ الزحف إلى الأمام . وهنا كذلك رفض نابليون أن يحيد قيد أنملة عن جادة النجح الحقيقى ، طوعاً لإشارة الوزارة الفرنسية التى احتقرها ، أو طمعاً فى انتصارات هينة لا تؤثر فى نتيجة القتال . كانت الحكومة البا بوية معادية للجمهورية الفرنسية التى نبذت المسيحية وسلطان الأكليروس ، وأشارت الوزارة على بونابرت أن يلقى على القساوسة درساً يعرفون منه مقامهم فى النظم الجمهورية . وكان من السهل جداً على الجنود الفرنسية — التى عرفنا حنكتها ، أن تتقدم ظافرة إلى روما نفسها ، حيث تقضى على حكومة هى أضعف الحكومات غير أن هذه المشورة مهما يكن فيها من الإغراء لا تستهوى السياسى المحنك أو الحربى القدير : إذ ليس من الحكمة أن يكدر شعور أهل إيطاليا الكاثوليكيين ، فى وقت كان الفرنسيون فى حاجة إلى ولائهم وعطفهم . هذا فضلا عن أنه كان من الحماقة الحربية الكبرى أن يزحف نابليون على روما ، والجيوش النمساوية لم يُقض عليها بعد القضاء الحاسم . لذلك اكتفى نابليون بأن عقد مع البابا معاهدة تولنتينو فى ٢٩ فبراير ، حصل فيها على جزية سنوية

وصور ثمينة وبضعة أقاليم ، دون أن يعرّض مركزه الحربي للأخطار . والحقيقة أنه رأى ألا يقطع العلائق مع البابا ، حتى يصبح سقوط مانتوا محققاً ؛ ولذا اختار لمصالحة البابا وقتًا أراد انتهازه للقضاء بسرعة على جيش نمساوى جديد يحتشد على نهر تاليامنتو ، قبل أن يتقوّى هذا الجيش بالأمداد المتتابعة . وبلغ من حرص نابليون على انتهاز الوقت أنه لم يظلّ فى إيطاليا حتى يتمّ تسليم مانتوا ، بل ترك لقائده سروريه أن يتسلمها مع سيف القائد العام النمساوى ، فى سبيل كسب بضعة أيام للزحف بنفسه نحو ڤينا .

امتاز آخر دور فى تلك الحروب بتتابع انتصارات الجيوش الفرنسية على عدو أقل دربة ، بعد أن تطرق عدم النظام إلى صفوفه . فبينما جوبير يتقدم نحو الشمال والشرق مخترقاً ممرى برنر وبوستّرتال فى التيرول ، هزم نابليون أرشيدوق شارل عند نهر تاليامنتو . ثم عبر نابليون ذلك عند جبل تارفس إلى كارنثيا ، وتقدم نحو العاصمة النمساوية ، فوصل يوم ٢٨ مارس إلى بلدة فلاخ . وفى ٧ أبريل وصلت طلائع الجيش الفرنسى بقيادة مسينا إلى مدينة لويبن (Loeben) ، على مسافة مائة ميل تقريباً من ڤينا ، وفى لويبن هذه ابتدأت المخابرات فى طلب الصلح ، وتم التوقيع على هدنة بين الطرفين . رأى نابليون بثاقب نظره الذى اتصف به طول مدة الحرب الإيطالية الأحوال الملائمة للوقوف عن التقدم ، والأحوال الملائمة للانقضاض على العدو ؛ ورأى أن من المخاطرة حقًّا أن يتقدم أكثر مما فعل ، لا لاحتمال جمع شتات

الجيوش النمساوية فحسب ، بل لأنه علم أن لا أمل فى وصول أى مساعدة من جيوش الرين[١] ، وأن من المحتمل قيام ثورات بين فلاحى البندقية والتيرول فتقطع عليه خط الرجعة .

قدّم نابليون إلى النمسا — على سبيل الاستهواء — أثناء المفاوضات التمهيدية فى لوبين ، جزءاً من جمهورية البندقية القديمة وهى الدولة الوادعة المطمئنة ، التى لم تفكر فى مناوأة فرنسا ، والتى لم يكن نظام حكومتها استبدادياً بدرجة تبرر تقويض أركانها . إنما يجدر قبل البحث فى موضوعها أن نذكر أن صاحب فكرة تقديمها طعمة للنمسا هو بونابرت دون سواه ، وأن صاحب فكرة قبول هذه الطعمة هو توجوت رئيس الوزارة النمساوية . ذلك أن نابليون اختار فى تلك الآونة سياسة لا هى جمهورية ولا هى ملكية ، بل كان غرضه أن يعقد صلحاً مع النمسا بسرعة مهما يكلفه الأمر ؛ وعرف أن أقرب طريق لحمل النمسا على التنازل عن بلجيكا ولمبارديا هو منحها البندقية فى مقابلهما . ولم يأبه نابليون لشهرة هذه الجمهورية الصغيرة التى كانت سوق اللهو للأغنياء والمقامرين ، ولم يحرك ضعفها السياسى فى قلبه الشفقه ، بل الازدراء . ومن الغريب أنه اعتقد أنه عمل ما فيه الكفاية فى سبيل تحرير إيطاليا ، وأن حرمان البندقية من حريتها ليس بالثمن الباهظ الذى يقدم لشراء حرية لمبارديا . لذلك عقد النية على خلق مشكلة بينه وبين البندقية

---

(١) راجع ص ٤٣ ، الحاشية رقم ١ .

بأى شكل من الأشكال ، وليس ذلك بالأمر العسير : فإن البندقية بدت من الضعف بحيث لم تستطع أن تحمى حيدتها ، أو أن تخمد المظاهرات التى قامت فيها ضد المبادئ اليعقوبية .

على ذلك اتخذت حادثة قيام فتنة فى ڤيرونا ذريعة لنشر الثورة فى البندقية نفسها ، فسقطت الحكومة العتيقة كمن يسقط مغشياً عليه . وانقلب أهل البندقية انقلاباً عجيباً . إذ أصبحوا مماوئين حماسة نحو العلم الثلاثى الألوان ، وشجرة الحرية ، والقلنسوة الحمراء ، وكل شعائر الثورة الفرنسية — لكن سرعان ما انقضى ذلك الجنون الصيفى ، ولم تحل ثلوج أكتوبر على قمم الجبال حتى رأى نابليون أن الوقت حان لإمضاء المعاهدة[1] ، وحتى علم البنادقة أن شجرة الحرية ، والقلنسوة الحمراء ، والعلم الثلاثى الألوان ، لم تمنع وقوع أكبر المصائب التى يمكن أن تحل بدولة . كذلك قسمت الجمهورية ورفرف العلم النمساوى المكروه ذو النسر الأسود على أضحال البندقية .

إذا كان من البدهيات أن ما عمل نابليون تجرد من الإنسانية ، فإن وصف نابليون بالرجل الفظ ليس من الصحة فى شىء : حكى أن ثلاثة من البنادقة ذهبوا سراً إلى فرنسا لرشوة رجال حكومة الإدارة ، ثم قبض عليهم فى الطريق بأمر نابليون ، وأعيدوا مهانين إلى ميلان ؛ فلما مثلوا أمام نابليون ، تكلم أحدهم واسمه داندولو وأفصح عما فى قلبه حتى حرك دموع نابليون ، وجعله يبذل ما فى جهده لإقناعه أن فعلته

(١) يعنى المعاهدة بينه وبين النمسا بشأن إيطاليا بما فيها تقسيم البندقية .

لم تكن إلا شيئاً مؤقتاً أملته الضرورة القصوى ، ووعده خيراً ؛ وكانت تلك العبرات صادقة حقاً ، وبرّ نابليون بوعده بعد وقعة أسترلتز[١].

ليس القضاء على البندقية أشهر الأعمال السياسية التى قام بها نابليون فى إيطاليا ، بل هناك ما هو أهم منها وهو تأسيس جمهورية الألب الشمالية (Cisalpine Repudlie) . وكثيراً ما قضت دول على دول ، وأقرب الأمثلة عهداً بولندا التى قُضى على حكومتها وقُسمت أمتها ، إرضاء لمطامع جيرانها . أما قيام جمهورية فى شمال إيطاليا ، كوليدة الدولة الفرنسية وتلميذة ثورتها ، فكان باعثاً لروح الحرية القومية فى إيطاليا ، وإهانة للأسرات الملكية التى لا يتفق وجودها مع تلك الحرية القومية . وربما يقول النقاد إن الجمهورية الجديدة بدت خليطاً غير متجانس ، مكوناً من لمبارديا وجهات ما وراء نهر پو وأقسام صغيرة من البندقية وسويسرا ؛ فهى والحالة هذه لن تعمر طويلا ، لما بين أجزائها من الفوارق . غير أنه مما ينبغى ملاحظته أن الجمهورية الجديدة ضمت أكثر سكان إيطاليا نشاطاً وتقدماً ، وأنها جعلت حاضرتها ميلان ذات المجد القديم ، وأنها ضمت كذلك مقاطعة بولونيا مهد العلم ومعقل الوطنية الحارة ، وأنها تؤسس على مثال الجمهوريات الإيطالية الصغيرة التى اضمحلت أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ،

---

(١) تنازلت النمسا فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٠٥ بمقتضى معاهدة برسبورج ، التى تلت هزيمتها فى أسترلتز على يد نابليون ، عن جميع ما حصلت عليه بمعاهدة كامبوفورميو ، ثم ضمت تلك الأراضى إلى مملكة إيطاليا .

بل تأسست على قاعدة تقييد المصالح المحلية ، التى أدت قديماً إلى إلى خراب إيطاليا . وكم من أسرة قام أبناؤها بأدوار عظيمة فى تحرير إيطاليا فى القرن التاسع عشر الميلادى ، فكان تأسيس جمهورية الألب الشمالية — وما بعثه ذلك من الآمال والمصالح السبب الأول فى تحول هذه الأسر إلى المسألة القومية الكبرى ، وهى تحرير إيطاليا .

يكاد الباحث يعتقد أن نابليون لبى داعى لحمه ودمه ، حين أقام تلك الجمهورية ، لتربية إيطاليا تربية سياسية . ولم لا ؟ . ألم يك نابليون فى الأصل إيطاليا ؟ ألم يهتف الإيطاليون كما يهتفون لأحد أبناء وطنهم ؟ ألم يتكلم لغتهم ويعرف مكنون قلوبهم ؟ لكن إذا ظهرت فى عمله أية عاطفة من جانبه ، فإن تلك العاطفة لم يولدها فيه الغرور ، لأنه عرف عيوب الطبائع الإيطالية تمام المعرفة ، وأدرك أن قوماً بلا غرض ولا عزم فى الحياة ، مرت عليهم دهور لم يمارسوا فيها الواجبات العامة ، ليسوا أهلا للحرية السياسية . قوى هذا الاعتقاد فى نفسه ما رآه من المبادئ اليعقوبية من أهل ميلان ، ولذلك فعلى الرغم من منحه الجمهورية الجديدة دستوراً على نمط الدستور الفرنسى ، فإنه عين بنفسه الوزراء والقضاء والنواب وكبار الموظفين ، وأخبر الحكومة فى باريس أن جمهورية الألب الشمالية أسست بمساعدة الجيش ، وأنها لا تستطيع تسيير شؤونها إذا سحب منها الجيش . أما عن المستقبل ، فكان نابليون واثقاً من أن حياة الخدمة العسكرية الإجبارية سوف تعلم أهل هذه الجمهورية مزايا الاتحاد والتماسك السياسى والمسئولية القومية . غير أن نابليون لم

يجهل صعوبات هذه الجمهورية الجديدة، ولم ينس أن الفلاحين يكرهون الحكومة التى تستحل أخذ محصولاتهم الجيدة بأوراق مالية منحطة القيمة ، ولذلك أكد لحكومة الإدارة أنها إذا سحبت الجنود الفرنسية عرّضت للضياع حياة كل مَن أعانه على إقامة الجمهورية الجديدة .

وفى ربيع وصيف سنة ١٧٩٧م ، بينما تدور المفاوضات مع النمسا ، وبينما تتعود إيطاليا نظام الجمهورية الجديدة ، كان نابليون يعيش عيشة الملوك فى قصر مومبلو الفخم (Mombello) الذى يبعد اثنى عشر ميلا عن ميلان . هناك لم ينقص نابليون إلا التاج ؛ إذ استقبل سفراء الدول وأقام المآدب العامة ، وإذا ركب سار فى معيته حرس بولندى . واتبعت حاشيته نظام رسميات دقيق ، وانهالت عليه القصائد والأناشيد الإيطالية التى دعته بطل الزمان ، ومشيد أركان السلام ، وهنيبال الجديد ، ورسول الإنسانية ، ومنقذها من براثن الاستبداد وعسف الطبقات الممتازة . والتف حوله عدد من صغار الضباط الأذكياء الذين تميزوا فرحاً بما نالوه من الانتصارات ، وبما أمامهم من الآمال فى المستقبل ، لم يفرّق الحسد بينهم بعد ، بل جمعتهم رابطة الحرب التى تصفو فيها القلوب للقلوب . وكان إلى جانبه جوزفين المملوءة بشاشة ، تداعب زوجها المملوء غيرة عليها ، ومعها أخوات نابليون الثلاث ، ترعاهن أمهن ، وكلهن فى بحبوحة العز المقيم . وبين هؤلاء بدا نابليون متواضعاً باسماً لكل أخصائه ، على رغم عبوسه وكبريائه فى ساعات العمل . وكل الذين حوله معجب بفكاهته التى تشرح الصدور ،

وبشاشته الطبيعية ، وعلمه الواسع عند بحث المسائل الأخلاقية أو السياسية . وزاد إعجابهم به حين وجدوا أنه شفيق ، يستنيم للمشورة ، مجدّ فى عمله ، قادر على استدعاء النوم فى أى وقت . وخيل إليهم أحياناً أن ليس هناك حد لأعماله وأغراضه ؛ فتارة يجلس مع رجال أركان الحرب مصغياً لأبحاث مونج[1] فى الهندسة ؛ وتارة يجلس فى حلبة يقصّ حكايات خرافية . أما ثقة نابليون بنفسه فلم تعرف حدًّا ، وأما عظمته فلم ينكرها أحد . مشى ذات يوم فى حدائق قصر مومبلو مع الشريفين الإيطاليين ميو (Miot) وملزى (Melzi) ، فأفضى إليهما بشيء من أطماعه . وحين قال مستفهما : "هل تعتقدان أنى أنتصر فى إيطاليا لأشيد مجد رجال حكومة الإدارة ؟" .

غير أن "الكمثرى كانت غير ناضجة" على قول نابليون ؛ وهو وإن احتقر رجال الحكومة فى فرنسا ، فإنه أدرك أن ليس فى مقدروه القضاء عليهم ، بل بالعكس . ولما كادت أمور الحكومة تؤول إلى الملكيين فى فرنسا ثانية ، كان نابليون السبب فى إحباط هذه المحاولة ، لأن هناك ثلاثة أسباب راجحة جعلته يعمل على منع رجوع آل بربون إلى باريس : الأول أنهم سوف يبدءون الصلح مع أوربا ؛ الثانى أنهم سوف يتولون زمام الأمور فى فرنسا ؛ الثالث أنهم سوف يستغنون عن خدماته .

---

(١) جاسبار مونج عالم فرنسى شهير فى الرياضة ، انتخب عضواً فى الأكاديمية الفرنسية سنة ١٧٨٠ م ، وفى إبان الثورة عين وزيراً للبحرية الفرنسية . ثم أوفدته حكومة الإدارة إلى إيطاليا لتنظيم أحوالها ، وهناك تعرف بنابليون .

أضف إلى ذلك أن حكم فئة ممن قاموا بقتل الملك هو على الأقل خير من أيام النظام الملكى القديم ، لوجود رجال أمثال بارا ممن يمكن رشوتهم وكتم أنفاسهم . لذلك لما جاءت الأخبار من باريس تنبئ بنجاح كثير من الملكيين فى الانتخابات عمل نابليون منشورات جمهورية ، وأرسلها إلى باريس باسم الجيش فى إيطاليا ، كما أوفد أوچيرو لإلقاء الرعب فى نفوس الباريسيين ، ولتطهير المجلسين النيابيين من الأعضاء الرجعيين . وانتهى الأمر بانقلاب فركتيدور[1] الذى نجح نجاحاً مبيناً فى إخماد أنصار الملكية ، وتأسيس حكومة عنيدة ضعيفة فى آن واحد . ثم زها الطالع لنابليون : فإنه فى الخريف الذى حصل فيه الانقلاب خرج من الميدان أكبر مزاحميه ذكاء ، وهم هوش (Hoche) وپشجرو (Pichegru) ومورو (Moreau) ؛ إذ مات الأول وهو فى ريعان الشباب ، واتهم الآخران بالعمل ضد انقلاب فركتيدور . وهكذا بلغ نابليون ذروة المجد ، وزادت شهرته كأكبر دعاة الجمهورية ، واعترف الكل بحكمته فى السياسة المعتدلة التى اتبعها فى إيطاليا . وفى ١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٧م وقع نابليون على معاهدة كامبو فورميو مع النمسا ، فبرهن أنه لا يقل دهاء عن كوبنتزل (Cobentzel) رئيس المفوضين النمسويين ، وأكبر سواس أوربا وأكثرهم حنكة فى ذلك الوقت . وبمقتضى تلك المعاهدة تنازلت النمسا على جلالها عن بلجيكا

---

(١) فركتيدور هو الشهر الثالث من تقويم الحرية الفرنسية ، ووافق الانقلاب يوم ٤ سبتمبر سنة ١٧٩٧ انظر ما سبق هنا ص ٢٠ حاشيه رقم ١ .

وعن حدود الرين لفرنسا ، واعترفت بجمهورية الألب الشمالية ، وأخذت فى مقابل ذلك الجزء الشرقى من البندقية . أملى نابليون تلك الشروط ، أما فرنسا والنمسا فعليهما أن تقبلاها على أى شكل كان .

الفصل الثالث

مصر والشام

نتج عن عقد معاهدة كامبو فورميو أن بقى من أعداء فرنسا الستة عدو واحد هو إنجلترا ، التى ظلت لآخر لحظة معادية لنابليون دون الدول الأخرى . وكانت إنجلترا فى نظر نابليون أصلب أعدائه عوداً ، لما هى عليه من الثروة واتساع المستعمرات والقوة البحرية ، ولأنها لا تألو جهداً فى بثّ الفتنة فى فرنسا . أما النمسا فإنها وإن أبلت فى ميادين لمبارديا ، إلا أن علَمها لم يخفق على ميناء فرنسى ، كما خفق العلم البريطانى على ميناء تولون أو على خليج كويبرون . إن إنجلترا ظلت ملاذ اللاجئين من دعاة الملكية الفرنسية ، ومحور التحالف الأوربى ضد فرنسا ، وصاحبة السيطرة على البحار . وما دامت إنجلترا على تلك الحال ، فسوف يظل النظام الذى أقامته الثورة فى فرنسا مهدد الأركان . وفى هذا الصدد كتب نابليون فى ١٨ أكتوبر سنة ١٧٩٧م ، قال : " يجب علينا سحق إنجلترا وإلا سحقتنا ، وللقضاء عليها يجب

توجيه كل قوانا نحو البحر ، فإذا نجحنا أصبحت أوربا تحت أقدمنا » .

لا يخفى أنه لو صحت عزيمة فرنسا على سحق إنجلترا ، لو جب عليها تنظيم بحريتها سريعاً ؛ لأن الثورة ، وإن بعثت فى جيوشها البرية روحاً جديداً ، فإنها أحدثت أثراً سيئاً فى قواها البحرية . وذلك أن البحرية — على ما يلزم لها من مهارة فنية وخبرة طويلة فى كل نواحيها — غشيها الفساد لشيوع مبادئ الثورة التى لا تعبأ بالنظام ، ولا تعرف لاختلاف درجات الرجال معنى ؛ فقامت الفتن فى أحواض السفن ، واستغنى عن خدمات رجال المدفعية البحرية المدربين ، واضطر كثير من الضباط الكفاة أبناء الأسر العريقة إلى ترك الخدمة . ولذلك أصبحت البحرية الفرنسية — وهى التى أبلت بلاء حسناً أثناء الحرب الأمريكية — مختلة النظام ، لدرجة لم يمكن تلافيها حتى فى أوج عظمة نابليون . وإنه لمن أسعد مصادفات التاريخ ، أن فرنسا التى لم يظهر لقوتها الحربية مثيل فى أوربا حتى القرن التاسع عشر الميلادى ، ظلت ضعيفة فى بحريتها ، بحيث إن آمالها فى بسط نفوذها على ربوع آسيا وأستراليا وأفريقية وأمريكا ضاعت بتغلب القوى الإنجليزية التى قامت لمناضلتها ، حفظاً لكيان إنجلترا وانتصاراً للحرية السياسية .

أصبح من المحتم أن يناط أمر منازلة إنجلترا إلى نابليون ، وهو القائد الشاب الذى توج انتصاراته الباهرة بصلح مبين . ولم يكد نابليون يعين على رأس الجيوش الموجهة ضد إنجلترا حتى بدأ يتفقد شواطئ بحر المانش فى فبراير سنة ١٧٩٧م ، فأدرك استحالة غزو إنجلترا قبل إعداد

المعدات الكافية التى يستغرق إعدادها وقتاً طويلا . على أن إنجلترا لم تكن فى نظر نابليون جزيرة فحسب ، بل دوله ذات سلطان واسع ، تستمدّ معظم قواتها من تجارتها الواسعة وممتلكاتها فى الهند ، وفى استطاعته أن يجد طرقاً عدة لمهاجمتها ؛ فإذا امتنع طريق المانش ، فهناك البحر الأبيض المتوسط ، حيث يمكن تسيير حملة على مصر تضطر إنجلترا إلى توزيع قواها البحرية — وهو الأمر الذى يستحيل بدونه الزحف على لندن .

وتكشفت بواعث أخرى لتبرير غزو مصر ، فإن نابليون منذ حداثة سنه يحلم بجمال الشرق وعظمته وما يحويه من الأسرار ، وإن رواد البحر من أهل كورسيكا الذين نشأ نابليون بينهم ألمّوا تمام الإلمام بساحل تونس المجاور لهم ، وتونس قريبة من مصر ، ومن مصر يسرح الخيال إلى مكة وطهران ، وإلى صحارى العرب وحدائق الورد ببلاد إيران ، وإلى المعابد البيضاء على ضفاف الكنج المقدس . فكّر نابليون — وهو فى سن الشباب — أن يندمج فى سلك الجيش البريطانى فى الهند ؛ وكاد يوماً — وهو قائد صغير — يذهب إلى تركيا ، ويبدأ فيها حلقة من سلسلة حياته الحربية[1] ؛ وفى أثناء الحرب الأوربية

---

(١) طلب نابليون مرة وهو حديث العهد بالخدمة فى الجيش الفرنسى أن توفده الحكومة الفرنسية لتركيا لتنظيم المدفعية فى جيش السلطان ، وكان غرضه أن تتاح له فرصة الاتصال بالشرق ، ولكن لم يسمح له بسبب غضب حكومة الإدارة عليه وحذف اسمه من قائمة القادة الفرنسيين . (انظر ما سبق هناك ، ص ٢١) .

اشتدت عقيدته فى قوة القضاء والقدر ، بسبب ما أحرزه من النصر تلو النصر ، وشعر كأن قوة خفية تجذبه نحو الشرق . وتحدث نابليون بذلك إلى أصدقائه فى كثير من الأحيان ، حتى أصبح يعتقد أن إيطاليا ليست نهاية أحلامه ، بل هى نقطة الابتداء ؛ وأن شكلها الجغرافى الممتدّ فى البحر ، وسواحلها الكثيرة التعاريج ، سوف تسهّل عليه الاستيلاء على أصقاع البحر الأبيض المتوسط ، وما وراءها من البلاد . لذلك استولى نابليون على أنكونا ، ليكون له ميناء مشرفٌ على الشرق ؛ واستولى كذلك على جزر أيونيان ، كما سيطر على جنوا ، وأسس الجمهورية الليجورية بها ، لتكون له قواعد على البحر الأدرياتى . واعتمد على الحظ ، لإثارة الفتنة فى اليونان وللقضاء على تركيا قضاء مبرما .

لا يخفى أنه لو نجحت الحملة فى الاستيلاء على مصر ، لكان من المحتمل أن يختل التوازن الدولى الذى تريده إنجلترا : إذ يستطيع نابليون أن يترك الأسطول الإنجليزى يروح ويغدو على مقربة من الإسكندرية ويعود هو إلى المانش ، فينقض على الشواطئ الإنجليزية ، ويقضى على حكومة لندن . وكان من الممكن كذلك أن ينتج عن فتح مصر — وشقّ قناة السويس وتحصينها . تجهيز حملة للسير إلى الهند للانضمام إلى قوى المهراتا[1] لطرد الإنجليز من ممتلكاتهم فى الشرق . أما إذا أخفق المشروعان السابقان ، فلا يزال أمام الذى يستولى على مصر مشروع

(١) المهراتا اسم يطلق على عدة إمارات فى الهند الوسطى ، ناوأت الإنجليز مدة طويلة أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر الميلادى .

فتح سورية والاستيلاء على القسطنطينية وتمزيق أوصال الدولة العثمانية .

أما نابليون فإنه رأى من الحزم أن يتخلص من الجوّ السياسى المكفهر فى باريس بأسرع ما يمكن ، ولا سيما أنه لم يبلغ الأربعين من عمره ليصلح للعضوية فى حكومة الإدارة . ثم إنه أيقن أن الشهرة مهما تبلغ ، فإن جذوتها لا تلبث أن تنطفئ إذا هى لم تذكها جلائل الأعمال . يثبت ذلك أنه قال فى ٢٩ يناير سنة ١٧٩٨م لناموسه بورين : « لا أريد المكث هنا ، فليس من عمل أقوم به . إن آذان القوم صُمّت ، وإن هذا البلد مقبرة النبوغ . بَلِيَتْ شهرتى على جدتها ، وليست أوربا بالميدان الواسع اتساعاً كافياً ؛ أما الشرق فمجال نيل الشهرة الواسعة » . لا شك هنا أن ذكرى الإسكندر الأكبر مثلت أمام عينى نابليون ، فضلا عن أنه اعتقد أن وراء أوربا — وما فيها من تقاليد راسخة ومدنية خانقة — بلاداً غيرها مترامية الأطراف ، حيث ظهرت دول ودالت دول ، وزُيّن لنابليون أن فتحها ليس عليه بعزيز ، وأن تنظيمها حسب إرادته ليس بالأمر العسير .

قبلت حكومة الإدارة رأيه ، ولا عجب فإن فرنسا اعتبرت مصر منذ أيام سان لويس وحملته الصليبية الشهيرة مطمح آمالها ، دون كل بلاد الشرق الأدنى . وكان المعروف عن مصر فى أوربا وقتذاك أنها ذات مدنية عتيقة بالية ، وأن قوتها الحربية مشهورة بضعفها ، وأن حكومتها فى أيدى المماليك الأجانب الطغاة ؟ وكان لَيبْنتز (Leibnitz) اقترح على لويس الرابع عشر الاستيلاء على وادى النيل ، وليبنتز هذا

أشهر فلاسفة الألمان . وكانت الفكرة نفسها بعد ذلك من مشروعات شوازيل (Choiseul) أمهر وزراء لويس الخامس عشر . وفضلا عن كل ذلك فإن فتح مصر سيضايق إنجلترا حقاً ، وسيبعد نابليون — ولو لأجل قريب — عن دائرة سياسة فرنسا الداخلية ، وهو الرجل الذى برهن على أنه فرد غير عادى ، وأنه خطر على النظم الديموقراطية . بقيت العقبة المالية ، وتلك ذللت بطريقة امتازت بها سياسة فرنسا الجمهورية ، إذ تذرعت بسبب واه لغزو سويسرا ، وخصصت من الكنوز التى استولت عليها فى برن (Berne) ، ثلاثة ملايين فرنك ، لتموين الحملة على مصر .

أقلع نابليون من تولون فى ١٩ مايو سنة ١٧٩٨م ، فى جماعة من مهرة القادة العسكريين والعلماء ورجال الفنون والمهندسين ، على رأس جيش مدرب مؤلف من ثمانية وثلاثين ألف مقاتل . ومن أولئك برتيبه رئيس أركان الحرب ، والقادة مارمون[١] ولان ونابليون ومورا وديزيه[٢] وكليبر . وكان فى وجود الرياضيين وعلماء طبقات الأرض

(١) تعرف مارمون بنابليون فى حصار تولون سنة ١٧٩٣ م ، وبدأت شهرته أثناء وجود الفرنسيين بمصر ، وظل فى خدمة الجمهورية والإمبراطورية حتى سنة ١٨١٤م . وحينئذ رأى أن الأمل فى انتصار نابليون على الدول التى اجتمعت عليه ذهب مع الريح ، فعقد هدنة مع جيش الحلفاء وهذه الهدنة هى السبب فى تنازل الإمبراطور عن العرش ، وقبوله الذهاب إلى جزيرة إلبا . وكافأ آل بوربون القائد مارمون على تلك الفعلة التى خدمتهم ، وظل يتقلب فى مناصب الجيش والسياسة فى فرنسا حتى وفاته سنة ١٨٥٢ م ، فكان بذلك آخر من مات من كبار قادة الإمبراطورية النابليونية .

(٢) أبلى ديزيه أحسن البلاء أثناء وجود الحملة الفرنسية فى مصر ، إذ أرسله نابليون

والأثريين والكيمياتيين ما دل على اهتمام نابليون بالأمور المدنية، وعلى رغبته فى أن يكون فتح مصر مخالفاً للفتوح العادية . والسبب فى ذلك أنه ـ منذ انتخابه عضواً فى المجمع العلمى ـ فكّر فى إماطة اللثام عن أرض الفراعنة بالبحث العلمى ، وانتوى كذلك أن يدرس الشرق وشرائعه وعاداته وفنونه ومصنوعاته ومزروعاته ، وكذلك ديانته التى هى لحمته وسداه . بذلك يصبح الإنجيل والقرآن توءمين فى مكتبته السياسية ، ويتمكن نابليون من محادثة الشرق بلغته وبما تعوّده الناس من الأفكار ؛ فتصير فرنسا على يده سيدة فى مصر ، تعمل بالحسنى ، وتعامل المصريين بما يناسب عقولهم ، وتسهر على تحسين موارد الثروة ، وتتخذ من سكانها الفاترى الهمة الخاملين الكثيرين، مورداً جديداً لقواها الحربية[1] .

كان طريق الحملة الفرنسية البحرية ــ المكونة من ٤٠٠ نقالة ــ إلى مصر ، محفوفاً بمخاطر هائلة لم تكن فى الحسبان . لكن على الرغم من وجود أمير البحر الإنجليزى نلسن تجرأ الأسطول الفرنسى على مهاجمة مالطة ؛ وصادف نابليون الحظ ، لأن الحامية التى تصدّت له فى حصن ڤالتا المنيع كانت شرذمة من الخونة والجبناء ، فتخلت عن الحصن فى ١٣ يونيه ؛ وبذلك تمكن

لتعقب فلول المماليك فى الوجه القبلى ، فنجح نجاحاً تاماً حتى ألجأ مراد ابك قائد المماليك إلى السودان .

(١) نوجه نظر القارئ إلى أن هذه العبارة ترجمة لما ورد فى الأصل الإنجليزى ، وهى على أية حال تشرح تفكير نابليون ، لا تفكير المؤلف .

الأسطول الفرنسى من الوصول يوم أول يوليه إلى مياه الإسكندرية . هناك نزلت الجنود إلى البر ، دون أن تلقى مقاومة ؛ ولو أن نابليون وصل إليها قبل ذلك بثلاثة أيام ، لوجد نلسن بثلاثة عشر مركباً من ذوات الأربعة والسبعين مدفعاً فى انتظاره ، ليصليه ناراً حامية . غير أن الأحوال خدمته : فبينما كان أمير البحر الإنجليزى مسرعاً نحو مصر ، أصدر نابليون الداهية أوامره إلى أسطوله ليتجه نحو شاطئ جزيرة كريت الجنوبى . وبذا تأخر عن نلسن فى الوصول إلى الإسكندرية ولولا ذلك التأخر من جانب نابليون ، وتلك العجلة من جانب نلسن ، لتقابل أكبر قادة البر مع أمير أمراء البحر فى التاريخ كله ، فى بحرية كانت تنجلى بلا جدال عن هزيمة الفرنسيين .

يلزم لمهاجمة مصر بنجاح أن يكون الزحف نحو القاهرة على أحد فرعى النيل ، مع تجنب أرض الدلتا ومستنقعاتها وقنواتها المتعددة ، التى تصعب الخطط الحربية فى مصر ؛ وزحف الجيش من الإسكندرية عن طريق الفرع الغربى للنيل ، وواجه نابليون المماليك وخيالتهم المقاديم البُسل ، بجيش نظمه على شكل مربعات تظاهره مدفعية قوية . ودخل نابليون القاهرة ، ودان له الوجه البحرى بعد موقعة حاسمة قرب الأهرام ، انتصر فيها دون خسائر كبيرة . حدث ذلك بعد ثلاثة وعشرين يوماً من نزول الجنود الفرنسية إلى البرّ عند الإسكندرية ؛ ولو كان النيل وقتذاك فى زمن الفيضان ، لتمكن نابليون من مطاردة المماليك جنوباً ، ولاستحال على فلولهم المتفرقة أن تجمع شملها ثانية .

غدا مركز الجيش الفرنسي — وسط أمة إسلامية شديدة الاستمساك بدينها — مما يبعث بطبيعة الحال على الاطمئنان ، برغم الانتصارات الأولية الحاسمة التي أحرزها نابليون "أبو النار" كما سماه المصريون . أدرك نابليون ضرورة مجاراة الميول الدينية السائدة فى أمة اشتهرت بتعلقها بالقديم ، وذكر فى نفسه كيف أن زيارة الإسكندر لمعبد آمون جعلته ابن چوبتر كبير الآلهة[1] ، وكيف "نال الإسكندر بتلك الخطوة ما لم يكن يناله لو كان تحت إمرته مائة وعشرون ألفاً من المقدونيين" . لذلك عزم نابليون على أن يقفو أثر سلفه فى سياسته هذه ، فكان يجلس فى الجامع الأزهر بين العلماء ، حيث جرت العادة أن يجلس ستون عالماً لدراسة الشريعة الإسلامية ولتفسير كتاب الله . بين هؤلاء القائمين بالمحافظة على الدين جلس نابليون جلسة الخاشع ، يصف لهم فى وقار حالة نفسه الورعة الخاشعة ، ويناقشهم فى معانى المسائل الواردة فى كتاب الله ، ويظهر إجلاله العظيم للنبي (صلى الله عليه وسلم) ؛ حتى اعتقد العلماء أنه لولا عقبتان ، وهما شرب الخمر والختان ، اللذان حرم القرآن أولهما وحض على ثانيهما ، لكان من الممكن أن ينتحل جميع الفرنسيين النازلين مصر دين الإسلام . واعتقد العلماء كذلك أن

---

(١) آمون أحد آلهة المصريين القدماء، وقد انتشرت عبادته إلى بلاد اليونان والرومان من بعدهم ، حيث سماه الأولون زيوس (Zeus) والآخرون جوبتر (Jupiter) ، وهذا يفسر اختلاط اسم آمون المصرى باسم جوبتر الرومانى فى عبارة المؤلف .

الإسلام سوف يملك على الجنود مشاعرهم ، ويتمكن من قلوبهم ، لأن الإلحاد الشديد الذى كان منتشراً بين جنود الجمهورية لم يتأثر برجوع الكاثوليكية [١] . ولكيلا يفوت نابليون شيء فى سبك خدعته ، أمر بوضع التصميات لبناء مسجد كبير يسع كل الجيش الفرنسى ، ليشهد بأذن الله فى يوم قريب ، أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

أفسد على نابليون كل خططه حادثتان فجائيتان ، لم يكن وقوعهما غير محتمل ، وهما انتصار الإنجليز على الفرنسيين فى البحر ، وقطع العلاقات بين فرنسا وتركيا : فى أول أغسطس حطم نلسن الأسطول الفرنسى فى أبى قير ، وانقطعت بغتة المواصلات بين الجيش وفرنسا انقطاعاً تاماً ؛ ولاشك أن هزيمة — أقل من تلك خسارة تكفى فى كثير — من الأحيان لسريان الخلل فى جيش كامل . وإذا ذكرنا أن جنود نابليون خابت آمالهم فى مصر : فبعد أن كانوا يمنون أنفسهم بقصور من الرخام ، وجدوا أكواما من الطين ؛ وبعد حلمهم بالأنبذة المعتقة ، لم تبتل شفاهم بغير الماء الآسن ؛ وكانوا يثقون بترحيب السكان بهم أينما حلوا ، فوجدوا أن ابتعادهم عن المعسكر فى أى وقت من الأوقات يجعلهم عرضة للقتل والتنكيل . إذا ذكرنا ما تقدم ، علمنا أن أى خبر سوء ينتشر بين رجال تلك حالهم يكفى لحملهم على العصيان جميعاً . غير أن نابليون تلقى أخبار الكارثة فى القاهرة بكل هدوء ، ثم

---

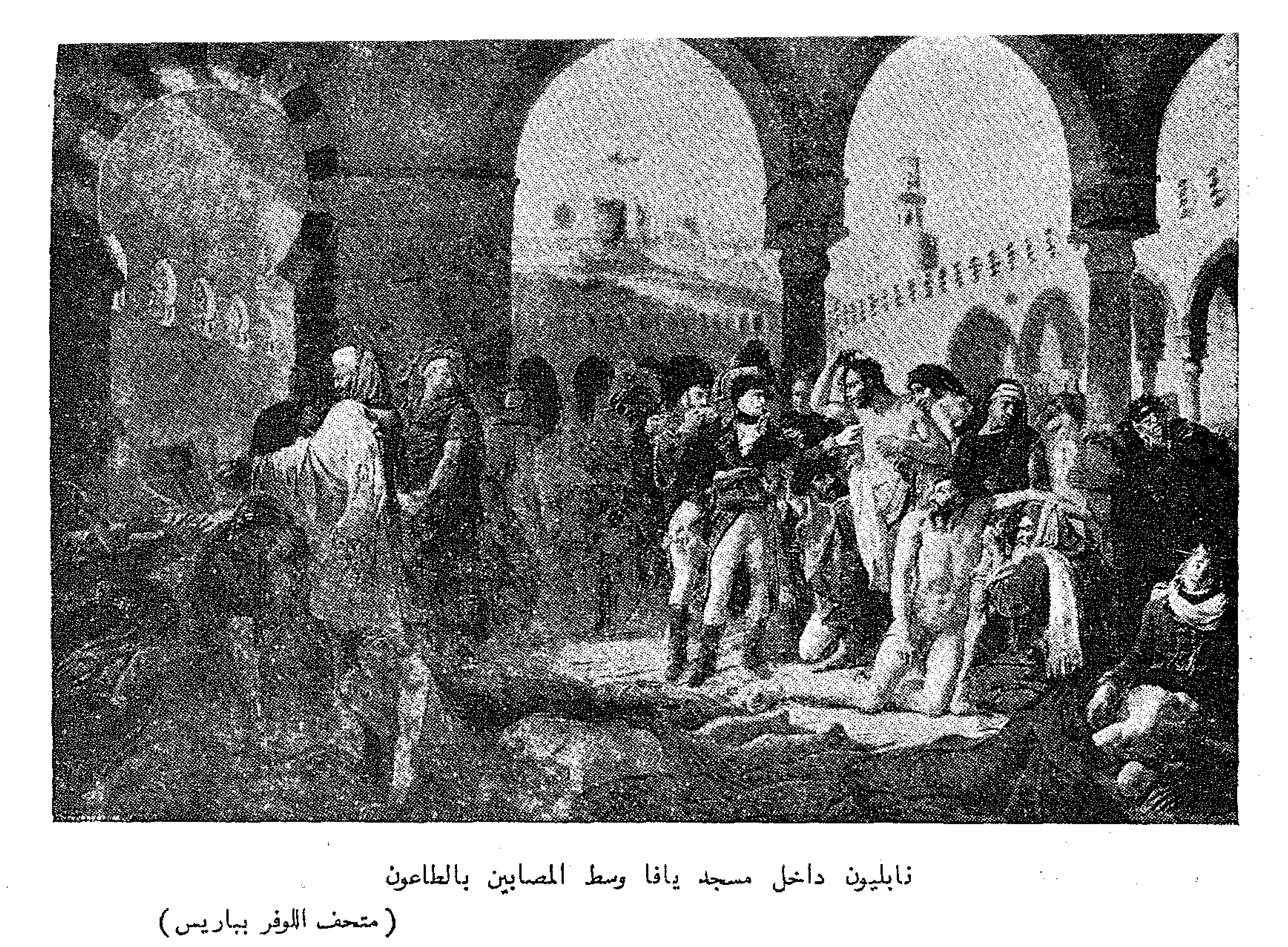
(١) اقرأ تفصيل إرجاع الكاثوليكية إلى فرنسا فيما يلى هنا ، ص ٩٧ .

جمع ضباطه حوله وخطب فيهم عن ثقة عالية ونفس مطمئنة ، مشيراً إلى الموارد العظيمة الكامنة فى مصر ، والتى تحتاج إلى استثمار قائلا : إن بلاداً كمصر — كانت فى الغابر دولة عظيمة فى استطاعتها بفضل ما وصلت إليه العلوم والصناعات من التقدم أن تسترجع مجدها القديم ، وتبلغ درجة فى العظمة ليست فى الحسبان . وذكر نابليون ضباطه أيضاً بمناعة مركزهم ، فى أرض ليس لها حدود معينة سوى الصحراء من جهة ، وساحل منخفض قليل التعاريج من جهة أخرى ؛ وأوصاهم فى آخر كلامه أن يحافظوا على الجيش من تسرب الفشل إلى صفوفه ، وأن يذكروا أن أمثال هذه الحالات مسبار الهمم . ثم ختم كلامه بعبارة تشف عن شمم وعلو خيال ، قال : "يجب علينا أن نرفع رءوسنا فوق الطوفان الذى يغمرنا فنجعله بذلك مركباً ذلولا ؛ ولا يبعد أن يكون القضاء والقدر كتبا لنا أن نغير وجه الشرق ، وأن تكون أسماؤنا منقوشة بجانب الأسماء التى ازدان بها التاريخ فى العصور القديمة والقرون الوسطى ».

بعد ذلك بشهر أعلنت تركيا الحرب على فرنسا ، وأصبح مركز نابليون فى مصر معرضاً لأخطار جديدة داخلية وخارجية . من تلك أنه كانت تتلى فرمانات من عند السلطان فى المساجد ، لحث المؤمنين على طرد عدوّ الإسلام نابليون ؛ ونتج عن ذلك أن أوقع نابليون بقسم من أهالى القاهرة عقوبة شديدة ، لقيامهم بالثورة تلبية لنداء أمير المؤمنين . وفى يناير التالى ، بينما أقام نابليون فى السويس ينقب عن آثار القناة التى ربطت النيل بالبحر الأحمر ، جاءته الأنباء أن أحمد باشا الجزار

والى سورية ، جرد جيشاً لغزو مصر ، وأن طلائعه استولت على العريش سُرَّ نابليون أيما سرور بذلك النبأ الذى برّر له غزو الشام ، للدفاع عن مركزه ، ولانتهاز الفرصة لتجديد الثقة فى صفوف جنوده بالانتصارات المنتظرة ؛ ولا سيما أنه أصبح غير قادر على الرجوع إلى فرنسا تبعاً لخطته الأصلية ، وأمسى عاجزاً عن الزحف على الهند بدون مدد جديد . ثم إن فى الاستيلاء على الشام مزايا لا يستهان بها ، وهى سهولة خضوع سكانه ، وتأمين الحدود المصرية الشرقية ، وخسارة إنجلترا قاعدة بحرية ، وذيوع صيت نابليون فى أنحاء الشرق ، وصلاحية الشام نفسه لبدء الزحف على آسيا الصغرى وتركية أوربا ؛ وفوق كل ذلك سوف يقف نابليون للمرة الثالثة موقف المخلص الأمين حين يتقدم لتخليص الشام من حكم الجزار الذى لا يطاق ، كما خلص إيطاليا من النمسويين ، ومصر من حكم المماليك .

سارت الحملة السورية تحت سماء لافحة ، يقتلها الظمأ والجوع وانتشار الطاعون ؛ وانتهت الحملة بهزيمة عند أسوار ميناء صغيرة ، لولاها لتغير مجرى الحوادث فى العالم . اكتسح نابليون أول الأمر بجيشه الصغير كل ما اعترض طريقه : فأخذ العريش ، واستولى عنوة على يافا ، ثم سار إلى عكاء مقر الجزار وطوقها بالحصار فى ١٩ مارس سنة ١٧٩٩م . وهنا برهنت الحوادث على أنه لا يمكن الاستيلاء التام على أرض ذات ساحل ، ما دامت القوى المدافعة متفوقة على المهاجمة فى المعدات البحرية ذلك أن الجزار لم يكن السبب فى هزيمة نابليون ، بل



نابليون داخل مسجد يافا وسط المصابين بالطاعون

(متحف اللوفر بباريس)

قوة إنجلترا البحرية التى استعملها بمهارة سير سدنى سميث أمير البحر الإنجليزى ، وهو البطل الشهم الصلف الذى تمكن ، بفضل المقدرة التى امتاز بها المهندس الفرنسى بيكار دى فليبو من حزب الملكيين الناقمين على الثورة الفرنسية — من تقوية حامية عكا ، حتى ظلت زهاء شهرين تقاوم الألغام والمقذوفات والهجمات التى صوبها إليها نابليون . وفى ٢٠ مارس رفع الحصار عن عكا ، لتفشى الطاعون فى المعسكر الفرنسى ، ولقرب نفاد المؤن والذخائر ، ولبلوغ خسائر الجيش فى الهجومين الأخيرين نحو ثلاثة آلاف جندى . ثم جاءت الأنباء بأن أسطولا تركياً فى طريقه إلى مصر ، فرأى نابليون ألا يترك دقيقة تذهب سدى . وفى ١٤ يونيه ، بعد مسيرة ما يقرب من ثلاثمائة ميل على طريق وعرة وطعام ضئيل ، وصل جيش الشام إلى القاهرة ؛ وبرهن بذلك السفر الذى استغرق ٢٦ يوماً على مقدار الشدائد التى يمكن أن يعانيها ويتحملها الإنسان ، وعلى ما يمكنه القيام به من الأعمال ، ما دام يسيره قائد عظيم ذو إرادة حديدية .

بقى تحت قيادة نابليون من الجيوش فى مصر — على رغم الخسائر التى أحدثتها الحرب والطاعون — قوة كافية إذا استخدمت بحكمة لمقابلة الخطر الداهم من الشمال . نزل الأتراك — وعددهم ١٥ ألف مقاتل — إلى البر عند أبى قير ، وخندقوا فى أماكن غير منيعة . وانتظروا ريثما يبدأ نابليون بالهجوم .

لا جدال فى أن انتصار الفرنسيين على الأتراك عند أبى قير ، فى

٢٥ أغسطس ، يعدّ أكبر انتصار فى التاريخ ، إذا كانت النسبة المئوية فى الخسائر هى مقياس النجاح فى الحروب . ذلك أن الجيش الفرنسى الذى هاجم الجيش العثمانى لم يزد على نصف عدده بكثير ، غير أنه امتاز بحسن القيادة والإقدام والمعدات ، فأعمل فى العثمانيين الرصاص ، واضطرهم إلى التقهقر نحو البحر ، حيث هلكوا حتى آخر جندى من جنودهم . وامتازت كل الأعمال التى قام بها نابليون أثناء تلك الواقعة بالدقة والسرعة والعزم الصادق ، وهى إخلاء الوجه القبلى ، والإسراع بجمع القوى اللازمة للقتال ، وإحكام الهجوم على الاستحكامات الوسطى ، وتقدم الخيالة بقيادة مورا من الجناح الأيسر فى اللحظة المطلوبة ؛ لاعجب إذن أن يمحو انتصار أبى قير عار الهزيمة عند عكا .

قبل تلك الواقعة بأكثر من شهرين عزم نابليون على الرحيل عن مصر خفية ، لأن أخباراً وصلت إليه من فرنسا تنبئ أن الحرب قامت من جديد فى أوربا ، وأن الروسيا والنمسا وبيدمنت ونابلى تحالفت ضد الجمهورية ؛ فأسر نابليون يومئذ إلى دومارتان — قائد سلاح المدفعية — عزمه على الرجوع إلى فرنسا مع بعض قادته . قوى هذه الفكرة فى رأسه أخبار وصلت إليه من عدو داهية : إذ أرسل سير سدنى سمث — الذى كان يطوّف بسفنه قرب الإسكندرية — إلى نابليون حزمة من الجرائد ، وعلم منها أن الفرنسيين طُردوا من إيطاليا ، وأن فرنسا نفسها أصبحت معرضة لخطر الغزو من جديد . من الطبعى فى هذه الأحوال أن يعتقد الرجل الذى يحب بلاده — ما دام يشعر بكفايته الحربية — أن الواجب يقضى

عليه بالعودة إلى بلده للذود عن حياضه . كذلك رأى نابليون ؛ غير أن الدوافع التي حدت به إلى ذلك الرأى امتزجت — لا شك — بشيء من المطامع الشخصية . ذلك أنه على رغم جهره بالحنق على الحكومة الفرنسية الفاسدة المتخبطة التي أضاعت انتصارى أركولا وريفولى ، دار فى سريرته أن فى عجز رجال حكومة الإدارة فرصة سانحة لظهوره . لذلك أقلع نابليون من الإسكندرية ، ليلة ٢١ أغسطس ، وبرفقته مونج وبرتوليه ، وسبعة ضباط هم أقدر رجاله . أما الجنود الأبطال الذين تحملوا من أجله الجوع والظمأ ، فى أرض أجنبية وتحت سماء مدارية حارة ، فإنهم فوجئوا بخبر رحيل رئيسهم عنهم ، حتى إن كليبر القائد القدير الذى عهد إليه نابليون القيادة العامة بخطاب تركه له ، لم يحظ بفرصة يحتج فيها على هذا العمل .

هذه قصة الحملة الفرنسية على مصر ، وهى الحملة التى بدأت يحفها الجلال ، وانتهت بتسلل صاحبها فى الخفاء . على أن تقديراً صحيحاً لكل أحوال هذه الحملة يحتم وقوع الفشل ، لتفوق الإنجليز فى البحر من جهة ، وعدم إخضاع عرب السودان إخضاعاً تاماً من جهة ثانية — والأمر الأخير لا يمكن إخضاع مصر بدونه . وإذا سلمنا جدلا أن مهارة نابليون كافية لتثبيت قدم الفرنسيين فى وادى النيل ، تثبيتاً يمكنهم من مقاومة حصار بحرى واحتمال خسائر حروب الصحراء ، فإن المشروعين اللذين كان فتح مصر مقدمة لهما ، لم يكن من المستطاع تحقيقهما أبداً ؛ لأننا إذا ذكرنا المصاعب التى تجشمتها الحملة الفرنسية

الصغيرة فى زحفها الذى لم يستغرق طويلا على الشام ، وذكرنا الشدة التى لقيها القائمون بتموين الجيش ، وما لحق الجيوش من فتك الأمراض وخسائر القتال ، لم يك ثمت بدّ من أن يكون نصيب الحملة على الهند الفشل ، لا سيما أنها سوف تحتاج إلى جيوش أكثر ، تستنفد مجهوداً أكبر ، فضلا عن أنها سوف تقطع مسافات بعيدة ، فى وسط أرض أكثر وعورة ، لا يعرف عنها شىء ، بالقياس إلى ما كان معروفاً لنابليون مثلا عن فلسطين .

كذلك لم يكن مشروع القضاء على الدولة العثمانية ، وهو المشروع الذى أفضى به نابليون إلى بورين قبل فك حصار عكا ، باعثاً على أى أمل فى النجاح ؛ لأن جيشاً مؤلفاً من تسعة آلاف مقاتل ، لا يمكن أن يقطع المسافة بين عكا إلى القسطنطينية فى جوف الصيف دون أن يمسه أذى . وإذا سلمنا بنجاح نابليون فى الوصول بسبعة آلاف مقاتل ، فما وسيلته لعبور الدردنيل ؟ وكيف يستولى على القسطنطينية ، إذ كان من المحقق أن ستدافع عنها القوة المؤلفة من البحريتين التركية والإنجليزية ؟ لا شك أن كلا المشروعين كان خيالا باطلا . وقصارى القول أنه إذا كانت مسألة الاستيلاء على القسطنطينية فكرة جدية اضطر نابليون للتخلى عنها بسبب امتناع عكا ، فإن سير سدنى سمث حال بين نابليون وبين الفشل المحقق .

إن الحملة الفرنسية على مصر بوجه عام ، والمشروعين اللذين أضيفا إليها بوجه خاص ، وإن كان شابها كلها شىء من الخطأ فى التقدير ،

فإن ذلك لم يقلل من عظمتها ، ولا من نتائجها الدائمة . ذلك أن نابليون أتى إلى مصر بنظم الحكومات المتمدينة ، وأتاح لأوربا دراسة علمية لآثار وادى النيل ولغته . قال نابليون ضمن ما كتب عن أخبار تسيير ديزيه إلى الوجه القبلى لتعقب المماليك : « للمرة الأولى منـــذ عهد الإمبراطورية الرومانية شرعت أمة متمدينة ، بدافع حبها للعلوم والمعارف ، تبحث وتنقب عن الخرائب الفخمة التى شغلت عقول الجماعات المتنورة منذ قرون » . ولا ريب أن الحجر المنقوش الذى كشفه عند رشيد ضابط فرنسى فى جيش نابليون، هو الذى دلّ شامبليون (Champollion) على مفتاح اللغة الهيروغليفية . ولا ريب كذلك أن كتاب "وصف مصر" الذى وُضع كل ما جاء فيه بناء على مشاهدات العلماء الذين رافقوا الجيش ، كان أول وصف علمى لتلك البلاد التى دفعت هيرودوت — منذ أربعمائة سنة قبل المسيح — لكتابة أبهى وأشهر جزء من تاريخه .

أما تأثير فتح مصر والشام فى شهرة نابليون فعظيم . أجل ! وأى عظمة تريد أكثر من شهرة تأتى من طريق فتح بلدين متعلقين بأقدم ذكريات النظم المسيحية وأقدسها ؟ وأى الأسماء يمكن أن يكون أشهر من الإسكندرية والأهرام ويافا والناصرة [1] ؟ أسماء ذائعة الصيت ، وأذاعت صيتها من جديد انتصارات بونابرت . ومن الجدير بالملاحظة هنا أن جميع الأخبار التى وصلت فرنسا من ميدان القتال فى مصر أو الشام لم تذكر هزيمة ما ، حتى إن هزيمة عكا أُخـــبر عنها فى فرنسا كأنها

(١) بلد ميلاد المسيح ، وهى واقعة جنوب شرقى عكا ، على مسافة ٣١ ميلا منها .

انتصار ، وملأت تلك الأخبار قلوب جمهور القراء الفرنسيين بعاطفة الفخر والإعجاب نحو الشاب المدهش ، الذى فاقت أعماله بين أرض الأقدمين قصة الحروب الصليبية ، وبهرتهم بموازنتها بالاضطرابات والهزائم الداخلية .

الفصل الرابع

تنظيم فرنسا

قبل أن يُدعى ناخب للانتخاب ، كانت فرنسا أسلمت أمورها مختارة منذ شهور لنابليون . وذلك أنه لما وصل نابليون إلى ميناء فريجسوس[1] (Fréjus) ، بعد الاحتجاب ستة الأسابيع التى استغرقها السفر من مصر إلى فرنسا ، كان لوصوله رنة فرح وسرور فى أرجاء البلاد ، كأنما عثر الناس على الدواء الناجع لجميع أدواء الأمة . ولاعجب ، فإن حكومة الإدارة تدهورت حتى استقرت فى دركات الفشل ، وسئمت فرنسا الحرب والثورة ، واعتقدت بحق أن البطل الذى فتح إيطاليا ونظم مصر ، والذى لم يغامر فى المنازعات العنيفة والمطاحنات الحقيرة التى حدثت فى باريس ، والذى لم يعمل إلا للجمهورية ، هو الذى يجد خلاصاً من ذلك الموقف الذى يزداد سوءاً كل يوم ، ويمكنه إرغام النمسويين والروس والإنجليز على قبول صلح شريف ، وهو الذى يستطيع إخماد الفتن التى أثارها الملكيون ، فى لاڤنديه[2] ، والضرب على

---

(١) و (٢) انظر مصور رقم ٢ فرنسا ، للتحقق من مواقع الأقاليم والبلاد الفرنسية الواردة فى هذا الفصل .

أيدى دعاة الانقلاب الاجتماعى وقطاع الطرق وهو الذى سوف يقوم بإصلاح الطرق ، وتنظيم المالية ، وإقامة حكومة عادلة مستقيمة ثابتة فى فرنسا . ليس ذلك الاعتقاد غريباً ، ففى القرون الوسطى فى إيطاليا كان البلد الذى تفتك به الثورات الداخلية يلجأ إلى حكم نزيه أجنبى عنه ، ليقيم الحدود بالقسطاس المستقيم .

تلك كانت حال الرأى العام الفرنسى ، وهى حال ظهرت أولا فى الترحيب العام الذى قوبل به نابليون فى أكتوبر ، ثم ما لبثت أن أخذت شكلا قانونيًّا فى الاستفتاء العام ؛ هذه الحال نفسها هى التى ارتكزت عليها حكومة نابليون واستندت إليها . وكذلك استمد نابليون سلطته من إرادة الأمة ، لا من حق الوراثة ، بخلاف ملوك برلين وڤينا وسان بطرسبورج ؛ وأعلن نابليون نفسه أنه وليد الثورة ، وأن صوت الملايين من الناس هو الذى رفعه إلى مكانته ورحب بحكومته . وذلك النوع من الحكومة ، الذى لم يكن جمهورياً بحتًا ولا ملكيًّا محضاً ، بل خليطا من أقصى أنواع النظامين ، لوجود السلطة المطلقة فيه إلى جانب استناده فى الأصل إلى إرادة الأمة — نقول إن ذلك النوع من الحكومة ، هو جزء من الإرث السياسى الذى تركه نابليون لفرنسا . وأمام ذلك النوع من الحكومة كذلك ، اعتبرت الحكومات القائمة على الحق الوراثى — أو المؤيدة بجيوش أجنبية — حكومات غير شرعية . ولذا مال الرأى الديموقراطى إلى جانب البونابرتيين الذين قالوا — عند ما أجلس الإنجليز آل برربون على عرش فرنسا ، نتيجة للانتصـــار

الإنجليزى[1] إن الأجانب ليس فى وسعهم إقامة أو إسقاط حكومة شرعية فى فرنسا ، وإن الأمة وحدها هى صاحبة الحق فى إلغاء السلطة التى أقامتها الأمة .

على أن الطريقة التى سار بها نابليون سيد فرنسا ، تفسر لنا الرجل والعصر الذى عاش فيه ؛ إذ قلب نظام الحكومة بالحيلة والعنف معا ، ومن قوله فى ذلك لمدام دى ريموسا[2] : « تلك مرحلة حياتى التى أظهرت فيها أكبر المقدرة » . ذلك أنه لما وصل إلى باريس وأكاليل النصر فى أبى قير[3] تتلألأ على جبينه ، وفرنسا كلها تناديه بالبطل ، طرح جانباً شعار الجندى ، وظهر بمظهر الرجل المتواضع ، فتارة يتلو مقالة فى المعهد العلمى عن الآثار المصرية القديمة ، وتارة يتنزه فى الطرق برفقة أحد العلماء الأعلام ، متمثلا بالمثل اللاتينى القائل « القلم أفضل من السيف » (Cedant arma togae) . والسبب فى كل ذلك أن خطته كانت أن يظهر للناس أنه ليس المقامر بالدول فحسب ، بل هو كذلك الرجل الضليع فى فنون الحياة السلمية ، المتعطش للعلم ، المجلّ لطبقة المفكرين . كذلك قضى نابليون عدة أسابيع يرقب عن كثب مجرى السياسة فى العاصمة الفرنسية ، ويتعرف

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى انتصار إنجلترا والحلفاء سنتى ١٨١٤ ، ١٨١٥ م الذى انتهى بسقوط نابليون وخلعه ونفيه ، وإجلاس لويس الثامن عشر البوربونى على عرش فرنسا.

(٢) مدام دى ريموسا هى زوج الكونت شارل الذى أصبح فيما بعد رئيس السراى أيام نابليون كما أصبحت مدام ريموسا كبيرة وصيفات الإمبراطورة جوزفين .

(٣) المقصود هنا واقعة أبى قير البرية التى انتصر فيها نابليون على الأتراك .

مبادئ كل حزب دون أن ينضم لأحدها ؛ وإذ عرف أن بين رجال حكومة الإدارة رجلايدين بمبدئه — وهو الأب سييس — تآمر معه على إحداث انقلاب بريمير[1] .

ليس من المأمون القضاء على دستور مهما يكن مرذولا ، دون عناية خاصة بدقائق هذه العملية . أما المتآمرون فأحدهما رجل جُبِل على العمل وارتكن على قوه السيف ؛ والآخر فيلسوفاً أراد أن يبنى نظاماً يقوم على تعادل السلطات ؛ واتفق بداءة ذى بدء أن كلاً من الرجلين أراد أن يسقط حكومة الإدارة ، بكيفية لا يمس معها ميل الأمة نحو الجمهورية .

هنا وهنا بالضبط وضحت صعوبة المشروع : ذلك أن التشيع للجمهورية ظلّ حتى ذلك الوقت أقوى العوامل السياسية فى فرنسا ، وغدا القادة أمثال چوردان ومورو ، واثنان من أعضاء حكومة الإدارة الخمسة ، والغالبية العظمى فى مجلس الخمسمائة لا يدينون بغيرها ؛ وما كان لأى انقلاب أن ينجح إذا حاول أن يثير المسألة التى فصلت فيها الغالبية الساحقة من الرءوس السياسية فى فرنسا بإلغاء الملكية . على ذلك أضحى من الضرورى أن يكون السير فى كثير من الحذر ، وإذ كانت سن نابليون لا تؤهله لعضوية الإدارة ، رئى أن يُحمَل الأعضاء على الاستقالة جميعاً ، وأن يعهد المجلسان التشريعيان عند ذيوع ذلك الخبر إلى مدبرى المؤامرة إعادة النظر فى الدستور .

---

(١) بريمير ثانى شهور السنة فى تقويم الحرية الفرنسية . انظر ما سبق ، ص ٢١ .

قامت الخطة على البساطة والجرأة ؛ لكنها تطلبت سلسلة من الدسائس الخطرة، على أن تتمها فعلة فجائية تبين للناس أن يد البطش بالمرصاد . على أن البحث الدقيق أسفر عن أن ثلاثة من رجال الإدارة لا يعتمد عليهم ، وأن ستين من مجلس الشيوخ يشك فى مبدئهم ، وأن مجلس الخمسمائة لا يرجى منه شيء ، وأن الحالة النفسية بين العمال اليعقوبيين صيرت باريس ميداناً خطراً لأية محاولة ضد المبادئ اليعقوبية . بناء على ذلك تقرر أن يستعمل مجلس الشيوخ حقه الدستورى لتقرير الهيئة التشريعية من باريس إلى ضاحية سان كلو ، بحجة وجود مؤامرة فى باريس تهدد استمرار جلساتها . هناك فى مأمن بعيد عن مصانع باريس والنفسية المضطربة بين عمالها ، وفى وسط حديقة امتلأت بجنود نابليون الذين عركتهم الحروب وطبعتهم الطاعة ، صحت عزيمة نابليون على أن ينتزع من آخر مجلس ثورى فى فرنسا صك القضاء على نفسه . نفذت الخطة بالتمام يومى ١٨ و ١٩ بريمير (٩ و ١٠ نوفبر سنة ١٧٩٩ م) ، وهما من الأيام الخالدة فى التاريخ لموافقتهما أول عهد امتلاك نابليون ناصية الأمور . وتفصيل ما حدث أنه بعد صدور قرار مجلس الشيوخ ، صبيحة ١٨ بريمير ، ركب نابليون فى موكب فخم من الفرسان إلى التويلرى ، حيث أقسم أن يقيم الجمهورية على مبادئ الحرية والمساواة . بعد ذلك أفضى لناموس أحد رجال الإدارة حين جاء لمقابلته فى حديقة القصر ، بكلمات رددت صداها أنحاء فرنسا قال : « ماذا فعلتم بفرنسا التى تركتها مزدهرة ؟ تركتها والسلام يخيم على ربوعها، وعُدْتُ

إليها فإذا الحرب بها ! خلّفت لكم النصر فعدت لأرى الهزيمة ! حُملت إليكم ثروة إيطاليا وهأنذا أجد النهب والبؤس ! » . لكن فى اليوم التالى اجتمع أعضاء المجلسين التشريعين فى سان كلو ، والغضب يملأ جنوبهم ، والشكوك تساورهم ، حين وجدوا أنفسهم محاصرين بجيش معادٍ ، بحجة مؤامرة خالجهم الشك فى حقيقة وجودها ، لتأييد مشروع رأوا أنه سوف يؤدى إلى سيطرة القوة الغاشمة . لذلك لم تصادف دعوة نابليون هوى فى نفوس المشرعين المجتمعين ؛ والدليل على ذلك أنه بعد أن واجه نابليون مجلس الشيوخ بخطبة مفككة مضطربة ، ظهر فجأة فى الأورانجيرى [١] حيث انعقد مجلس الخمسمائة برياسة أخيه لوسيان. فارتفع الضجيج حوله ، حتى أغمى عليه وحمل إلى خارج المكان . من حسن الصدفة أن كان لوسيان فى كرسى الرئاسة بالقرب من أخيه ، إذ برّرت بلاغته الرائعة المزيفة موقف نابليون ، وبذلك أثر لوسيان مرة ثانية فى حياة أخيه [٢]. ذلك أنه بينما كان الأعضاء يرفعون الصوت عالياً ، لاستصدار قرار بحرمان نابليون من التمتع بحماية القانون ، انسل لوسيان ولحق بأخيه فى الحديقة ، وناشد الجيوش أن تنقذ المجلس من زمرة اللصوص الخاسرين

---

(١) حديقة خاصة بها بيوت زجاجية لتربية أشجار البرتقال على جو اصطناعى ، نظمها مانسار المهندس الفرنسى الشهير الذى عاش من سنة ١٥٨٩ إلى ١٦٦٦ ، واحتوت هذه الحديقة على ثلاثة أقسام ، ووسعت ١٢٠٠ شجرة ببيوتها الزجاجية .

(٢) أثر لوسيان فى حياة أخيه نابليون لأول مرة عند ما وشى بالزعيم باؤولى ، مما أدى آخر الأمر إلى رحيل أسرة بونابرت كلها من كورسيكا إلى فرنسا .

الذين استأجرهم پت رئيس الوزراة فى إنجلترا ، ليقضوا على الحريات الدستورية . صادفت المهزلة مرتعاً خصيباً ، وصدق السامعون الكذبة ؛ ولم تمض بضع دقائق بعد الذى حدث أصيل ذلك اليوم القاتمة سماؤه ، حتى كانت الحراب تلمع فى أيدى الجنود المصطفة عند مدخل الأورانجيزى ، وحتى كان أعضاء المجلس بأرديتهم الحمراء يتدافعون ، ويتقاطرون صوب الأبواب ، ويقفزون من النوافذ ، لا يلوون على شىء غير الاختفاء فى ظلام الأشجار ، حتى غابوا عن الأنظار ونسيهم التاريخ . فى فجر اليوم التالى ، اجتمعت لجنة صغيرة من أعضاء المجلسين من أنصار تعديل الدستور ، وقررت تأليف حكومة مؤقتة يكون أعضاؤها نابليون وسييس وروچيه ديكوس (Roger Ducos) ؛ ريثما يتم إعداد قوانين أساسية . بذلك ، وبدون إراقة قطرة دم ، انتهى حكم اليعقوبيين الذى طال ، وهذا ما كانت تتوق إليه البلاد .

استكمل الدستور الذى وُضع بعد مضى شهر على ما حدث جميع مظاهر الحرية السياسية ، برغم وضع السلطة العليا فى يد نابليون . ولما كانت روما معتبرة المثل الأعلى للنظم الجمهورية ، فاحتراماً لذلك الاعتبار لُقّب أعضاء السلطة التنفيذية فى الدستور الجديد بالقناصل ، وأنشئ إلى جانب هيئة الحكومة مجلس التربيون لمناقشة مشروعات القوانين ، ومجلس الشيوخ للسهر على الدستور . غير أن تلك النظم الشبيهة بالرومانية لم تخدع ذوى العقول الراجحة فى البلاد ، ولم يغرّهم زخرفها الذى دبجه حذق سييس ، لأنها هدفت إلى تسرب قوة الرأى

العام بالتدريج نحو جهة رئيسة، وهى الحكومة . ذلك أن القنصل الأول ـ ومدة ولايته عشر سنوات ـ أصبح رئيس الحكومة فيختار الوزراء، ويدير دفة الأمور ، ويضع خطة السياسة العامة . أما السلطة التشريعة الحقيقية ، فلم تكن فى أيدى مجلس التربيون ذى الحق فى المناقشة دون الحق فى التصويت ، كما أنها لم تكن فى أيدى الهيئة التشريعية ذات الحق فى التصويت دون الحق فى المناقشة ، بل فى أيدى مجلس الدولة المكون من أعضاء أخصائيين فى التشريع ، يناط بهم تحت رياسة القنصل الأول تحضير القوانين وصوغها . وفوق ذلك لم يمنع تضامن أعضاء الهيئة التنفيذية العليا من الجنوح إلى الاستبداد بالأمر . لأن زملاء نابليون فى الحكم لم يزاحموه فى سلطته ، ولم ينقدوا سياسته ؛ فالقنصل الأول ، واسمه كامباسيريس (Cambacerès) ، عالم قانون قدير ، أصله من حزب اليعقوبيين قتلة الملك ، يصرف جل وقته فى تمتيع نفسه بما لذ وطاب من المأكل والمشرب . أما الآخر فاسمه لبران Lebrun ، وهو عالم مثقف متواضع من أنصار الملكية القديمة ، طواه نابليون تحت جناح حظه الطائر ، واتخذه برهاناً على أن أمثال تلك السوابق لا تحول دون الانضواء إلى لواء العهد الجديد .

كان شعار الحكومة الجديدة ـ الذى حل محل شعار الثورة ـ هو العظمة والتسامح والكفاية . ولا عجب فالديمقراطية لم تعدم رجالا محنكين فى فنون السياسة ، يعرفون كيف يستهوون عقول الشعوب بالأقوال الخلابة . لكن نابليون كان فضلا عن ذلك أول الساسة وأميرهم فى فن

تحلية الحكومة فى عين الرأى العام ، إذ وضع نصب عينيه صورة مجد روما السالف ، تتيه بين أسلاب فتوحها التى امتدت إلى أقصى المعمورة ، وتبنى الجسور والحمامات والملاعب المصنوعة مدرجاتها من الرخام ، والقنوات الماثلة فى أنحاء أوربا الرومانية . وإذا كانت روما صاحبة تلك العظمة فى الماضى ، فأخلق بباريس أن تكون كذلك فى الحاضر . هذا إلى اعتقاد نابليون أن فن السياسة لا يقتصر على وضع القوانين وإدارة شؤون البلاد ، بل يشمل كذلك ما يجب أن يتركه السلف للخلف من ذكريات ظاهرة للعظمة التالدة . لكن فكرة جعل باريس عاصمة الفنون الأوربية ، وكعبة طلاب العلم ، يرجع عهدها لحكومة الإدارة ؛ ثم ساعد على إنضاجها ما حمله نابليون من التحف والنفائس إلى باريس، أثناء الحرب الإيطالية الأولى . أما وقد أصبح هو المسيطر على فرنسا ، فليس ببعيد أن تأتى فتوحه العظيمة بما يزيد باريس بهاء . فوق هذه الفكرة أضيف مشروع لإظهار مثل جديد للعالم ، بما تصل إليه البلاد من التقدم فى الأعمال العامة والفنون الصناعية ، بفضل تشجيع حكومة رشيدة تحب العظمة وتنشدها .

كان الركن الثانى فى عقيدة نابليون أن تقوم الحكومة على قاعدة التسامح ، ولا عجب ، فرجال الحرب الذين يتلقون دروسهم السياسية فى ميادين القتال ، لا يهمهم فيمن يستخدمون اختلاف النزعات الدينية أو السياسية . وكذلك اختار نابليون رجال حكومته — كما اختار كروميل جنوده قبله — على مبدأ التسامح الواسع ؛ وقصد أن يتمتع

اليعقوبيون والجيرونديون والملكيون على السواء بحماية القانون ، وأن ينبذوا التباغض الحزبى الماضى فى ظل حكومته المنظمة . ومن أعماله فى ذلك الصدد أن خففت القوانين ضد المهاجرين، وبدأ الكاثوليكيون يشعرون أن عهد الاضطهاد مضى ، وأن الحكومة الجديدة تميل إلى مجاراة ميول الأمة الدينية ، فجاء كل ذلك مصداق قول نابليون : « لا مجال للعواطف فى أمور حكومتى » .

أما الكفاية الإدارية فلم ير العالم أقدر من نابليون فيها . ذلك أن كفاية الرجال لا تنحصر فى بذل الجهد والنظام ، وتفهم أصول الأشياء ، والاهتمام بدقائقها فحسب ، بل تتوقف كذلك على خلتين نادرتين ، وهما القدرة على إثارة الحماسة ، وعلى الأمر والنهى بين الناس . كان نابليون عند الضرورة يكبّ على عمله ثمانى عشرة ساعة من أربع وعشرين ساعة ، حتى قال عنه شاپتال[1] : « كثيراً ما ظلت هيئة مجلس الدولة منعقدة برئاسته زهاء ثمان أو عشر ساعات ، يحمل هو فى أثنائها عبء الكلام والمناقشة » . وما رآه إنسان فى أى ساعة من ساعات الليل أو النهار ، أو على أثر أى عمل جهيد ، إلا وجد ذهنه حاداً يقظاً . ثم إن مناقشاته للخبراء امتازت بالسرعة والدقة والتمام ، وكان صبره بحيث لم يعالج أمراً وتركه قبل معرفة حقيقته . وإذ عاش نابليون معتدلا فى عاداته ،

---

(١) شابتال سياسى فرنسى شهير ، أصله أستاذ للكيمياء فى جامعة مونبلييه ، وعمل فى الثورة حتى صار وزير الداخلية سنة ١٨٠٠ م ، ثم اعتزل الحكم سنة ١٨٠٤م ، وبقى فى عزلته حتى مات سنة ١٨٣٢ م .

لا يميل لنوع خاص من الطعام، ولا يجلس إلى مائدته أكثر من اثنتى عشرة دقيقة إلا إذا استهواه الحديث ، فإنه أضحى أعجوبة ونموذجاً لمرءوسيه .
ومع أنه لم يتعلم تعليماً منتظما، ولم يعرف من اللغه اللاتينية غير القليل ، ومن اللغة الإغريقية شيئاً ، ومع أنه ظلّ كثير اللحن فى نطق الكلمات الفرنسية ، كأن يقول كلمة (section) بدلا من (ession) وكلمة (fulminant) بدلا من (culminant) وكلمة (voyagéres) بدلا من (viagéres) ، فإنه على رغم ذلك لم تمض عليه بضعة شهور حتى دان لرأيه أقوى الرءوس حنكة فى باريس وغدت ثقة نابليون فى نفسه لا حدّ لها ، وتلك ميزة من ميزات الرجال ؛ فكلما اختلف مع أعضاء مجلس الدولة فى رأى ، ضرب رأسه قائلا : « إن هذا الرأس أداة أنفع لى من نصيحة نفر يعدون أنفسهم مدربين محنكين» ولذا عمل برأيه ، مسترشداً بنور بصيرته ، معتمداً على دقة ذاكرته الواسعة ، وحدة فهمه وصفاء ذهنه ؛ وهو فى أثناء ذلك لا ينى عن تغذية نفسه بالأشياء العلمية ، وهى عنده فى المكان الثانى بعد الأمور العلمية . وظل نابليون دقيقاً جداً وشديداً فى أمور المالية والحسابات ، حتى أصبح كل موظف فى الحكومة يشعر أن زمن التهاون انقضى تماماً ، ويجدّ فى العمل كأن عين نابليون ترقبه وهو جالس إلى مكتبه .
وألم نابليون بالأمور الخاصة بالإدارة صغيرها وكبيرها ، واستغنى عن مساعدة مرءوسيه فى معرفة دخائلها . ولم يكن له مثيل فى القدرة على تسيير روح العمل ، التى هى أهم من العمل نفسه . ولم تكن السرعة

البالغة التى أملى بها رسائله الحربية على ناموسه مقللة من قيمة تلك الرسائل ، التى كانت دائماً موجزة حاسمة ، ليست بالحرقاء ولا بالغامضة ، بل تنم بوضوح عن طبيعة صاحبها ، حتى إن القارئ الذى يطلع على صحيفة منها ، ليشعر كأن يسمع ذلك الصوت القوى المهيمن ، فيمتلئ حمية مما يفيضه عليه ذلك العقل المتوقد .

ربما كان من اللازم — لإعادة حكومة رشيدة فى فرنسا — ألا يغرقل إرادة نابليون وجود سلطات محلية . وذلك أن النظام الذى يستند إلى وجود مثل هذه السلطات لا يصلح بدون وجود عنصر الأشراف ، أو على الأقل بدون وجود ثقة متبادلة بين الحاكم والمحكوم . غير أن شيئاً من هذين العاملين لم يكن حاصلا سنة ١٧٩٩ م ، لأن الثورة الفرنسية قضت على أشراف فرنسا ، وبذرت بذور العداوة والانقسام فى طول البلاد وعرضها . لذلك التجأ نابليون بحكم هذه الحال للرجوع إلى السياسية المركزية التى اتسم بها الحكم الفرنسى منذ أيام ريشيليو ؛ فأصبح الوالى فى مقاطعته ، والحاكم فى دائرته ، والمحافظ فى مدينته ، صنائع ذلك النظام المركزى ، وآلات خاضعة لإرادته . ذلك هو الاستبداد بعنيه ، وربما كان من المحال علاج الحميات السياسية السامية ، التى اضطربت فى جسم الأمة الفرنسية — أثناء العشر السنوات الماضية — بدواء أخف مفعولا .

غير أنه لم تكن هناك أية فكرة للرجوع إلى نظام العهد القديم ، وإن من أكبر الحسنات التى أغدقها نابليون على فرنسا ، أن النظم

الرديئة التى قامت عليها الامتيازات الاجتماعية ، والتى قُضى عليها القضاء الأخير فى أول مجلس ثورى ، لم تجد مكاناً بين نظم نابليون وأن الفلاح الفرنسى أصبح فى ظل حكومة نابليون القوية مطمئناً إلى استحالة رجوع عهد الإرهاق بما فيه من قوانين الصيد ، ومحكمة الملتزم ، وضرائبه المجحفة . من تلك الحسنات كذلك وسام الشرف (Legion d'Honneur) الذى جعله نابليون وساماً غير وراثى ، للإنعام به على ذوى الخدمات الحربية والمدنية ، ليكون بمثابة محرك للهمم ، وعدة فى يد الحكومة ، على رغم ما تقول به دعاة المساواة المطلقة . قال نابليون فى ذلك الصدد : «تلك الصغائر هى التى تسلس قياد الرجال» . ثم إن نابليون لم يحدث تغييراً جوهرياً فى قانون الميراث الذى خلفته المجالس الثورية ، بل جعل القانون المدنى يتمشى مع فكرة أساسها الشرعى تقسيم التركة بالتساوى ، مع بقاء جزء منها يتصرف فيه المورث كما يشاء. ثم من المعلوم أن التجارة والصناعة على عهد الملكية مرهقتين بقوانين النقابات[1]، وبضرائب المرور الداخلية [2] ، وبالنظام المالى الذى

---

(١) تختلف النقابات القديمة فى أغراضها عن النقابات الحديثة . فالنقابات القديمة غرضها حماية مصنوعاتها ومصالحها الرأسماليه ومعظم عملها مزاحمة النقابات الأخرى باحتكار الأسواق وأمكنة المواد الخام ، مما يؤدى إلى تعطيل التحسن والتوسع الصناعى والتجارى ، وهذا على عكس النقابات الحديثة التى تقوم لحماية مصالح العمال فيها .

(٢) ساد فرنسا قبل الثورة نظام جمركى بين المقاطعات ، فإذا أرسل تاجر من مقاطعة فى الجنوب بضائع إلى باريس مثلا ، دفع ضرائب مرور على حدود كل مقاطعة تمر بها بضائعه ، و بديهى أن تلك التضييقات رفعت أثمان الحاجيات وأضعفت حركة البيع والشراء .

جعل أثقل الأعباء المالية على أقل الناس مقدرة على حملها . جاءت الثورة الفرنسية فاكتسحت تلك المظالم فى صرامة وسرعة ، فلا ترى لها من باقية ؛ وجاء نابليون فلم ينس أنه مهما تكن فرنسا متساهلة فى حريتها السياسية ، فهى لن تسمح بإرجاع نظام الامتيازات الاجتماعية . لذلك جعل « باب الترقى مفتوحاً للمواهب » لاعتقاده أن ذلك هو المعيار الوحيد للديموقراطية ، والسر الأكبر فى حسن السياسة ، حتى يضمن لكل مواطن — مهما يكن وضيعاً أو مقطوع الحسب — إمكان الرقى إلى أكبر الوظائف والمراكز فى الدولة .

إذا كان ثمت حاجة بعد ذلك للدلالة على استمرار تأثير الثورة الفرنسية فى حياة الفرنسيين فليس أدل من نظام توزيع الأرض الذى وضعته الثورة ، وأقره نابليون وثبته فى أصول القوانين . ويتضح من هذه القوانين أن نابليون لم يجنح نحو الرجيعة — بل نحو مبادئ الثورة — فى هذه المسألة التى تمتاز عن جميع المسائل الأخرى بمساسها كيان المصالح الحيوية فى البلاد الواقع أن نابليون لم يفكر يوماً فى حمل الفلاحين على إرجاع الأرض التى كانت تابعة للكنيسة والأشراف ، والتى آلت إلى الفلاحين أثناء الاضطرابات فى العشر السنوات السابقة ، إما بالابتياع بثمن بخس ، وإما بدون عقد مبايعة مطلقاً ؛ بل عمل نابليون نقيض ذلك ، لأنه جعل أهم أركان سياسته تعزيز الحقوق الغامضة المختلف فى صحتها ، وعدم الاقتصار على جعل الحكومة تحمى ذمار الفلاحين ، بل جعل الكنيسة التى انتزعت منها أملاكها قسراً تقرّ ذلك العمل وتوافق

عليه . وما كان ثمة سياسة أمثل من استمالة أكبر المصالح الاقتصادية وأهمها فى فرنسا نحو الحكومة الجديدة ، إذ أصبح كل فلاح يعتبر نابليون حاميه . وكما أن الإصلاح الدينى فى إنجلترا – زمن آل تيودور – توطدت دعائمه بتوزيع أسلاب الكنيسة الكاثوليكية ونفائسها على طبقة الملاك الجدد ، كذلك كانت الحماية التى شمل بها القنصل الأول أصحاب الحقوق الزراعية الجديدة الممنوحة إبان الثورة خير كفيل للأمة بأن النظام القديم لن يعود .

دعت الأحوال إلى الإصرار على إقامة هذه المقومات اللازمة للحكومة الديموقراطية الجديدة، لاسيما أنه كان فى عزم نابليون أن ينبذ كل ما عداها من مستحدثات الثورة . من ذلك خطته نحو الكنيسة ، وهى الخطة التى لقى من أجلها انتقاداً أشد مرارة مما لقيه فى كل أعماله . ذلك أنه أصبح من أوضاع العصر، لابين الطبقة المتعلمة فحسب ، بل بين الطبقة العاملة صاحبة اليد العليا أثناء الثورة ، اعتبار الديانة خرافة غير جائزة ، واعتبار الكنيسة أداة للجهالة والامتيازات والظلم ، يجب إضعاف نفوذها ، وتشديد المراقبة عليها . لامغالاة فى كل ذلك ، فإن الطبقات المتنورة فى باريس ، ومعظم قادة الجيش وضباطه ، وجانباً كبيراً من رجال السياسة النابهين ، غدوا إما كفاراً أو مستهترين بدينهم ، يعتبرون القسيس فريسة الخرافات العتيقة وحليف الأجانب ، وعدو وطنه . تجلت هذه العقيدة فى أعمال المتشرعين ورجال الحكومة إبان الثورة : فنى سنة ١٧٩٢م نزعت الجمعية الأهلية أملاك الكنيسة؛

وحبست عليها أوقافاً محدودة ، وأرغمتها على قبول نظام ديموقراطى جائز بالقياس إلى نظام عهد الحواريين فى المسيحية الأولى، لكنه يخالف كل المخالفة نظم الكنيسة وعقائد الكاثوليكيين فى العصور الحديثة . لذلك امتنع فى أنحاء البلاد كل كاثوليكى شريف غيور على دينه عن حلف يمين الطاعة للنظام الجديد ، فاضطُهد الأشراف بكل ضروب الاضطهاد الممكنة فى ذلك العصر ، ولكن بلا جدوى ، فظل كما هى الحال فى عهود الاضطهاد غالباً . وظل انقسام الكنيسة قائماً ، فظل المتمردون من رجال الدين يقيمون شعائرهم فى الحقول والغابات ، ويشنعون على الذين قبلوا النظام الجديد وكنائسه الخالية. ثم حدث أن المرتبات الضئيلة التى تقضاها الذين قبلوا النظام الجديد أصبحت فوق طاقة الخزينة الخاوية، فألغت الحكومة الكنيسة الكاثوليكية ، وأعلنت حيدتها فيما يتعلق بأصول الدين ؛ ولكيلا يستهدف النظام الجديد للخطر من جراء إظهار الشعائر الدينية ، تقرر ألا يسير أى قسيس فى موكب بردائه الأبيض فى الطرقات العامة ، وألا تدق نواقيس الكنائس إيذاناً بدعوة الناس للعبادة .

بيد أن نابليون لم يقبل الرأى القائل إن الدين قوة دنيوية زائلة ، على الرغم من بقاء العقيدة اللاأدرية فى نفسه منذ حداثته . ذلك أنه عرف حوادث تاريخ إقليم لافنديه ، وشهد الفلاح الإيطالى فى معبده ، ورأى شدة إيمان الفلاحين بالقديسين فى أنحاء البلاد الكاثوليكية ، واعتقادهم الراسخ فى المعجزات ، وفى ألوهية سلطة البابا فى روما ، وفيما لشفاعة

السيدة العذراء عند الله من التأثير . والسياسى المحنك يعلم ما لتلك القوى الروحية المسيطرة على نفوس الفلاحين وعساكر الجيش من الأهمية ، فيستميلها ويجعلها فى قبضته ؛ لأن الدين ليس كنظريات الكيمياء إذا قَدُمت نُبذت ، بل هو « سر النظام الاجتماعى » ، وهو « الوقاية » ضد الإفك والشعوذة ، وهو القبس المضىء الذى جعل طريدى الحياة يطيعون أناساً لولاه ما أطاعوهم .

بينما يتنزه نابليون ذات ليلة مع أحد أعضاء مجلس الدولة ، إذ فتح معه باب الحديث فى موضوع الدين قال : « كنت هنا يوم الأحد الماضى أسير وحدى والطبيعة ساكنة ، فقرع أذنى فجأة صلصلة ناقوس كنيسة رويل (Ruel) ، فحركت شجنى ، والمرء أسير عادته وتربيته الأولى . قلت لنفسى ما أروع هذا الصوت فى نفوس المتدينين ! لعمرى كيف يعلل فلاسفتكم وذوو الرأى فيكم هذه الظاهرة ؟ ينبغى أن يكون الناس على دين تتولاه الحكومة ... يقولون إنى كاثوليكى ، ولكنى لست شيئاً من ذلك . كنت مسلماً فى مصر ، وسأكون كاثوليكيا هنا ، جرياً وراء مصلحة الأمة . أنا لا أعتقد فى الأديان .... بل فى فكرة وجود الله » . ثم أشار بيده نحو السماء وقال : « الذى خلق كل هذه الأشياء » ولا عجب ، فرجل الدين هو الحليف الطبيعى للحاكم المدنى فى جميع العصور والأجيال ، لأنه يثبّت روح الطاعة فى النفوس ، ويشرح للناس « الوسائل الخلقية المؤدية للاتحاد » ، لا « العقائد التى تقسم شيعاً » ، ويساعد أبناء الكنيسة بما يعرف من قانون وزراعة

وطب، ويعمل بقوة تأثيره على تثبيت النظام الاجتماعى . عرف نابليون كل ذلك ، إذ قال ذات يوم : « هنا خمسون أسقفاً من المهاجرين تجود عليهم إنجلترا بالمال ، وهم الآن قادة الأكليروس الفرنسى ، فيجب القضاء على نفوذهم ، وهذا يتطلب موافقة البابا » .

من أجل هذه الأسباب — وأسباب أخرى — عزم نابليون على مصالحة البابا ، فبدأت المفاوضات فى باريس فى جوّ من التصلب والدهاء من جانب الكرادلة الإيطاليين ، ومن المخادعة الممزوجة بالغدر من جانب نابليون . ثم قبل الطرفان اتفاقية الصلح فى أغسطس سنة ١٨٠٢م ، وهى التى بقيت أساساً للعلاقات بين الكنيسة وفرنسا لمدة ثلاث ومائة سنة . تضمنت هذه الاتفاقية أن اعترف البابا برجال الدين الدستوريين(١) ، وبالأوقاف المحددوة ، وبنظام توزيع الأرض إبان الثورة . فى مقابل ذلك أعاد القنصل الأول الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ، وضمن حق إقامة شعائرها جهراً ، واعترف بأنها دين السواد الأعظم من الفرنسيين . على أنه كان حينئذ — كما هو حاصل الآن — خصوم كثيرون للمبدأ الذى دارت عليه الاتفاقية ؛ لكن من المعتذر إنكار مزايا اتفاق خفف من فزع الفلاحين ، ومحا الانقسام الداخلى فى الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ، ووفق بين الكاثوليكيين وحكومة ذلك العهد ، إذا استثنينا طائفة لا تذكر ممن رفضوا حلف اليمين الجديدة .

---

(١) أطلقت هذه الكلمة على القساوسة الذين قبلوا النظام الجديد ، وهو النظام الذى أقره الدستور .

وبالجملة « عادت المحاريب سيرتها الأولى » ، كما قال نابليون ؛ غير أنه سرعان ما شعر رجال الدين بأنهم دفعوا ثمناً باهظاً إزاء الاعتراف بهيئتهم : إذ تلا الاتفاق فجأة سلسلة « قوانين سياسية » جعلتهم مكتوفى الأيدى ، فأصبحوا آلات مسخرة لحكومة واسعة السلطان .

قبل ذلك حدد نابليون موقفه إزاء الروح السياسى المتمرد ، الذى هو وليد الثورة وتراثها . ذلك أنه بينما انفتحت كل مناصب الحكومة — من رياسة قرية إلى عضوية مجلس الدولة — لحزبى اليعقوبيين والملكيين الذين انضموا للحكومة ، أوصدت أبواب التسامح والعدالة فى وجه من لم ينضم إليها . وكانت نتيجة ذلك ، أنه حين وقعت (٢٤ ديسمبر سنة ١٨٠٠م) محاولة اغتيال القنصل الأول ، وهو راكب عربته قاصداً دار الأوبرا ، لم توجه التهمة إلى الملكيين — الذين دبروا المكيدة ، ولم يسفر البحث عن نسبة المؤامرة إليهم — بل وجهت إلى النواب المتطرفين المتصلين باليعقوبيين ، المعروف عنهم أنهم ذوو خطر على البلاد . وسرعان ما حصرت التهمة فيهم ؛ وسرعان ما أبعد نابليون مائة وثلاثين يعقوبياً من غير إثبات مادى ضدهم ، لا للتكفير عن سابق إساءاتهم ، بل ضماناً لمنع الإجرام فى المستقبل . وربما نلتمس العذر للرجل الذى يروح ويغدو وهو مهدد دائماً بالاغتيال ، غير أن علاج الكبائر بما ينافى روح العدالة يشف عن جهل تام بقواعد السياسة .

كان الملكى أقل خطراً من اليعقوبى ، وإنما كان أقل منه مرونة للانضواء إلى نظام الحكومة الجديد . وكانت كعبته لندن ، ومسرح

أعماله العدائية الأقاليم الداخلية الكثيفة فى غرب فرنسا ، حيث استندت قوته إلى إخلاص طبقة الفلاحين الفقيرة ، وإلى عطف الكاثوليكيين رجالا ونساء بأنحاء خارج فرنسا . لذلك كان الهم الأول للجمهورية الفرنسية القضاء على الفتنة فى إقليم لافنديه ، والهم الثانى النجاة مما يوجه نحوها من الضربات غير المنظمة بالمؤامرات الدولية . أدى بعض التساهل فى المسائل الدينية إلى ظهور بارقة السلام على ربوع المناطق الغربية قبل أن يعود نابليون من مصر ، وعلى ذلك فليس له فضل التوفيق وإغماد السيوف إلا فى أدوارها الختامية . غير أن النجاح العظيم فى حسم فتنة اتصفت فى كل أدوارها بوحشية غريبة عكر صفوه جريمة القبض على فروتية الذى كان أكثر زعماء الملكيين جرأة وأصلبهم عوداً ؛ إذ قبض عليه وهو ذاهب إلى ألنسون بعد إخلاء سبيله ؛ ثم حوكم أمام محكمة عسكرية ، وأعدم ومن معه من الأتباع رمياً بالرصاص . إنا وإن كنا لا نستطيع إثبات صدور أمر بشأن تلك الحادثة من نابليون ، غير أننا نعرف أن الضابط الذى دنس شرف بلاده العسكرى بتنفيذها لم يوجه إليه أى تكدير .

كانت تهدئة لافنديه سنة ١٨٠٠م هدنة أكثر منها تسوية نهائية . يثبت ذلك أنه لما أصبح من الواضح أن نابليون لن يقوم للملكيين الفرنسيين بدور الجنرال منك الإنجليزى[١] ، ابتدأ المتهورون منهم

(١) جورج منك جندى إنجليزى شهير ، بدأ حياته العسكرية سنة ١٦٢٥ م ، وكان ملكياً ممالئاً لآل ستيوارت . ثم انقلب منك جمهورياً ، وانضم إلى كرمويل زعيم =

يتآمرون على التخلص منه بطريق القوه . كان محور تلك المؤامرة — وغرضها فى الحقيقة قتل نابليون — هو الكونت دارتوا[١]، الذى ظهر جبنه وطيشه وتأثره بالأوهام فى كل أدوار حياته ، وكانت حياته معرّة له ، ومجلبة المصائب لأتباعة . كان أعوانه وشركاؤه الرئيسان الجنرال وپشجر[٢] فاتح هولندا إبان الثورة ، وجورج كادودال أحد أبطال

= الثورة الإنجليزية فى القرن السابع عشر الميلادى ،وأعجب كرمويل بمهارته الحربية ، فناط به إخضاع أسكتلندا الملكية . وفى سنة ١٦٥٤ م عينه كرمويل حاكماً على أسكتلندا ، حيث أظهر حزماً وطيبة حببا فيه الناس . ولما مات كرمويل سنة ١٦٥٨ م ساد الاضطراب أنحاء الجزر البريطانية ، فانتهز منك الفرصة وعبر الحدود الأسكتلندية إلى إنجلترا ، ودخل لندن سنة ١٦٦٠ م على رأس ستة آلاف أسكتلندى دون أن يلقى مقاومة . هناك ظلت سياسته مجهولة حتى بدت الفرصة سانحة لتأييد فكرة إعادة ستيوارت إلى العرش الإنجليزى، ونجح منك فى إعادتهم . ورجعت الملكية المطرودة ، وتبوأ شارل الثانى عرش إنجلترا ، وفى العبارة الأخيرة وجه الشبه الذى أراده الملكيون فى فرنسا من نابليون .

(١) الكونت دارتوا هو ثانى إخوة لويس السادس عشر ، وهو الذى تولى عرش فرنسا سنة ١٨٢٤ م ، ولقب شارل العاشر .

(٢) أظهر پشجرو شجاعة عظيمة فى خدمة جيوش الثورة ، فارتقى بسرعة إلى رتبة قائد سنة ١٧٩٣ م . غير أن ميوله كانت دائماً ملكية ، واشتمت منه حكومة الإدارة الخيانة فنفته . ثم هرب إلى إنجلترا ، ومنها ذهب إلى ألمانيا ، حتى كانت مؤامرة جورج كادودال لاغتيال القنصل الأول ، فجاء إلى باريس لتنفيذ المؤامرة ، وحاول عبثاً مع كادودال استمالة القائد مورو للاشتراك معهم . ثم كشفت المؤامرة فى فبراير سنة ١٨٠٤ م ، وسيق الجناة إلى سجن الهيكل فى باريس ، وفى أبريل من تلك السنة وجد پشجرو فى السجن ميتاً ، حيث تعجل الحكم عليه بالانتحار ، على أنه ليس هناك ما يدعو للاعتقاد بأن موته كان من عمل نابليون .

الملكيين المتمردين فى لاڤنديه ، وهو الذى خاطر مراراً — بجسمه البدين وبرقبته العريضة — فى غمار المكامن والملاحم فى غرب فرنسا، فلا ينتظر أن ينثنى عن المغامرة فى خطر الاشتباك فى معركة مع حرس نابليون . بيد أنه كان من المعتذر إنفاذ المؤامره ، كما هى الحال فى كل مؤامرة واسعة النطاق . ذلك أنه قبل أن ينزل جورج كادودال ورجاله شاطئ فرنسا ، أحاطت شرطة نابليون علماً بنياتهم ، وعرفت عزم المتآمرين على قتل القنصل الأول ، أو أخذه حياً وسط معركة فى الطريق . وكان الأمل معقوداً فى مورو،ليقبل حينذاك التقدم إلى الميدان ، وإعادة الملكية ، لأنه أعظم القادة الدين غضوا لازدياد الحكم المطلق . ولكن سرعان ما ألقى القبض على المتآمرين الحقيقيين والمزعومين ، وقدموا للمحاكمة ، فكان الإعدام جزاء وفاقاً منتظراً لجورج ورجاله الاثنى عشر الأشداء . أما ييشجرو فمات فى السجن ، ويحتمل أن يكون هو الذى انتحر . أما مورو فحكم عليه بالسجن برغم ما قام به من الخدمات للثورة الفرنسية ، مما يعدل ما قام به پومپى[1] من الأعمال فى خدمة روما القديمة ؛ ثم خفف الحكم بأمر نابليون بالإبعاد إلى أمريكا .

---

(١) بومپى زعيم رومانى قديم ، بدأ حياته جندياً فى خدمة الدولة الرومانية ؛ ثم اشتغل بالسياسة ، وعاون يوليوس قيصر وتزوج ابنته . فى تلك الأثناء فتح يوليوس قيصر غاليا، فحسده بومپى ، بل خالفه فى السياسة وأصبح زعيم أعدائه . ثم قامت حرب داخلية بين الزعيمين هزم فيها بومپى عام ٤٨ق . م . فهرب إلى مصر، حيث أرسل يوليوس ضابطاً لقتله، ففعل حينما كان بومپى ينزل من السفينة التى أقلته من إيطاليا .

إلى هنا سارت الأمور وفق هوى نابليون ، رغم ثوران عواطف الملكيين والجمهوريين . نعم إنه أسىء إليه أكبر الإساءة ، وجوزيت خدماته الجليلة لفرنسا بمؤامرة دنيئة خسيسة ، انتقم لنفسه من مدبريها انتقاماً كافياً لم يخرج عن حد العقوبة الزاجرة . إنما حدث فى تلك الآونة أن نابليون ارتكب جرماً شنيعاً واقترف زلة كبيرة : ذلك أنه تبين أثناء التحقيق مع كادودال أن أميراً من أمراء البيت الملكى كان منتظراً قدومه لباريس ، ليكون زعيم المؤامرة : وحامت شبهات الشرطة حول دوق دانجيان — الشاب الذى سكن مدينة إتنهيم من أعمال ولاية بادن الألمانية على حدود فرنسا — بناء على معلومات غير صحيحة ، بأنه على اتصال بالخائن ديموربيه[1]. لذلك أمر نابليون بالقبض عليه ومحاكمته وإعدامه ؛ فجىء بالأمير فى الساعة الخامسة من مساء ٢٠ مارس سنة ١٨٠٤م إلى فنسن ، حيث قدم للمحاكمة الساعة الحادية عشرة ؛ ولم تنتصف الساعة الثالثة من صباح اليوم التالى — قبل أن يجف مداد الحكم عليه — حتى زج به فى خندق ، وأعدم بالرصاص ،

---

(١) بدأ ديموربيه سنة حياته فى الجيش الفرنسى ، حتى كانت الثورة فانضم إليها ، وأصبح سنة ١٧٩٠ عضواً فى النادى اليعقوبى . غير أنه كان من أول الأمر معتدلا ، وكان ذلك سبباً فى كره زعماء الثورة له . ويرجع الفضل لديموربيه فى انقاذ فرنسا من أعدائها الذين أرادوا غزوها والقضاء على الثورة ، غير أن انتصاراته كانت السبب فى زيادة الكراهية له ، لذلك اتهمته الحكومة بالخيانة واستدعته لباريس سنة ١٧٩٤ م ، ولكى ينقذ ديموربيه رقبته من المقصلة أطاع الأمر بالانضمام إلى الجيوش النمساوية ، وظل بعد ذلك مدة يجوب البلاد الأوربية ، ثم ذهب إلى إنجلترا حيث أقام بها حتى مات سنة ١٨٢٣ م .

ووری فی حفرة أعدت لرفاته، قبل أن يتم ضباط المحكمة مهزلة التحقيق معه . وهكذا لقى آخر أمراء كونديه حتفه - رابط الجأش غير هياب - مع براءته مما نسب إليه .

دفع نابليون فی ارتكاب هذه الفعلة التی تشفّ عن قسوة طائشة عاملان اثنان وهما الغضب والدهاء السياسی ، ويدل علی ذلك أنه قبل أن يصل الأمير إلی باريس بمدة طويلة ، تبين أن الإشاعات الأولی التی أثارت شكوك رجال الشرطة لا أساس لها ، وأن الأمير عدو صريح ، لا متآمر يعمل فی الخفاء . ولم يكن له يدٌ فی المؤامرة التی لم يوافق عليها ، ولم يكن علی اتصال بديموريیه . ثم إن سكناه قرب الحدود الفرنسية كان لعلتين شائعتين بين شبان النبلاء ، وهما الشغف بالقرب من خطيبته ، والولع بالصيد والقنص . غير أن نابليون علی رغم وثوقه من براءة ذلك الأمير لم ير بُدّاً من إعدامه رمياً بالرصاص ، ليكون ذلك عبرة لأسرة بوربون وأشياعهم ، حتی لا يشتركوا فی التآمر ضده فی المستقبل. ومصداق ذلك قول نابليون عنهم ليلة تنفيذ حكم الإعدام فی دوق دانجيان: « يريد أولئك القوم القضاء علی الثورة الفرنسية فی شخصی ، وواجبی هو الدفاع عنها ، والأخذ بالثأر لها . إن زمن المجاملات السياسية مضی ، وإنی أرقت الدماء كما أملی علی الواجب ، ربما أريق دماء غيرها فی المستقبل » . وقضت السرعة والتكتم اللذان أحاطا بتنفيذ تلك الفعلة علی أی فرصة لاستشارة الضمير ، وانقطع الطريق علی رجاء المحيطين بنابليون أن يشيروا عليه بالعفو عن دانجيان أو تخفيف حكم الإعدام

على الأقل . يضاف إلى ذلك أن أمراء الأسرة البوربونية لم يجسروا بعد ذلك أبداً على الاشتراك فى مؤامرة لاغتيال نابليون ، لأنهم أدركوا كيف ينتقم الكورسيكى لنفسه . لكن نابليون دفع ثمناً غالياً لانتقامه ، كما نعرف من الذين رقبوه فى تلك الساعة الرهيبة ، ورأوا ما كان يخالجه من الشكوك المخيفة ضد العالم أجمع .

وقضى القضاء أن يكون اليوم الذى طلع على تلك المأساة يوماً مشهوراً فى تاريخ فرنسا ، لموافقته يوم صدور القانون المدنى . وحقق ذلك الأثر الخالد فى تاريخ القانون رغبة طالما نشدها الفرنسيون منذ القرن الخامس عشر الميلادي ، وتاقوا إليها إبان الثورة . ، وهى رغبة التمتع بنعمة الوحدة القانونية .

من المحقق أن أعضاء مجلس الدولة الذين قاموا بإعداد القانون المدنى ساروا فى عملهم على أساس خمسة قوانين ، وهى قوانين أعدتها المجالس التشريعية المتتالية قبلا أثناء الثورة ولم تنجزها . لكن على الرغم من أن نابليون لم يكن صاحب فكرة عمل قانون واحد موجز واضح عادل ، فإليه يرجع الفضل فى إنفاذ ما عرض عليه . ومن المعلوم أن الثورات ، وما يتخللها من تطاحن الأحزاب وتغير العقائد السياسية ، وعدم استقرارها على حال ، ليست أحسن الأوقات ملاءمة لسن القوانين ؛ وأن الفرصة تسنح عند ما تهدأ العواصف ، ويبدو ميدان التشريع خالياً . والفضل لنابليون فى انتهاز الفرصة عند سنوحها ، وفى تضمين قانونه أشياء خالدة ، مع إغفال كل ما أحدثته الثورة من النظم العرضية المتطرفة . والقانون

ذاته قائم على مبدأ التسامح والإنصاف ، فهو يبح الطلاق والزواج المدنى ، وليس فى الوجود قانون يقرر بوضوح أكثر منه قدسية ملكية الفرد ، ومكانة الرابطة الأسرية فى الحياة .

حمل النقاد على القانون المدنى بأنه عمل سريع سطحى ، وأنه كتيب للجيب يراجع الإنسان فيه بعض قواعد قانونية عامة ، وأنه لم يعالج مشاكل الحياة وعُقَدها ، وأنه لم يتناول ازدياد التشعبات الناشئة عن الأحكام التوفيقية (Case-Law) غير أنه يجب ملاحظة أن العمل الذى تفرغ له الألمانيون فى العصر الحديث خمس عشرة سنة ، أتمه نابليون بكل جرأة وإقدام فى أربعة شهور . ثم أخذ الناس على نابليون تهوّره فى إصدار هذا القانون فى سرعة ومع ذلك فالقانون المدنى — مهما يكن فيه من نقص — خير من لا قانون . ولو لم يعمل فى ذلك الوقت ، لكان من المحتمل أن تبقى فرنسا أمة لا قانون لها حتى عهدنا الحاضر . ثم إنه لامشاحة أن قانوناً واحداً خير من مائة نظام قائمة على العرف ، وأن المساواة خير من الامتيازات . وفضلا عن هذا فإن قانون نابليون على صغره ، وحَصْر نقطه بين دفتى كتاب صغير تسهل مطالعته على كل فرنسى وفرنسية ، يرسم لنا صورة واضحة لجماعة ديمواقرطية متمدينة ، ويوفق بين تشريع الثورة والتقاليد العتيقة التى ورثها الخلف عن السلف .

قام نابليون بدور هام فى مناقشة القانون ووضع مسودته . قال عنه تيبودو : « إنه كان يتكلم بلا تلجلج ولا ادعاء ، ولم يكن بأقل حجة

من أى عضو من أعضاء المجلس ، بل ساوى غالباً أكثرهم مقدرة ، بما أوتيه من قوة على تفهم نقطة الخلاف ، وبحصافة آرائه وقوة مساجلته ؛ وكثيراً ما امتاز عنهم ببلاغة عبارته وقوة ابتكاره » . ولا ننس أن نابليون تناول القانون كما يتناول الصقر طعامه وهو يحلق فى الفضاء ، ومبلغ عدّته القانونية نسخة من كتاب اللوائح والقوانين ، أو مؤلفات دوما ، التى استوعبها فى غرفة الحارس فى ڤالانس، بالإضافة إلى رسالة أو اثنتين فى القانون قرأهما وهو يحارب فى إيطاليا ، وبعض مسامرات مع القانونيين ترونشيه وبورتاليس ، ومحاضر المناقشات الطويلة التى حصلت فى المجلس فى خمس وثلاثين جلسة .

وعلى كل حال فليس ثمة سرّ خفىّ فى القانون ؛ إنما يكون القانون الردىء غالباً غامضاً وعسيراً ، والقانون الحسن ما اتفق والعقل . ثم إن نابليون عالج كثيراً من مسائل القانون بذكاء فطرى عظيم : فهو لم ينظر إلى القانون من الزاوية التى ينظر إليه منها المقننون ، بل نظر إليه من زاوية المصلحة العامة ، ولم يتقيد بوجهة المتمذهبين بمذهب الثورة ، الذين يرون باسم الحرية أن يكون تغيير الزوجة بسهولة تغيير المسكن . وراعى نابليون بضع مسائل مراعاة خاصة ، لما كان فيه من الميل الغريزى المدعم بالتجارب ، وهذه المسائل هى إطاعة المرأة للرجل ، وسلطة الوالد ، وثبوت نظام الطلاق ، وقدسية ملكية الفرد . لذلك لا يجد أنصار حقوق المرأة والاشتراكية فى عصرنا الحاضر كثيراً فى القانون الذى وضعه نابليون مما يثير إعجابهم ، كما أنه ليس من المحتمل أن يستجدبهم

نابليون المدح لو جاء فى عصرهم . وبالإجمال فالقانون المدنى وثيقة من وثائق الأحرار لا الاشتراكيين ، وترجع أهميته فى تاريخ المدينة إلى أنه أثبتَ وخلَّدَ الإصلاحات الاجتماعية العظيمة التى أدخلتها الثورة الفرنسية فى أوربا .

الفصل الخامس

مطلع الإمبراطورية

لم تستنفد الأعمال المدنية التي قامت بها القنصلية إلا جزءاً من نشاط نابليون ، على الرغم من أنها كانت أبهر ما ظهر من نوعها في تاريخ أوربا . لذلك كانت السنوات الأربع التي امتازت في تاريخ فرنسا الداخلي بتهدئة ثورة لافنديه ، وتسوية النزاع الديني ، ووضع القانون المدني — والتي شهدت انتشال فرنسا من وهدة الخراب والاختلال ، إلى مستوى في اليسر لم يسبق له مثيل — نقول كانت هذه السنوات حافلة كذلك بحوادث سياسية كثيرة ، وفتوح حربية باهرة ، ومشروعات واسعة لتأسيس إمبراطورية استعمارية ، ومحاولات مستمرة لتوسيع نفوذ نابليون في أوربا . بيد أن سياسة الاعتداء لم تكن من عمل نابليون، بل من مخلفات الحكومات الثورية . ذلك أن زعماء الجمهورية — قبل انقلاب برومير بمدة طويلة — أرادوا أن يجعلوا حكومتهم الديمقراطية العظيمة محوطة بحلقة من التوابع الجمهورية ، باسطة بفضل نشاطها وبفضل بهاء نظمها السياسية نفوذاً عاماً على أوربا . لذلك اعتبروا البلجيك وسافوى أجزاء متممة لفرنسا ، وهولندا وسويسرا حواشي

طبعية لها، وإيطاليا ميداناً مهيأً لثورة تحدث به على مثال الثورة الفرنسية، ولأجل المصالح الفرنسية . أعدت العدة لإنفاذ تلك السياسة الغاشمة ، وفى خلال بضعة الشهور الأولى عام ١٧٧٩ م وصل الفرنسيون متنصرين إلى حد الرين ، وقسموا شبه جزيرة إيطاليا إلى جمهوريات تابعة . ثم انقلب المد جزراً أثناء غياب نابليون فى مصر بتكوين تحالف أوربى جديد[١] ، تمكنت النمسا أحد أعصائه من طرد الفرنسيين من إيطاليا ، وسارت حملة روسية إنجليزية إلى شواطئ هولندا .

لم تكن أوبة نابليون من مصر — كما زعم بعض الباحثين ، أول بارقة فى الأفق المظلم . ذلك أنه قبل أن يصل نابليون إلى ميناء فر يجوس كانت فرنسا تخلصت من أشد الأخطار إحداقاً بها، بفضل انتصارات القائد مسينا عند زيورخ ، والقائد برون[٢] فى هولندا ؛ وكان سواروف

---

(١) تألف ذلك التحالف الأوربى الثانى ، من روسيا وإنجلترا والنمسا ومملكة نابلى والبرتغال وتركيا . كان هناك سبب عام لذلك التحالف ، وهو الرغبة فى وضع حد التوسع الفرنسى الذى هدد كل دول أوربا . وهذا عدا أسباب خاصة لكل دولة على حدة : فدولة روسيا — وهى التى يرجع إليها تكوين ذلك التحالف — اعتبرت احتلال مالطا إهانة لها ، وإنجلترا لم تستطع الوقوف ساكنة أمام الحملة الفرنسية على مصر ، والنمسا أحست نفسها مهددة بعد احتلال الفرنسيين سويسرا ، ونابلى فكرت جدياً فى الحرب منذ تكوين الجمهورية الرومانية على المبادئ الفرنسية مكان إمارة البابا ، والبرتغال كانت حليفة إنجلترا الدائمة ، وتركيا أرادت إخراج نابليون من وادى النيل .

(١) بدأ برون حياته فى باريس بائع كتب ، ثم تعرف بدانتون ، وعمل فى الثورة حتى أصبح سنة ١٧٩٩ م قائد الجيش الفرنسى فى هولندا . وترقى برون بعد ذلك ، وظل فى خدمة الإمبراطورية النابليونية حتى سقط نابليون فى واترلو . ثم حدث أن تآمر على برون جماعة من الملكيين فى باريس سنة ١٨١٥ م ، فأوقعوا به وقتلوه .

الروسى ، وهو ند نابليون الحقيقى فى المهارة الحربية ، قد بدأ بتقهقر مخترقاً ثلوج سويسرا . فلو غرق نابليون فى الطريق ، لبقى فى استطاعة الفرنسيين المحافظة على حد الرين ، وعلى المكانة الرفيعة التى تبوأتها دولتهم فى أوربا — وهى المكانة التى فقدتها بسقوط الإمبراطورية النابليونية ، ولم تتمكن من استرجاعها حتى الآن .

لكن أهمية ظهور نابليون فجأة فى الميدان أن الرين لم يكن حدّ أطماعه ، وهى أطماع لن يرضيها أى صلح لا يرد إلى فرنسا سلطانها على شمال إيطاليا ، لأن الفتوح الإيطالية ثمرة انتصاراته الأولى ، ونتيجة صلح كامبو فورميو غـــير أن ذلك المنهج لم يكن ليملى على النمسا وإنجلترا إلا بحد السيف ؛ لذلك كان الغرض من مقدمات الصلح التى عرضها نابليون على جورج الثالث ملك إنجلترا وفرنسيس الثانى إمبراطور النمسا — وذلك حينما أصبح نابليون قنصلا أول — هو سبر غور الحكومتين ، والتمويه على الرأى العام الفرنسى ، لا الوصول إلى صلح جدى . وعلى الرغم من ذلك اعتقد بعض من جاءوا بعد نابليون أن رسائله بشأن تلك المسألة مملوءة بروح المحب للسلام . وما زال هناك كثير من الكتاب المعجبين بنابليون ، يقولون إنه كان أعظم محبى السلام ، وأن أعداءه الحاقدين عليه — والقدر المحتوم كذلك — هم الذين اضطروه أن يلقى بنفسه فى دور طويل كله حرب وغزو .

بدت الحالة الحربية فى فرنسا مستهل سنة ١٨٠٠م لا تبشر بخير ، على رغم الضعف الذى أصاب التحالف الثانى من جراء انسحاب

روسيا . صحيح أن القوى الفرنسية والنمساوية فى الأرض الألمانية ظلت متعادلة ؛ لأن جيوش الفريقين المتحاربين — تحت قيادة مورو الفرنسى وكراى النمساوى على الرين الأدنى — بلغت فى مجموعها مائة وعشرين ألف مقاتل . لكن الفرنسيين كانوا مغلوبين على أمرهم فى إيطاليا ، لأنه بينما بلغ جيش ميلاس النمساوى ثمانين ألفاً فى پيدمنت ، لم يبلغ جيش مسينا المعسكر فى الريڤييرا سوى ثلاثين ألفاً فقط . لذلك بات من المحتمل أنه على حين تبقى الحال سجالا بين قوات مورو وكراى فى ألمانيا ، تخترق الجيوش النمساوية فى إيطاليا حدود مقاطعة پروڤانس الفرنسية ، معتمدة على مؤازرة الأسطول الإنجليزى[1] . ومعاونة الملكيين من أهل پروڤانس .

لذا وضح لنابليون أن خير وسيلة لدرء ذلك الخطر إحراز الفرنسيين انتصاراً حاسماً على شواطئ الرين : لأنه إذا قضى على كراى فى جنوب ألمانيا ، أصبحت الطريق إلى ڤينا مفتوحة أمام الفرنسيين ، واضطر النمساويون إلى إخلاء جميع مراكزهم الأمامية المتوغلة فى إيطاليا . وفى الحقيقة — كما قال نابليون — : كانت حدود ألمانيا الشغل الشاغل ؛ أما ساحل جنوا فمسألة ثانوية . بناء على تلك الاعتبارات قرر نابليون ، بعد أن جمع جيشاً يمكن توجيهه لمساعدة كلٍّ من مسينـــا ومورو ، أن تكون ألمانيا ميدان الحرب ورسم لذلك خطة بسيطة وعظيمة فى آن واحد : إذ عقد النية على عبور نهر الرين عند شوفهوزن ، لينقضّ

(١) كان الأسطول الإنجليزى يطوف فى البحر الأبيض المتوسط بقيادة نلسن حول شواطئ مملكة نابلى ، ويمكن الاعتماد عليه لمؤازرة النمساويين إذا احتاج الأمر .

فجأة بقوة كبيرة على ميسرة ومؤخرة الجيش النمساوى تحت قيادة كراى ؛ وبذلك يقطع عليه خط الرجعة ، ويقضى على جيشه قضاء تاماً ، كما قضى على الأتراك فى أبى قير . ثم بعد أن ينجز ذلك يسير إلى فينا ، فيملى شروط الصلح فى العاصمة النمساوية .

جدّ عائق شخصى تسبب عنه سحب هذا المشروع . ذلك أن مورو أحس بأنه أكبر من أن يعمل مرءوساً لنابليون ، متعمداً على استحالة الاستغناء عنه لشهرته الفائقة . لذلك قرّ الرأى — فى الأسبوع الأول من مارس سنة ١٨٠٠ م — أن يزحف الجيش الاحتياطى بقيادة نابليون على إيطاليا لا على ألمانيا ، وأن يجتهد مورو فى حماية مؤخرة وميسرة جيشه بحركة هجومية فى جنوب الدانوب ، فى حين يسير نابليون مخترقاً سويسرا ، ثم ينقض على جناح ومؤخرة جيش ميلاس ، وبذلك يمحو فى الحال الضغط الواقع على مسينا ، ويضطر النمساويين اضطراراً إلى التقهقر بلا نظام ، ويلحق بهم هزيمة كبيرة . لا ريب أن الطريقة التى اتبعت ونفذت بها هذه الخطة الجريئة ، وأن التكتم والسرعة والعناية بكل تفاصيل الاستعدادات ، تستحق إعجاب الأجيال التى جاءت بعد نابليون . ولا شك أن عبور جبل سان برنار[1] فى سبعة أيام ، على طريق جميل فى شهر مايو اللطيف ، كان من أشهر أعمال نابليون ، وإن لم يكن من أصعبها . أما المسألة التى تشهد بمهارته الحربية أكثر مما شهد به نجاحه فى عبور ممر معروف فى جبال الألب دون مقاومة ،

(١) انظر مصور رقم ٣ .



نابليون فوق جبال الألب

(متحف فرساى بباريس)

فهى الابتكار الذى امتازت به خطته العامة ، مضافاً إليه السرعة التى عدّل بها بعض أمور خاصة، حتى تلائم ظروفاً متغيرة . ومن هذه أن خطته الأصلية قضت بعبور ممر شبلوجن ، ولكن بسبب وقوف مورو مكتوف اليدين من جهة ، وبسبب وصول الأنباء باشتباك النمساويين مع مسينا من جهة أخرى ، قرر نابليون عبور سان برنار الواقع على مسافة مائة وأربعين ميلا غرب نقطة سيره الأصلية . ثم كان فى عزمه كذلك أن يحمل على جيش ميلاس بعد عبوره الممر مباشرة ؛ لكنه علم لدى وصوله إڤريا فى ٢٦ مايو أن مسينا لا يزال يقاوم الحصار فى چنوا لذلك رغب نابليون — والفرح يملأ قلبه لنجاحه فى عبور الممر — عن الخطة الأصلية التى كانت تترك لعدوه خط الرجعة إلى خطة ملؤها الطمع ، وهدفها الزحف على ميـــلان والاستيلاء على لمبارديا وعلى جميع المنافذ الواقعة على نهر پو الأوسط . وهنا يختلف النقاد الحربيون فى الواجب الأول على قائد جيش الأمداد والنجدة : هل يزحف بثبات نحو المدافع التى تكتنف المدينة المرسل لنجدتها ؟ وتفصيل هذا السؤال أن چنوا سلمت بعد دفاع مجيد فى ٤ يونيه ، ووجّه اللوم إلى نابليون الذى لم يخفّ لملاقاة الكارثة . لكن رأى الثقات الفنيين يستحسن الخطة التى اتبعها نابليون ؛ لأن واجب القائد هو إتلاف العدو لا مساعدة أصحابه ، ولأن نابليون بوضعه جيوشه فى خط رجعة جيوش ميلاس انتهج خطة — لو أن چنوا لم تستنفد كل مؤنها — مؤداها إما حمل الجيش المحاصر على ترك الحصار ، وإما تعريض الجيش النمساوى

تحت قيادة ميلاس إلى الفناء عن آخره ، على يد جيش يفوقه عدداً . وإذا أضيف إلى ذلك أن النجاح أو الفشل فى الحرب مسألة متوقفة على الأثر المعنوى ، علمنا أن ظهور نابليون فجأة فى عاصمة لمبارديا أحدث أثراً عظيما فى أنحاء إيطاليا ، وهو أثر يوازى على الأقل التأثير الذى كان يسببه فك الحصار عن چنوا .

وعلى الرغم من ذلك المطلع الباهر فى تاريخ الإمبراطورية ، كانت وقعة مارنجو (Marengo) فى ١٤ يونية سنة ١٨٠٠ م ، هى المعركة التى اختتمت بها تلك الحرب ، شاهداً على ما يقع فيه أعظم قائد من الغلطات بسبب استهانته بعدوه . ذلك أن نابليون نظر بعين الازدراء إلى الرجل الكهل الذى يواجهه ، حتى إنه أهمل القواعد الأصلية التى طالما اتبعها فى القتال . فمثلا زحف على ألسندريه (Alessandria) بجيش لا يزيد على أربعة وثلاثين ألفاً ، وكان النمساويون جمعوا عندها كل قواهم . واعتبر نابليون جيشه على قلته أكثر مما يلزم لهزيمة العدو ، حتى إنه أثناء التقدم الفرنسى غرباً أرسل منه ستة آلاف لحماية كريمونا (Cremona) وبياتشنزا (Piacenza) ، وأرسل منه كذلك فرقة تحت قيادة ديزيه ، ليقطع الطريق على الجيش النمساوى الذى انتظر تقهقره إلى چنوا . لا جدال أن الحكمة الحربيـــة اقتضت سد جميع الطرق الممكنة للفرار ، على فرض أن الجيش النمساوى لن يبدى مقاومة كبيرة . لكن النمساوى محارب عنيد ، وأظهرت شجاعته فى سهل نهير بورميدا (Bormida) خطر الشروع فى تطويق جيش قبل التحقق

من هزيمته . بدأت المعركة عند مطلع الفجر ، وكانت فى أول أمرها تنبئ بهزيمة الفرنسيين ، حتى إن ميلاس رجع إلى ألسندريه حوالى الساعة الواحدة بعد الظهر معتقداً تمام الاعتقاد أن النصر حليفه ، وأن مابقى من أمر مطاردة الفرنسيين يمكن إسناده لصغار القادة . وأخذ النمساويون يطاردون الفرنسيين بتؤدة وترو شرقاً على طوال الطريق المؤدية إلى سان جوليانو (San Giuliano) ، حتى كادت المطاردة تتحول فراراً من وجه العدو ، لولا أن ظهر ديزيه ساعة الأصيل فجأة فى الميدان . وسبب ذلك أنه سمع قصف المدافع فزحف صوبه ، كما يفعل كل جندى باسل بلا تأخير ، وبوصوله بدأ الجيش يلم أشتاته ، وانقلبت الهزيمة الكاملة انتصاراً حاسماً كأحسن ما وعت سجلات الحرب . كان نابليون حين ذاك فى قرية مارنجو ممتلئاً يقظة ونشاطاً وحماسة انتقلت كلها إلى الجنود عندما صاح فيهم قائلا : « أيها الأبناء البررة ، تذكروا أن من عادتى النوم فى ميادين القتال ».

أما المعركة فتتلخص فى هجوم فرقة ديزيه ، تظاهرها الخيالة بقيادة كلرمان [١] ، والمدفعة بقيادة مارمون . وعرا الصفوف النمساوية ذهول من جراء هذه الصدمة الفجائية ، ووقفت مبهوته ؛ ثم ابتدأت تتزحزح

---

(١) يرجع الفضل إلى كلرمان فى الانتصار عند فالمى ، وهو الانتصار الذى أنقذ الثورة من الفشل ، وفرنسا نفسها من الغزو الأجنبى سنة ١٧٩١ م ، كما يرجع إليه الفضل فى تحويل معركة مارنجو انتصاراً . وأصبح كلرمان سنة ١٨٠٤ م ، مارشالا ، واستمر يخدم فى جيوش الإمبراطورية النابليونية ، حتى سقط نابليون . ورجع البوربونيون إلى فرنسا ، فانضم كلرمان إليهم ، وظل فى خدمتهم حتى مات سنة ١٨٢٠ م .

عن مواقفها ؛ ثم تقهقرت بلا نظام حتى عبرت نهير بورميدا . وجاء الليل فنام نابليون فى ميدان القتال ،وكذلك فعل ديزيه، غير أن ديزيه نام النومة الأبدية . وفى الرسالة التى كتبها نابليون معدداً غنائم الحرب وأسلابها — وهى خمسة عشر علماً نمساوياً، وأربعين مدفعاً ، وثمانية آلاف أسير ، وستة آلاف قتيل خصص القنصل الأول فقرة كلها أسف على زميله البطل ، وصاحب الأعمال العظيمة فى الحملة على مصر. والواقع أن نابليون مدين لديزيه بكثير من الفضل فى ضعضعة النمسويين إلى درجة جعلت ميلاس يوقع على الهدنة فى اليوم التالى ، متنازلا عن كل إيطاليا غرب نهر مشيو (Mincio) ليحتلها الفرنسيون مرة ثانية .

وضحت أول نتيجة سياسية لذلك الانتصار الهائل حين نالت الحكومة القنصلية — وهى لا تزال حديثة وفى دور التجربة . ويتقول عليها الناس الأقاويل — نوعاً من الصيت الباهر الذى لا يقف عند إخراس العائبين فحسب ،بل يجعل كل انتقاد غير مجد شيئاً مهما يكن سداده . والنتيجة الثانية أنه رد إلى فرنسا سيادتها على إيطاليا ، ومهد السبيل مع النمسا . لكن لما كانت النمسا مرتبطة بإنجلترا العنيدة ، ولا تزال جيوشها فى ألمانيا حافظة كيانها ، لم تر فى مارنجو ما يضطرها لعقد صلح شائن . لذلك استؤنف الحرب بعد مدة قصيرة صرفت فى مفاوضات قام فيها الفرنسيون بدور من المهارة . ثم بلغت الحرب أشدها ذات يوم من ديسمبر شديد البرد ، عند بقعه من البقاع الكثيرة الغابات

التى اشتهرت بها باڤاريا ، حيث تمّ انتصار مورو عند هوهنلندن فى ٣ ديسمبر سنة ١٨٠٠ ما فعلته واقعة مارنجو . وتم الصلح الذى ابتغته فرنسا ، والذى عملت النمسا جهدها على اجتنـــابه ، فى ٩ فبراير سنة ١٨٠١ م ، عند لونيڤيل . وللمرة الثانية اعترفت أسرة هابسبرج المتكبرة باستيلاء فرنسا على البلجيك وعلى حد الرين وعلى ساڤوى . وللمرة الثانية كذلك اعترفت النمسا بالجمهوريات البتاڤيه والهلڤتيه والألب الشمالية[١] . وللمرة الثانية كذلك وافق إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة على قلب نظام ألمانيا ، حتى تتمكن الحكومة الفرنسية التى قامت على قتل الملوك والثورة من التأمين على مكاسبها غير المشروعة . وبالاختصار ردت معاهدة لونيڤيل الحال إلى ما كانت عليه بمقتضى معاهدة كامبوفورميو ، مع بعض تعديلات كلها ضد مصالح النمسا . ولا شك أنه منذ أيام لويس الرابع عشر لم يمهر سياسى فرنسى بامضائه صلحاً أعظم بهاء من ذلك الصلح ، وربما كان ذلك السبب فى أنه لم يعمر طويلا .

أما ما كان من أمر منازلة العدو الآخر من عصبة أعداء فرنسا ، فقضت طبيعة المسألة إلى اتباع طريقة مخالفة . والسبب أنه لما لم تكن البحرية الفرنسية فى حال استعداد كافية لتفكير فرنسا فى غزو إنجلترا ،

(١) الجمهورية البتافية تسمية جغرافية جنسية ، أطلقها نابليون على هولندا والبلجيك ، بعد احتلالها سنة ١٧٩٥ م . والجمهورية الهلفتية تسمية من أصل مشابه ، أطلقها نابليون كذلك على سويسرة بعد احتلالها سنة ١٧٩٨ م ؛ ومثلهما جمهورية الألب الشمالية ، فهى التسمية التى أطلقت على شمال إيطاليا ، بعد الحرب الإيطالية الأولى .

عقد نابليون النية على تكوين تحالف أوربى ضدها . ويكون على رأس ذلك التحالف العظيم بولس الأول قيصر الروسيا ، ذلك المستبد المعتوه الذى انقلب فجأة على الحكومة الإنجليزية بلا مبرر سوى استيلائها على جزيرة مالطا ، وأصبح مستعداً للاشتراك فى كل ما عرض عليه نابليون من الاقتراحات المتطرفة ، فى سبيل إظهار اشمئزازه الخيالى الجديد . كان ذلك التحالف فى نظر نابليون ذا قيمة ، بقطع النظر عن تذبذب القيصر وقلة ذكائه ، لأن « روسيا تمتلك مفاتيح آسيا » ، كما قال نابليون فى يناير ؛ وبمساعدة روسيا يمكنه فتح الهند والاستيلاء على مصر ، واقتسام البلقان ؛ وبمساعدة عصبة الدول الشمالية[١] ، وهى العصبة التى كونها القيصر حديثاً لمقاومة القوانين البحرية البريطانية ، يمكنه أن يقضى على اليسر التجارى الذى تتمتع به إنجلترا . بناء على ذلك التفاهم الأول مع القيصر ، وبمقتضى الاتفاقات التى أجريت على يد روسيا مع دول الدنمارك وبروسيا والسويد ، تمت سلسلة مفاوضات ومعاهدات تكميلية . ثم أرغمت الحكومة الضعيفة فى نابلى على منع المتاجر الإنجليزية من الدخول فى موانيها ، وعلى قبول جيش احتلال فرنسى يعسكر فى أرضها حتى يأتى الوقت الذى يمكن فيه نقلها إلى مصر[٢] . كذلك أرغمت

(١) سميت هذه العصبة فى التاريخ باسم عصبة الحياد المسلح ، بزعامة روسيا التى اتخذت مسألة احتلال إنجلترا مالطا حجة ، والحقيقة أن مضايقة إنجلترا لمتاجر الدول المحايدة مع فرنسا هى السبب فى تكوين هذه العصبة ، فى ديسمبر سنة ١٨٠٠ م .

(٢) كانت الحملة الفرنسية لا تزال بمصر ، واعتقد نابليون أنه سوف يرسل إلى مصر جيشاً فرنسياً ثانياً ، لضمان بقاء الفرنسيين فيها ، أو هكذا قال ذرا للرماد فى عيون المعاصرين .

إسبانيا ، إذ تعهدت حكومة شارل الرابع الضعيفة الفاسدة أن تنزل عن لويزيانا[1] لنابليون مقابل تسكانيا ، وأن تغزو البرتغال الوادعة، كما يقضى على آخر حلفاء إنجلترا وأصدق عملائها بين الدول الأروبية .

شهد ذلك الربيع تكوين هذا التحالف الهائل ، ثم انصرف فجأة ، السبب أن بولس الأول قتل فى بطرسبورج فى ٢٤ مارس ، وبذلك سقطت دعامة التحالف كله . وفى ذلك الوقت انهالت على نابليون أنباء غير سارة عما فعلته بحرية « أمة البدالين » [2] : وتفصيلها أن القائد الإنجليزى أبركرمبى نال انتصاراً عظيما فى المياه المصرية فى ٢٠ مارس ، وأن نلسن قضى على الأسطول الدنماركى عند كوبنهاجن فى ٢ أبريل. فاعتقد القنصل الأول — أو بالأحرى تظاهر بالاعتقاد — أن هناك علاقة بين المقذوفات النارية التى أخطأته فى باريس ، ودخول الأسطول الإنجليزى بوغاز السويد ، ومقتل القيصر ؛ إذ قال وهو يحرق الإرم : « أخطأنى الإنجليز فى نيفوز [3] ، وأصابونى فى بطرسبورج » . على أن موضع الأهمية هنا أن خيبة سياسته اضطرته

---

(١) كانت لويزيانا مستعمرة فرنسية فى أمريكا الشمالية بحوض نهر المسيسبى ، كشفها لاسال الفرنسى سنة ١٦٨٢ م ، وسماها بذلك الاسم نسبة إلى لويس الرابع عشر ، ثم أخذتها إسبانيا سنة ١٧٦٢ م ، واستردتها فرنسا سنة ١٨٠٠ مقابل تسكانيا فى إيطاليا بعد ذلك ابتاعت الولايات المتحدة لوزيانا من نابليون سنة١٨٠٣م مقابل ٦٠ مليون فرنك .

(٢) وصف نابليون الأمة الإنجليزية بهذه الصفة ، من باب الإشارة الساخرة إلى اهتمام إنجلترا بالأمور التجارية دون غيرها من المسائل .

(٣) نيفوز هو الشهر الرابع من تقويم الحرية الفرنسية . انظر ما سبق هنا ص ٢١ حاشية رقم ١

إلى التفكير فى صلح مع حكومة السفاكين[1] ، على قول نابليون . وواضح جداً أن مصلحته تطلبت — مهما تكلف من تضحية مطامعه مؤقتاً — بأن يحصل على هدنة تمكنه من سد النقص الكبير فى سفنه الحربية ، وهو النقص الذى أضاع عليه مالطا ومصر ، ووقى أعداءه الإنجليز فيما بعد من الغزو . ثم إنه لابد من بحرية قوية لمناهضة إنجلترا ، لا سيما بعد أن انتثر عقد التحالف الأوربى : إذ حسم إسكندر الأول — القيصر الجديد — النزاع بين روسيا وإنجلترا ، وانحلت عصبة المحايدين ، وأغضب الإسبانيون القنصل الأول لما أظهروه من الفتور فى غزوهم البرتغال ، ولما أظهروه من الاستعداد للصلح فى وقت غير مناسب ، حتى ضاعت الفائدة المرجوة من إجبار البرتغال على رفض المتاجر الإنجليزية . لذلك كله بدأت مفاوضات لعقد معاهدة بين فرنسا وإنجلترا فى لندن فى أكتوبر سنة ١٨٠١ م .

تمخضت تلك المفاوضات بعد مضى خمسة شهور عن صلح أميان ، (Amiens) واستخدام — نابليون هذه الشهور ، لا فى إزالة أسباب شكوك أعدائه ، بل فى إيجاد شواهد جديدة على أطماعه وقوته ، حتى إن أشد الأحرار الإنجليزية حماسة ، وهم الذين طالما صوتوا مع فوكس[2] فى البرلمان الإنجليزى — لم يستطيعوا إلا الاعتراف بأن محبة الخير التى

---

(١) وصف نابليون الحكومة الإنجليزية بهذا الوصف فى هذه المناسبة على الأقل .

(٢) كان جيمس فوكس (Charles James Fox) زعيم الأحرار فى إنجلترا ، أواخر القرن الثامن عشر الميلادى . ودخل البرلمان الإنجليزى وهو فى التاسعة عشرة ، ولما نشبت=

اتصف بها نابليون بطل فوكس ، لم تكن من نوع محبة الخير التى اشتهر بها جماعة الفرندسيين[1] أنصار السلام والإنسانية . والدليل على ذلك أنه ضم لفرنسا بيدمنت فى إبريل ، وشد الوثاق على هولندا فى سبتمبر ، وأنشأ جمهورية إيطاليا (فى المنطقة التى كانت جمهورية الألب الشمالية) ، ونصب نفسه عليها رئيساً مطلق التصرف فى يناير . وأصبحت الجيوش الفرنسية وتموينها نتيجة ذلك كله موزعة على سكان البلاد من جنوب إيطاليا إلى شمال هولندا ، على حين تدفقت الإعانات المالية من هذه البلاد كلها على الخزينة الفرنسية . لم يقتصر نشاط القنصل الأول على أوربا . إذ وسع فى مساحة غيانة الفرنسية بأمريكا الجنوبية على حساب البرتغال ، وأرسل جيشاً قويا لاسترجاع سان دومنجو إحدى جزائر الهند الغربية من أيدى العبيد . ومن ذلك يتبين أنه عقد النية على إقامة إمبراطورية فى الغرب ، ليعوض حرمانه من مصر والشام .

=حرب استقلال أمريكا ضد إنجلترا كان فوكس من أكبر المدافعين بلسانه عن الأمريكيين. ولما سقطت الوزارة الإنجليزية التى سيرت الحرب ضد أمريكا ، دخل فوكس الوزارة التالية التى اعترفت باستقلال المستعمرات الأمريكية . بعد ذلك أثار فوكس غضب الملك جورج الثالث ، فترك الوزارات وبقى زعيم المعارضة مدة خمس وعشرين سنة ، حدثت فى أثنائها الثورة الفرنسية وظهر نابليون ، وكان فوكس من المعجبين بهما ، وله فى ذلك مواقف برلمانية خطابية مشهورة . وفى سنة ١٨٠٦ م دخل فوكس الوزارة من جديد ، غير أنه مات فى السنة التالية . ويعتبر فوكس أكبر خطيب برلمانى أنجبته إنجلترا ، وكانت مبادئه عالية ، وأعماله صادرة عن قلب مخلص .

(١) الفرندسيون (The Quakers) أو جمعية الإخوان ، جمعية دينية أخلاقية ، تأسست فى إنجلترا فى القرن السابع عشر الميلادى .

تخلت إنجلترا بمقتضى معاهدة أميان عن جميع فتوحها الاستعمارية ما عدا سيلان وترنداد ، وسلّمت مالطا إلى الفرسان ، وردت مينورقا لإسبانيا ، وتنحّت عن لقب « ملك فرنسا » الذى تَلقب به ملوك إنجلترا من عهد إدوارد الثالث أواخر العصور الوسطى . رضى نابليون مقابل تلك التسليمات بالجلاء عن مصر التى لم يعد فى مقدرر الفرنسيين البقاء فيها ، وعن نابلى التى كان يمكنه غزوها أنّى شاء ، وعن البرتغال التى جلبت على نفسها عداوة نابليون لكونها الحليف المستكين لإنجلترا . قابل النقاد الإنجليز ذلك الصلح من أول الأمر بالمعايرة ، والحقيقة أنه كان مبنياً على قواعد واهية الأساس ، ظهر ضعفها أسبوعاً بعد أسبوع كلما ظهر مطمع من مطامع نابليون الجامحة .

اعتقد النقاد الإنجليز أن المعاهدة سلّمت أكثر مما فى مقدور أى سياسى إنجليزى أن يسلم به ، وأنهـــا أهملت نقطاً يجب على كل وطنى أن يشدد فيها . مثل ذلك أنها سلمت رأس الرجاء الصالح وجزيرة مارتينيك ، ولم تتضمن أى احتجاج ضد فرنسة پيدمنت ولمبارديا وهولندا . ثم لو كان من الممكن أن يقبل العقل الإنجليزى هذه الشروط ، فمن المستحيل عليه احتمالها إذا هى أثقلت بأعباء أخرى . وبالاختصار لم يفهم الإنجليزى معنًى لصلح لم يتضمن أى تخفيف فى الضرائب التجارية ، أو تراخٍ فى الاستعدادات الحربية ، أو انقطاعَ عن النيات الاستعمارية من جانب نابليون .

وأدرك الإنجليزى فى امتناع نابليون عن الموافقة على معاهدة تجارية ، رغبة ظاهرة فى إضعاف القوة الصناعية البريطانية : إذ كيف تكون دولة صديقة مخلصة لبريطانيا العظمى ، وهى تعتبر البضائع الإنجليزية كأنها حاصلات موبوءة آتية من جهة مملوءة بالطاعون . ثم ارتاب الإنجليزى لذلك أيضاً بالحملة على سان دومنجو ، وبانتقال ملكية لويزيانا ، واعتقد أن بونابرت قبل الصلح على نية بناء أسطول كاف للقيام يوماً بانتزاع مستعمرات إنجلترا فى الهند وأمريكا ، وبنقل جيش كاف إلى شواطئ إنجلترا ، حتى إذا قرأ فى جريدته اليومية أن القنصل الأول منح السويسريين دستوراً ، وأنه أرسل أميراً من أمراء البحر الفرنسيين إلى الشرق فى مهمة سياسية ، ظن أن أخطر شكوكه تحقق وزيادة .

ندم نابليون أواخر أيامه على عناد إنجلترا التى حالت بين أوربا وبين « التقدم الاجتماعى » على قوله . لكن مهما تكن أقواله فى مقاصده السلمية فى سنت هيلانه ، فإن فكرة السلام الثابت الدائم لم تخطر له يوماً على بال . ذلك أنه لم يترك لحظة فكرة استرجاع مصر ، وتأسيس دولة فرنسية فى الهند ، وزعزعة السيادة البحرية الإنجليزية . ثم إنه وافق رأى عصبة الدول الشمالية التى اعتقدت أن من ضرورات تقدم المدنية إجبار إنجلترا على ترك حقها فى تفتيش السفن المحايدة ، فضلاً عن ترك حقها فى الاستيلاء على السفن القاصدة إلى موانى أعدائها . وظل نابليون كذلك من دعاة مذهب التجارة المحمية ، يعتقد أن الزراعة

أكثر نفعاً من الصناعة ، وهذه أكثر نفعاً من التجارة ، ويميل إلى عدم وضع أى حدود لما تبذله أى حكومة من جهود فى سبيل تشجيع الصناعات الجديدة . على ذلك ظلّ نابليون ضد عقد معاهدة تجارية مع إنجلترا ، أو تسليم أى شيء إلى أولئك النظريين الآخذين بفكرة حرية التجارة . ولما كان أتوقراطيـًّا ، وأستاذاً قديماً فى فن تدريب الصحافة للإقامة على الاستبداد ، مقت كل المقت تلك الحرية السبابية التى لم يفهمها أبداً ، والتى نعم فيها الصحفى فى لندن . ومن أول الأمر كان المثل الأعلى الذى يصوره نابليون لنفسه — حسبما ورد فى محادثاته ومراسلاته العادية — مخالفاً كل المخالفة لما يمكن أن يسمح به أى سياسى إنجليزى . ذلك أنه اعتبر البحر الأبيض المتوسط مجالا حيويـًّا للدول اللاتينية ، أو بعبارة أخرى لفرنسا فحسب ، بحيث تبسط نفوذاً دائماً على أشباه جزائر إسبانيا وإيطاليا ، ثم إنه اعتبر ألمانيا اتحاداً أخرق بين حكومات دنيئة ، أكثر من نصفها تابع لفرنسا ، والباقى سائر بالتدريج نحو الانتفاع بحسنات الإرشاد الفرنسى . ثم إن سويسرا بدت فى نظره تابعاً من توابعه ، لا سيما بعد أن هدّأ المنازعات الداخلية بين الديموقراطيين والاتحاديين من أهلها ، بحيلة سياسية باهرة . أما هولندا وإسبانيا وجنوا فعليها — بحسب النظام الذى وضعه لدولته الواسعة — أن تمد البحرية الفرنسية بالرجال ، فضلا عن شرف الاندماج فى الجيش الفرنسى ، الذى توزّعت فئاته وتمويناته على حلفاء فرنسا وأتباعها بسخاء .

ولما كان هذا مدى نظرة نابليون العامة فى السياسة الأوربية كان من المنتظر أن تستأنف الحرب قريباً . لكن القول بأن وقوع الحرب لا مفرّ منه فى بعض الأحيان ، ليس معناه أن مسألة اكتساب الوقت غير هامة . مثال ذلك أن نابليون اهتم كثيراً أن تتأخر الحرب ، لأن الاستيلاء على سان دومنجو ، واستعمار لويزيانا ، والمشروعات الاستعمارية الأخرى فيما وراء البحار ، تطلبت سكون الأسطول الإنجليزى ، حتّى تتمكن مصانع السفن فى أنفرس وبرست وتولون من رفع البحرية الفرنسية إلى مستوى خصمها . ولذا كان دخول نابليون فى مشروعات فيما وراء البحار قبل أن يتم تقوية بحريته تماماً ، وإثارته غضب الدولة الوحيدة التى تقدر على إفساد مشروعاته فى الوقت الذى كانت هذه المشروعات معلقة فى يد المقـــادير ، نقطة سوداء فى تاريخ نابليون الحازم . اعترف نابليون فى سنت هيلانه بأن الحملة على سان دومنجو كانت غلطة كبيرة ، وفى استطاعته أن يضيف إلى ذلك الاعتراف أن نبّهه إلى اجتناب المشروع أقدر الفنيين المقيمين هناك . ذلك أن المسألة لم تكن رد مستعمرة ثائرة ، أو إخماد فتنة داخلية فى مستعمرة غنية من مستعمرات الجمهورية الفرنسية ، لأن سان دومنجو ظلت يخفق على ربوعها العلم الفرنسى ، وظلّت تعترف بالسيادة الفرنسية ، ثم إن سان دومنجو عادت حديثاً بعد مدة اضطراب فظيع إلى حظيرة السيادة الفرنسية بفضل الزنجى الأصلى الوحيد الذى أظهر صفات السوّاس ، وهو توسان لوفرتير (Toussaint L'Ouverture)

الذى جلب للجزيرة الثلاثة الأشياء ، التى قامت عليها سعادتها ، وهى مورد ثابت من العمال السود لسد حاجات المزارع ، وتبادل تجارى بين الجزيرة وأمريكا ، وجماعة موظفين يديرها رجال من البيض . كان القنصل الأول يحسن صنعاً ، لو أنه قام بمثل ما قام به ذلك الرجل .

ليس فى الدنيا شىء أفظع من إثارة مسألة اختلاف ألوان الأجناس البشرية فى أمريكا ، لا سيما إذا هاجتها حادثة مرعبة أو كارثة مفجعة . وفى سان دومنجو قال المزارعون الفرنسيون البيض ، وهم الذين فروا من الجزيرة أثناء حرب العبيد ، أن من المستحيل على جالية فرنسية كبيرة ، فى جزيرة هى بفضلهم الدرة اليتيمة بين جزائر السكر ، أن تصبح تحت قدم عبد متظاهر بالتقوى ، وجم غفير من العبيد البادية نواجذهم . ولما كان مما يخالف أفكار نابليون أن تجرأ مستعمرة فرنسية على شراء حاجياتها من أمريكا وكمالياتها من لندن ، قر رأيه على القضاء على توسان . ثم عهد نابليون قيادة الجيش المرسل إلى سان دومنجو إلى الجنرال لكليرك (Leclerc) ، زوج بولين بونابرت وصهر نابليون . ومن المعروف أن ذلك الجيش خدم مع مورو على نهر الرين ، ولذا حسب الذين انتقصوا دائماً أعمال نابليون أن الغرض من إرسال هذه الحملة إبعاد مناهضيه . ولا عجب ، فالتعليمات السرية التى أعطيها القائد العام تكفى للإنحاء باللائمة على نابليون . ذلك أن لكليرك أوصى بإغراء توسان ورجاله ، ثم إيقاعهم فى فخ ،

ونفيهم من الجزيرة . تنفّذ الجزء الأول من ذلك البرنامج ، وقُبض على توسان بخدعة شنيعة ، ونفى إلى جبال الجورا بفرنسا ، حيث مات بين العواصف الجليدية . ثم دارت الدائرة على منفّذ تلك المأساة التى حركت وردسورث[1] الشاعر الإنجليزى لكتابة أرجوزة من أشهر أراجيزه ؛ إذ انقضت الحمى الصفراء ، كما تنقضّ الشياطين ، على جيش سان دومنجو الفاخر ، وكادت تقضى عليه لآخر رجل ، على حين أوصدت الحرب ضد إنجلترا أبواب العالم الغربى فجأة فى وجه أطماع نابليون .

كانت مسألة مالطا السبب فى انهيار بناء السلام . وتفصيل ذلك أن إنجلترا ، بما لها من الاهتمام بالهند فوق كل شىء ، رأت أن هناك ضرورة حيوية فى عدم تعرض تلك الجزيرة الصغيرة فى البحر الأبيض المتوسط ، بمينائها الجميل وحصنها المنيع ، لاستيلاء الفرنسيين من جديد مهما تكن الأحوال . ثم كان المفهوم بمقتضى معاهدة أميان أن يضمن استقلال الجزيرة ست دول عظمى ، وأن تجلو عنها الجنود الإنجليزية بعد الحصول على ذلك الضمان ، وأن توضع فيها حامية من جيش مملكة نابلى لمدة ثلاث سنوات ، على اعتقاد أن يصبح فرسان القديس يوحنا (الإسبتارية) عند انتهائها قادرين على حمايتها .

(١) تربى وردسورث فى كامبردج بقصد ان يكون قسيساً ، غير أنه قضى معظم وقته فى مطالعة الآداب ، واصبح فى زمنه من أكبر شعراء الإنجليز . وله مؤلفات شعرية كثيرة أشهرها أغنية الخلود ، وأشعاره من أجمل ما كتب فى اللغة الإنجليزية .

من المحقق أن كل الصعوبات الخاصة بالجلاء عن مالطا كانت تزول لو أن نابليون وافق على إيقاف تيار مراميه نحو الشرق ، عند ذلك تجلو الجنود البريطانية عن مالطا فى سرعة ، ويحل محلها الجيش النابلى ، وتنفذ المعاهدة حرفاً ومعنى . غير أن نابليون لم يكن قادراً بطبيعته على تهدئة خواطر مناجزيه ، وفى الوقت الذى قضت فيه المصلحة البحرية والحربية إلى مسالمة طويلة الأمد مع إنجلترا ، أثار سلوكه أهم مخاوف الدول ذات المصالح فى السواحل الشرقية من البحر الأبيض المتوسط . من ذلك أنه خاطب القيصر فى مسألة اقتسام تركيا ، وفى صلاحية شبه جزيرة المورة للفرنسيين ؛ ثم إنه أعد فى يناير سنة ١٨٠٣ م حملة إلى الهند . وبالاختصار أن ضياع مصر وسورية أثر فيه تأثيراً كبيراً ، لدرجة أنه أسرع فى إيفاد بعث على رأسه سبستيانى للنظر فى طريق استرجاعهما .

رأت الحكومة الإنجليزية التى رجاها الباب العالى البقاء فى مالطا ، أن بعث سبستيانى سبب جديد للتشكك فى نيات نابليون . ولما ظهر تقرير البعث فى جريدة المونيتور (Munietur) ، فى ٣٠ يناير سنة ١٨٠٣ م ، وفيه وصف محبة الفرنسيين عند أهل شرق البحر الأبيض المتوسط ، ووصف سهولة الاستيلاء من جديد على مصر ، قررت الوزارة الإنجليزية أن تبقى جزيرة مالطا فى قبضة جيوشها ، حتى تستوثق من حسن نية نابليون نحو تركيا ومصر . لا حاجة بنا بعد ذلك إلى إيراد الاعتبارات الفنية ؛ فالمسألة على

ظاهرها معناها أن إنجلترا برفضها الانسحاب من مالطا لم تحترم المعاهدة ، وفضلا عن أن بعض الشروط التى وجب أن تسبق الانسحاب لم تنفذ ، فإن التبرير الحقيقى لموقف إنجلترا لا يستند إلى مسائل فنية ، بل إلى الأمر الواقع ، وهو نشاط نابليون المستمر الذى لم يتفق مع سلامة مركز إنجلترا العالمى .

يظهر أن العقبة الرئيسية التى اعترضت مجهودات تاليران[١] وزير خارجية فرنسا ، فى سبيل السلم ، هى غطرسة نابليون التى خشى إيلامها . والدليل على ذلك أن لورد هويتورث (Whitworth) — سفير إنجلترا فى باريس — كتب بعد محادثة دامت ساعتين مع نابليون تقريراً ذكر فيه أن القنصل الأول تحدث كأنما هو قائد فرقة من الفرسان ، لا رأس دولة كبيرة . وتتخلل كلامه نغمات كبرياء وغضب وصلف ؛ فتارة يتكلم باعتدال فى ضرورة المحافظة على السلم لمدى عشر سنين ، حتى تعد الوسائل اللازمة للتسلط على المحيطات ، ثم لا يلبث أن ينقلب إلى غيظ شديد ، فيقول إن فى مقدوره إذا دعت

---

(١) تاليران سليل أسرة فرنسية عريقة ، اشتغل بالسياسة إبان الثورة ، غير أن عنف الزعماء ألجأه إلى الهجرة ، فظل بعيداً عن فرنسا حتى سقوط روبسبيير . ثم جاء تاليران باريس ، وتقلب فى حياتها السياسية الصاخبة ، ولم يلبث أن تعين وزيراً للخارجية سنة ١٧٩٥ م ، وبقى كذلك حتى سنة ١٨٠٧ م ، حين بدأ يعمل فى السر ضد الإمبراطور نابليون ، ولذا عزل . وظل تاليران فى عزلته عدة سنين ، ولما سقط الإمبراطور أعلن تاليران انضمامه إلى الملكية الجديدة ، وظل من كبار الساسة فى فرنسا مدة طويلة ، وهو مشهود له بالبراعة فى السياسة ، غير أنه كان لا يثبت على مبدأ .

الحال تجهيز مليونى جندى ، وإنه لا يهاب النزال ، وإنه لا يستطيع أى شىء فى العالم أن يلجئه إلى التنازل عن أيِ شرط من شروط المعاهدة من أجل « جون بول » ، وإن الإنجليز لا يستطيعون أن يلحقوا به أذى كبيراً ، وإن أقصى ما يمكنهم أن يأسروا سفينتين أو يستولوا على بضع مستعمرات ، لكنه سيحمل فظائع الحرب إلى لندن . « وإذا أكسبتنا أول حرب بلاد البلجيك وبيدمنت » كما قال فى إبريل ، « فإن الحرب الثانية سوف تضع النظام الاتحادى الذى نبغيه لأوربا على قرار مكين» .

ظاهر إذاً أن نابليون لم يخش قطع العلائق الذى سيؤدى حتماً إلى فتوح جديدة فى أوربا ، وإلى تعويض كارثة سان دومنجو ، وإلى فتح باب جديد تصرف فيه فرنسا قواها . وأقنع نابليون نفسه — بطريقة ترضى ذمته — أن الحرب والظلم ضروريان لدوام دولة مؤسسة على الثورة، ومعرضة للأحقاد التى تنجم عن المطاحنات الداخلية . وفى ذلك قال : « إن مركزى يختلف اختلافاً تاماًّ عن ملوك أوربا العريقين فى الملك . هؤلاء يمكنهم أن يعيشوا عيشة الخمول فى قصورهم ، وأن يستسلموا لكل أنواع الرذيلة ، لا يحاسبهم أحد على مشروعية مراكزهم ، ولا يفكر أحد فى تنصيب غيرهم ، ولا يتهمهم أحد بنكران الجميل ، لأنهم ولدوا من بيوت فيها الملك منذ قرون . أما أنا فمسألتى على النقيض من ذلك ، فليس هناك قائد لا يعتقد أن له فى العرش من الحق مثل مالى ، وليس هناك رجل واحد لا يعتقد أنه ذا أثر فعال

فى طريقى التى اتخذتها فى انقلاب الثامن عشر من بريمير . . . لذلك أرانى مضطراً لأن أقسو على هؤلاء الرجال . . . إن ملكى قائم فى الداخل وفى الخارج على الرهبة ، فإذا أهملت هذه الخطة خلعت عن العرش فى الحال » . فى حمأة هذه الأفكار المختمرة فى رأسه ، وبينما تغالبه نفسه لتأجيل قطع العلائق بمنح إنجلترا بعض التسليمات ، عمل نابليون فى جد لإنجاز معدات النضال .

وفى ١٦ مايو سنة ١٨٠٣ ابتدأت الحرب ، فابتدأ أعظم نزال حدث فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وانتهى أخيراً عند واترلو . وفى رسالة فاخرة إلى مجلس الشيوخ ، ذكر نابليون الاعتدال والصبر اللذين انتهجتهما السياسة الفرنسية ، والشطط الذى ركبت متنه إنجلترا فى مطالبها ، ونوه بعدالة أغراضه وشجاعة جنوده ، أما خطته الحربية ، فتلخصت فى منع المتاجر الإنجليزية منعاً باتاً من أرض الجمهورية ، وأرض حلفائها ، ثم غزو إنجلترا نفسها ، ولم يساور نابليون أى شك فى الحرب التى أصبح لاجئاً فيها ؛ يدل على ذلك قوله فى مايو : « إن هذه الحرب ستؤدى بطبيعتها إلى حرب أوربية ، واستعداداً لذلك يجب أن أضم إلى جانبى النمسا أو بروسيا » . وأعتقد أنه يمكنه اجتذاب بروسيا بسهولة « بإعطائها عظمة تتلهى بقضمها » ، وأن الروسيا ستكون دائماً فاترة الهمة ، ولذا وضع خططه على احتمال مواجهة عدوه القديم ، الذى واجهه مرتين منتصراً بين جبال إيطاليا ووديانها .

بقيت النمسا وإنجلترا — كما كانتا أيام مولبورا الإنجليزى ،

ويوچين القائد النمساوى الشهير — أعدى أعداء التوسع الفرنسى فى القرن الثامن عشر الميلادى ، هذه تسد الطريق أمام فرنسا فى أوربا ، وتلك تضيق عليها الطريق البحرية الموصلة إلى ما وراء أوربا من البلاد .

الفصل السادس

فتوح الإمبراطورية

ساعد كشف مؤامرة الملكيين لاغتيال القنصل الأول ، ومعاقبتهم في مارس سنة ١٨٠٤ م ، على إتمام مشروع كان منذ زمن في دور التكوين في رأس نابليون ، وظل سنتين على الأقل موضع حديث الخاص والعام . ذلك أن القنصل الأول لم يُعجبه يوماً ما دستور وظيفته بمقتضاه محدودة لمدة عشر سنوات ، ونفوذه مقيد بحقوق قيام الهيئات البرلمانية التي نصّ عليها ذلك الدستور . لم يعادل ذلك المركز ما يستحقه رجل تطلع إلى حيازة شهرة الإسكندر أوشارلمان أو يوليوس قيصر ، ولذا استفتى الشعب الفرنسي سنة ١٨٠٢ م في أن يتولى نابليون القنصلية مدة حياته ، فجاءت النتيجة إيجابية بالإجماع . وأدى ذلك إلى توسيع عظيم في نفوذ نابليون : إذ أعطى في ٤ أغسطس سنة ١٨٠٢ م حق اختيار خلفه ، وحق تعيين أعضاء مجلس الشيوخ . ثم أُنقص أعضاء مجلس التربيون إلى خمسين عضواً ، وعُينت لجان الناخبين على أن يشغل أعضاؤها وظائفهم مدة الحياة ، وبذا زالت آخر آثار الحرية في نظام الدولة . كان هذا القانون الجديد من عمل

هيئة مجلس الشيوخ ، وهى الهيئة التى نيط بها مهمة السهر على الدستور ، فأصبحت العامل المساعد على خرابه . ولم يكن هناك أثر للمعارضة ، لأن ردهات قصر لكسمبرج [١] ملئت بلا داع بفرقة من رماة قنابل اليد ، لتسهيل تقرير القانون واستعداداً للطوارئ .

ولما تبدلت القنصلية لمدة الحياة إلى إمبراطورية وراثية ، فى مارس سنة ١٨٠٤ م ، لم يحدث التبديل تغييراً كبيراً فى حالة الرأى العام أو فى رأس نابليون . يرجع ذلك إلى المكانة التى حصل عليها نابليون فى القلوب ، بدليل أن الفزع الذى شمل الناس على أثر تنفيذ حكم الإعدام على دوق دانجيان ذهب سريعاً أمام تصوّر المصائب التى كانت تنزل بفرنسا لو اغتالت يد قاتل رأس الحكومة . ويجدر هنا كذلك ألا ننسى أن نابليون أنقذ فرنسا من الفوضى ، وأنه أقام فيها حكومة دلت كل مظاهرها على العظمة والثبوت ، ما لم تنكسها نكبة عنيفة ؛ ثم لا ننسى أن حياته وحدها وقفت حائلا بين فرنسا وبين الفتنة الداخلية . نعم هال كثيراً من الفرنسيين ضياع الحرية ، وأسف آخرون على تجديد الحرب ، وأخذ عدد غير قليل يتوجّسون خيفة من طُرق نابليون ومطامعه . لكن كل هؤلاء وأولئك مهما يكن ميلهم إلى التذمر من الاستبداد ، وإلى اتخاذ القائد مورو نموذجاً لهم فى الثبات على المبدأ السياسى ، لم يتطلع أحدهم إلى تجديد أيام ثورة

---

(١) أنشأت مارى دى مديتشى زوج هنرى الرابع ملك فرنسا هذا القصر فى باريس ، فى الجهة الجنوبية من نهر السين .

لاڤنديه أو عهد الإرهاب ، لأنهم أحسوا أن الوقت حان ليعلم المتآمرون الأجانب أن فرنسا اتخذت الحكومة الملائمة لحالها الخاصة ، وأن إبعاد نابليون عن الحكم لا يغير الحالة العامة ، فليس لأحد المهاجرين — أو لأحد رجال الإرهاب — ثمة فائدة من إبعاده .

لم يصادف تأسيس الإمبراطورية صعوبات من جانب الأمة الفرنسية أو الهيئات النيابية ، بل من جانب الأقربين من أسرة نابليون . ذلك أن مجلسى الشيوخ والتربيون والمجلس التشريعى قبلت كلها مبدأ الحكومة المطلقة الوراثية ، وهو المبدأ الذى نبذته فرنسا نبذ النواة اثنتى عشرة سنة قبل ذلك التاريخ . ولم يكن فى مجلس الدولة ، وهو المجلس الذى ضم كثيراً من ذوى الشخصيات الثورية ، أكثر من سبعة أصوات مخالفة لذلك الشعور العام . ثم إن طبقة الفلاحين — والجنود والطبقة المتوسطة — رأت أن أى نوع من الحكومة أفضل كثيراً من القيام بثورة من جديد ، أو التشويش على نظام قائم على المساواة . غير أن صعوبة عرضت حين لم تنجب جوزفين أولاداً ؛ إذ أصبحت مسألة الوارث لعرش الإمبراطورية معروضة على بساط البحث ؛ ولا تخلو المناقشة فيها من الدسائس ، ولا ينتهى البتّ فيها بلا ضغينة ونفور . وتفصيل ذلك أن إخوة نابليون الثلاثة — وهم أكبر منه سنًّا ، وكلهم ذوو مقدرة فوق المستوى العادى — نفذوا كالسهام إلى مراكز كبيرة فى الغنى والسؤدد . وعلى رغم اختلاف كل منهم عن الآخر فى نقط هامة من حيث الطبائع — إذ كان لويس بارد الطبع بقدر ما كان

لوسيان حادّه — شابه بعضهم بعضاً فى اتصافهم بأوصاف أسرتهم من خُلق الغيرة والإرادة العنيدة . ترك نابليون الخطة الرومانية القائلة بحق الاختيار المطلق لمن يخلفه على العرش ، احتراماً للإلحاح الشديد الذى وجّهه إليه أخوه يوسف ، وقرر ألا تخرج الإمبراطورية عن دائرة أبناء ليتيشيا ، حتى إذا لم ينجب الإمبراطور ولداً ، ولم يتبنَّ أحد أحفاده ، يؤول التاج إلى يوسف وذريته ، ثم إلى لويس من بعدهم . وحَرَم نابليون من حق وراثة الإمبراطورية أخوين لسبب واحد ، وهو أن لوسيان العنيد تزوج من امرأة من الطبقة الوسطى ، أحبها حبًّا جمًّا ورفض هجرها ؛ وأن چيروم[1] محبوب الأسرة البونابرتية ، ارتكب مثل تلك الزلة ، إذ أعلن أنه تزوج من امرأة فى بلتيمور بأمريكا ، وأنه مزمع الرجوع إلى أوربا بزوجته الأمريكية ، فأثار النبأ غضب نابليون الذى أصبح كل بونابرتى فى نظره أميراً وزوجاً صالحاً لأميرات أجنبيات .

كان من مكملات الإمبراطورية النابليونية تكوين بلاط منتظم لحفلات الاستقبال ، واهتمام بالرسميات . غير أن أساليب الكورسيكى الخشنة ، وحركات أقاربه الدالة على الجهل بحياة البلاط ، غدت موضوع سخرية السيدات والسادة أرباب اللطافة التى كانت يوماً سائدة ڤرساى . ذلك أن نابليون لم يأبه لواجبات الملاطفة ، وكان

---

(١) عمل جيروم ضابطاً فى البحرية الفرنسية ؛ فلما قامت الحرب بين إنجلترا وفرنسا سنة ١٨٠٣ م ، كان ذلك الشاب مع الأسطول الموجود فى المياه الأمريكية ، وتزوج أثناء المدة التى أقامها الأسطول هناك من ابنة أحد التجار فى بلتيمور .

يجهل تقاليد الأرستقراطية الأوربية ، قليل المهارة فى الرقص ، متوسط الإلمام بالفروسية ، خلواً من أخلاق هواة الرياضة . وكان يركب أحياناً للصيد ، على أنه واجب يحتمه عليه مركزه ، لا للهو والسرور ، أو يطلق بندقيته على الطيور الأليفة ، التى اقتنتها زوجه جوزفين فى حديقتها ، منصاعاً فى ذلك إلى الدافع الذى دفعه إلى الحفر على الكراسى والموائد بمبراته ، وإلى تقطيع وتمزيق كل أداة صغيرة تقع تحت يده . وكان ذوقه الموسيقى غفلا غير مهذب ، لا يحفل بالصور ، ولا ينبسط لتجاذب أطراف الحديث فى المجتمعات ، حتى قال فيه تاليران ، وكان ملما بكل تقاليد النظام القديم : أن من يستطيع تسلية نابليون يقدر على تسلية من لا يمكن تسليته ، وإن نابليون رجل يعتبر المدنية عدوه الشخصى . وكم من سيدة ناعمة الطرف ، ممن تضورن من مداعبة الإمبراطور لهن بشد آذانهن بعنف ، أو من جلوسه إلى جانبهن يقص عليهن ما يشاع من عدم إخلاص أزواجهن لهن ، سُرت من تلك العبارة التهكمية التى فاه بها تاليران .

ليس فى الدنيا شىء أكثر إفساداً للسرور من الضرب على نغمة واحدة باستمرار ممل ، فى موضوع طويل . وأحاديث نابليون إن لم تكن كلاماً طويلا يستوجب إصغاء الحاضرين ، أو توبيخاً عنيفاً ، فهى استفهام طويل ممل فى موضوع واحد . والغالب أن بلاطاً يسوسه أنانى محب للعمل يمتاز بكثير من الفضائل ، كأن يراعى الاقتصاد فيه ، ويكون فى مأمن من تأثير مكايد النساء ، ويملأ المراكز فيه



نابليون الإمبراطور (متحف اللوفر)

السياسيون المحنكون والقادة المدربون ، لا رجال ضعفاء وطفيليون ظرفاء — مثل ذلك البلاط لا تبزغ فيه شمس السرور . والبلاط الإمبراطورى الفرنسى الذى تجلت فيه كل هذه الفضائل المتقدمة ، تخلت عنه مظاهر السرور ، كلما زاد فيه جلال الملك ووقار الرسميات . وكيف لا يكون ذلك وعلى رأس البلاط رجل كل نظم الرسميات عنده ، من تشريفات وملابس رسمية ، وطأطأة الرءوس إجلالا ، وتقديم رجل وتأخير أخرى احتراماً ، ليست إلا بعض مظاهر السلطان التى تدخل السرور على النفس ، وتشعر الحاكم بقوته بين الناس ، ولا قيمة لها إلا أنها تبهر خيال الرجل العادى ، وتملؤه بالهيبة والإجلال المنبعثين من رئيس البلاد .

أما فكرة أن الحاكم مخلوق وظيفته الرئيسية إدخال السرور إلى قلوب رعاياه ، فكانت بعيدة عن عقل نابليون ؛ والسبب فى ذلك أنه اعتقد أن واجبه وهمّه أن يسوسهم ويسوسهم دائماً . فكان إذا جلس إلى مائدة لعب الورق أو الشطرنج ، لعب ليكسب ، حتى إذا عجز عن الكسب بالطرق المشروعة عمد إلى الغش . وكان لروح السلطة سلطان على طبيعته ، حتى إن كل رسائل أتباعه لم تفلت من استقصائه ولو كانت خاصة . وكان كلما خف ضغط الأعمال العامة يجلس بين أخصائه ، فيحدد لبعض سيدات البلاط عدد أفراد أسرتها ، أو مصاريف منزلها ، أو نفقات الخيل التى تقتنيها .

وكانت روح حب السلطة ، وهى روح تفسد الحرية والسرور ،

ممثلة بأجلى معانيها فى علاقات نابليون مع أعضاء أسرته ، ومع ذلك حفظ نابليون فى قلبه حبًّا خالصاً لأمه، ولإخوته وأخواته ؛ وليس فى حياته شيء أمجد من تحمله الشدائد التى تحملها فى حداثته ، أو من المروءة التى أظهرها أيام رجولته لرفاهة أسرته . ويرجع ذلك من جهة إلى صفة حب العشيرة الكورسيكية، وإلى اعتقاده من جهة أخرى فى وجوب التحقق من أن أهله فى هناءة ، ليبرهن لفرنسا وللعالم أجمع أن أسرة بونابرت أحسن من آل بوربون ، إذا اتخذت الأسرات قاعدة للتقدير والموازنة . وكان فى تأسيس الإمبراطورية فرصة أكبر من أى فرصة سابقة لتأييد ذلك القول ، فآل بوربون الذين حكموا فرنسا ، وكانوا لا يزالون حكام إسبانيا ونابلى ، أسرة فرنسية قضت السياسة والمطامع الحربية أن يصبحوا أداة الملكية بين الشعوب اللاتينية ، وليس ببعيد أن يكون هناك مستقبل لا يقل عظمة عن عظمة آل بوربون مخبوءاً فى طيات المقادير لأبناء ليتيشيا . ولو تم ذلك لكانت حادثة من خوارق الحوادث ، وبرهاناً ساطعاً على إمكان قلب نظام العالم القديم البطيء رأساً على عقب ، بمجهود رجل ذى مهارة فائقة ، خلق من أبناء ليتيشيا أمراء وكبراء، فى إمبراطورية يبلغ اتساعها ما بلغته إمبراطورية شارلمان . إنما كان هناك شرط قاس للنجاح فى ذلك المضمار، وهو أن الرفعة والمراكز السامية كانت تُشرى بالطاعة العمياء لرئيس الأسرة .

من يوم أن أعلن نابليون الحرب على إنجلترا كان يعدّ المعدّات

لغزوها . قال يوماً : « ليس المانش إلا حفرة لا يتطلب عبورها كثيراً من الإقدام » . وزعم أنه إذا تم له ذلك سترتمى إنجلترا عند قدميه ؛ وفى حديث له عن ذلك الموضوع فى سنت هيلانه ، أن أربعة أيام تكفى لدخوله لندن « لا فاتحاً بل محرراً مثل وليام الثالث[١] » مع امتيازه عن ويليام فى المروءة ، وفى التنزه عن الهوى والتحيز . ومن هذا الحديث يتبين أن نابليون كان عازماً بعد إعلان الجمهورية فى إنجلترا على إلغاء مجلس اللوردات ، وإصلاح مجلس النواب ، وتوزيع ثروة الأعيان الوطنيين على الفقراء . وعند ذلك يرحب به الرعاع ؛ ويمنح هو البحارة « كل شىء » يطلبونه[٢] ، ويقيم جمهورية منفصلة فى أيرلندا . وهكذا تصبح الجزيرتان — بعد زوال حكم الخاصة فى الأولى ، وزوال حكم الأجنبى فى الثانية[٣] — تشاطران فرنسا عهد التجديد .

---

(١) وليام الثالث هو وليام أورانج الهولندى ، وهو ابن اخت شارل الثانى ملك إنجلترا (١٦٦٠ — ١٦٨٥ م) . جاء بعد شارل الثانى جيمس الثانى (١٦٨٥ — ١٦٨٨ م)، غير أن إنجلترا لم تطق صبراً على مواقف جيمس الكاثوليكية ، فخلعته وعرضت العرش الإنجليزى على وليام ، فقبله وجاء إنجلترا سنة ١٦٨٨ م .

(٢) يشير المؤلف هنا إلى حالة التمرد التى انتشرت بين بحارة الأسطول الإنجليزى فى بحر المانش سنة ١٧٩٧ م ، لأجل تحسين المرتبات والأجور . ولم يكن هناك سبب سياسى لتلك الفتنة فيستغله نابليون سنة ١٨٠٤ م ، بل أجيبت مطالب البحارة فى السنة التى تمردوا فيها .

(٣) المقصود بالجزيرة الأولى إنجلترا ، وبالثانية أيرلندا ، ويشير المؤلف هنا إلى الحالة السياسية فى الجزر البريطانية أوائل القرن التاسع عشر الميلادى ، فى نظر نابليون .

ليس ثمة قيمة فى تلك الخرافات ، إذ لو سلّمنا جدلا بإمكان فتح نابليون إنجلترا ، فلا مجال للشك فى مصيرها إلى ما صارت إليه بروسيا بعد موقعة ينا [1] (Jena) ، فيبتز الجباة الفرنسيون منها كل ما تستطيع دفعه من الضرائب ، ويُلقى على عاتقها جيش احتلال ، ثم لا يمضى زمن طويل حتى يهب القوم فى وجه الجباة والجنود ويطردوهم من أرض الوطن . قال أحد مشهورى الكتاب الحربيين الأوربيين : إن من سوء حظ أوربا أن العلم الثلاثى الألوان لم يخفق أبداً على حصن لندن وقصر وندزور [2] ؛ فلو استولى نابليون على إنجلترا لاستنفذ هناك بعض قوته التى آذى بها أوربا ، ولأصبحت إنجلترا عاجزة عن احتكار ميدان الاستعمار ، وهو الاحتكار الذى يثير نار الحقد عليها فى قلوب مزاحميها من الدول الأوربية حتى العصر الحاضر . ربما كان من المعقول أنه لو نزل جيش فرنسى أرض إنجلترا لقضى على سيادة نابليون فى أوربا فى مدة أقصر مما حصل ، غير أن هناك ما يفند ذلك الرأى . ثم إن التاريخ لا ينكر أنه كان خيراً لتقدم العالم أن يؤول أكبر نصيب فى الاستعمار للدولة

(١) انظر حروب نابليون فى بروسيا ، فيما يلى .

(٢) حصن لندن قلعة قديمة ذات أهمية حربية فى العصور الوسطى ، حين كان لكل مدينة قلعة وباب ، أو أبواب . وقصر وندزور قصر قديم بناه وليام الفاتح فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وأدخل فيه آل تيودور عدة تعديلات . والقصر من أجمل مناظر ضواحى لندن فى العصر الحاضر ، وفيه مسكن خصوصى لملك إنجلترا ، وبه جزء مخصص لضيافة الملوك الذين يزورون مملكته ، وبالقصر أيضاً مقبرة الأسرة المالكة .

تدين بالحرية السياسية والصناعية ، بدلا من دولة أو دول تبغى الاستعمار من أجل الاحتكار التجارى . هذا ومهما يلحق نابليون بإنجلترا من العطب ، فليس ثمة ما يدعو للاعتقاد فى عدم استطاعتها ــ بعد سقوطه ــ استرداد سيادتها التجارية والبحرية ، حتى تسبق فى ميدان التوسع الاستعمارى الدول الأخرى التى لم تزل معظم مصالحها ــ أو كلها ــ مرتبطة بقارة أوربا ليس غير . مثلا كانت هزيمة إنجلترا فى سنة ١٨٠٤ م أو سنة ١٨٠٥ م ، كافية لإرجاع جزيرة سيلان أو مستعمرة الرأس إلى الهولنديين ؛ لكنه لم يكن من المعقول أن تؤدى تلك الهزيمة إلى سنة واحدة إلى أجل الإمبراطورية الاستعمارية الألمانية ، أو إضافة إلى مساحتها[1] .

يلزم لغزو إنجلترا ثلاث أمور هامة ، وهى جيش قوى ، ونظام يكفل نقل الجيوش والمؤن ، وبحرية قوية تحمى عبور هذه الجيوش والمؤن وإنزالها إلى البر . لم يكن إعداد أى واحد من تلك الأمور هيناً ؛ إلا أن الأول أسهل من الثانى ، وهذا أسهل من الثالث . استطاع نابليون أثناء المدة ما بين مايو سنة ١٨٠٣م ومايو سنة ١٨٠٥م ، تعبئة جيش عدده ٢١٠,٠٠٠ مقاتل ، بفضل نظام التجنيد الإجبارى والقسوة التى استعملها المديرون فى إنفاذه . فأدى ذلك إلى كثير من الآلام ، ولم ينتج النتيجة المرجوة بدليل قول نابليون : « إن خمس المجندين من حثالة الأمة » غير أن أولئك المجندين الذين جاء معظمهم من فقراء المدن

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى الإمبراطورية الألمانية قبل الحرب العالمية الأولى .

وفلاحى الأرياف ، ما لبثوا – بفضل تدريب ضباطهم الكفاة المحنكين – أن صاروا جيشاً منظماً فى معسكرات التدريب التى أقيمت على الشواطئ الفرنسية الواقعة على بحر الشمال وبحر المانش ، حتى صار فى استطاعة نابليون – فى أى وقت من سنتى ١٨٠٤ و ١٨٠٥ م – أن يرسل إلى شواطئ مقاطعة كِنت فى أقصى الجنوب الشرقى من إنجلترا ، قوة هجومية عددها ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ، لا يقلون بأساً ومهارة عن أى الجيوش التى حاربت فى ذلك العصر . أما مسألة تجهيز وسائل النقل لذلك الجيش ، فبدت أكثر صعوبة ، ففى مايو سنة ١٨٠٤ م صدرت الأوامر فعلا ببناء ٢١٠ من النقالات البحرية المستوية القيعان ؛ وفى يوليه صدر الأمر ببناء ١٤١٠ ؛ وفى أغسطس ببناء ٢٠٠٠ ؛ وبُذل مجهود عظيم لتفهيم الشعب الفرنسى ضرورة الإعانات المالية . لكن بصرف النظر عن استحالة بناء ذلك العدد العظيم من السفن النقالة ، دون تعطيل كل الأعمال المرتبطة ببناء السفن الحربية ، استحال سفر تلك النقالات من المرافئ التى بنيت فيها إلى المرفأ الذى عُيِّن لرحيل الجنود إلى إنجلترا ، من غير أن تلحق بها الطرادات الإنجليزية عطباً كبيراً . أضف إلى ذلك أن السفن التى تم إنجازها نقصت عما قدّر نابليون ، فلم يزد عدد السفن التى اجتمعت عند بولونيا على ١٥٠٠ سفينة ؛ وعلى الرغم من توسيع ذلك الميناء ، فإنه لم يصلح لإنزال الجنود إلا بعد عناء كبير .

وفضلا عن عدم كفاية المعدات المتقدمة ورداءتها ، كان نقص

المطلب الثالث العيب المشؤوم فى كل المشروع . ذلك أنه خيل لنابليون فى خريف ١٨٠٣م أن فى مقدوره عبور المانش، فى ليلة دامسة الظلام هادئة الرياح ، دون حاجة إلى أسطول يحرس النقالات . مثل ذلك العمل كان كالسعى إلى الحتف بالظلف ؛ لأنه نابليون لم يحسب فيه حساباً لأوقات المد والجزر وحالاتهما المتعددة فى بحر المانش ، ولا لمخرج بولونيا الضيق ، ولا لصعوبة إبقاء عدد عظيم من السفن بعضها قُرب بعض عند هبوب ريح فجأة وسط الليل الحالك . ولو فرضنا بناء على الخطة المرسومة أن يخرج كذلك أسطول من النقالات الهولندية من جزيرة تِكْسِل الواقعة عند مدخل بحر زيدرزى ، لمعاونة أسطول النقالات الفرنسية ، فلن يستطيع الأسطولان عمل شىء إذا لم تحرسهما السفن الحربية . اقتنع نابليون أخيراً أن أول خطوة فى سبيل النجاح هى جمع كل قواته البحرية فى بحر المانش ، حتى إذا أمكنه أن يجمع فى مضايق المانش أسطولا حربياً فرنسياً متفوقاً لمدة قصيرة عن أى أسطول إنجليزى يمكن تسييره ضده ، فعند ذلك تستطيع أساطيله النقالات العبور. هنا وهنا بالضبط وضحت الصعوبة الكبرى ، وهى أن الأسطول الحربى الفرنسى ، فضلا عن كونه أقل قوة وعدداً من الأسطول الإنجليزى ، ظل مبعثراً فى البحر المتوسط ، وفى خليج بسكاى وموانى المانش . وبقى أكبر جزء منه محاصراً فى ميناء برست — ليلا ونهاراً ، صيفاً وشتاء — ومعرضا لكل تقلبات الجو رديئة ومعتدلة — بأسطول تحت قيادة أمير البحر الإنجليزى كورنوالس (Cornwallis) .

ثم كان نلسن واقفاً بالمرصاد لأسطول تولون ، على رغم أن تلك المراقبة الدقيقة لم تكن جزءاً من خطته . برهن نابليون على مهارته وإقدامه فى الأمور البحرية حين رأى حرج مركزه ، وعلم أنه لا يمكن حل تلك العقدة إلا بإجلاء أمراء البحر الإنجليزى عن مراكزهم ، واستدراجهم إلى بحار بعيدة . والحقيقة أن مكايده العديدة ، وما تضمنت من مهارة وجرأة ، بهرت العقول ، — فمن تظاهر بالإقلاع إلى مصر ، ثم إلى إيرلندا ، ثم إلى جزر الهند الغربية ؛ ومن تسيير أسطول تولون إلى ميناء شربورج ، ومروره بعد مخادعات طويلة أمام أسطول كورنوالس . لو كان البخار مستعملا إذ ذاك فى السفن ، وكان عند نابليون أمراء بحر ذوو جرأة ، وبحارة ذوو كفاية ، لأمكن تنفيذ بعض تلك الخطط بالدقة . غير أن نابليون كان ينتظر كثيراً ويأمل كثيراً من بحرية ناقصة خائرة القوى ، ونسى أن الرياح والمد والجزر لا تُسخر بأمر إنسان .

زعم بعض الباحثين أن كل تلك الخطط والاستعدادات المتقنة كانت كلها خدعاً فى حد ذاتها ، وأن نابليون لم يقصد يوماً أن يعبر المانش . لكن من قرأ الرسائل الكثيرة الدقيقة الحارة التى استغرقت ثلاث سنين ، والتى دارت كلها حول المسألة البحرية ، لايشك لحظة واحدة فى أن نابليون كان جاداً فى خططه لغزو إنجلترا ، أو فى عزمه على إنفاذها فى مرتين على الأقل : أولهما خريف سنة ١٨٠٣م ، وثانيهما صيف سنة ١٨٠٤م ، وربما ربيع وصيف سنة ١٨٠٥م كذلك. ثم إذا لم يكن نابليون جاداً فى عزمه، فلماذا أمر بضرب نيشان عليه

صورة هرقل الصنديد يخنق إحدى بنات البحر[1] من وجه ، وعليه من الوجه الآخر « ذكرى غزو إنجلترا . ضرب فى لندن سنة ١٨٠٤م » ؛ ولماذا صرف الإمبراطور خمسة أسابيع على الشاطئ الشمالى صيف سنة ١٨٠٤م ، يبذل كل ما أوتى من نشاط فى إعداد المعدات البحرية ، وتستهويه نشوة الطرب عند رؤية البحر ؟ أكان هازلا عند ما خصص عشرين مليون فرنك فى مارس سنة ١٨٠٥م ، لإصلاح الطرق فى بيكاردى ، وهى المقاطعة الفرنسية المطلة على الشواطئ الإنجليزية الجنوبية ؟ أو حينما رسم خطة دقيقة — بعد كثير من التنميق والتعديل — تتضمن جمع كل السفن الحربية الفرنسية عند جزيرة مارتينيك فى الهند الغربية ، حتى إذا تم تضليل الأسطول الإنجليزى أسرعت السفن الفرنسية قافلة إلى بولونيا ؟ الحقيقة أنه حين وضح عدم إمكان إنفاذ المشروع ، أصبح من السهل — بل من الطبيعى — القول بأن غزو إنجلترا لم يقصد أبداً . عند ذلك أعلن نابليون بلهجة متغطرسة أن عبور المانش لم يكن إلا إيهاماً ، قُصد به التمكن من تعبئة الجيش وتموينه وتدريبه ، استعداداً لحرب أوربية دون إثارة خاطر أحد ؛ وأن الملايين التى صرفت على العمارة البحرية ، وعلى إصلاح الطرق والموانئ ، لم تكن إلا ذرا للرماد فى عين الأجنبى ؛ وأن السلاح الذى وجهه باستمرار ومهارة نحو إنجلترا ، لم يقصد به سوى إثارة دولة أخرى فى الجانب الآخر من أوربا .

---

(١) هرقل بطل الشجاعة فى الأقاصيص اليونانية القديمة ؛ ورسمه على النيشان رمز لنابليون . وبنت البحر المخنوقة رمز إلى إنجلترا .

لا تخلو تلك المعاذير من بعض الحق ، لأن احتمال نشوب الحرب فى أوربا — وهو الاحتمال الذى شغل رأس نابليون — جعل الجيوش المحتشدة عند بولونيا نافعة من وجهتين : إحداهما وأهمهما توجيهها ضد لندن ، وثانيتهما — فى حالة فشل المشروع البحرى — ضد عصبة الدول الأوربية التى كان من المحقق عاجلا أو آجلا أن يكونها پت رئيس الوزارة الإنجليزية حين ذاك . وفى الحقيقة أنه إذا استعصى غزو إنجلترا ، فلا يبقى إلا طريقان لإثابتها إلى رشدها ، وهما : إما إنفاذ ضربة قاضية فى الهند ، أو إقامة حصار قارى فى وجه التجارة الإنجليزية . جرب نابليون الطريق الأولى سنة ١٧٩٨م ؛ وبعد نقض معاهدة أميان ، غدا معظم همه موجهاً نحو الطريق الثانية ، ظناً منه أن هزيمة إنجلترا تستلزم التسلط على دول أوربا أولا ، حتى إذا فشل غزو الشواطئ الإنجليزية ، أضحى من اللازم التحرش بدولة أوربية — مثل النمسا — إلى حد يكون عنده قطع العلائق معها أمراً يسيراً .

غير أنه لم يكن فى التاريخ كله سابقة يستطيع نابليون أن يستمد منها سبيلا إلى إثارة النمسا إلى الحرب . وتفسير ذلك أن الإمبراطور النمساوى ، بسبب ما تكاثر عليه من المصائب الحربية المتوالية ، بات مستعداً لقبول ما لا نهاية له من ضروب الإذلال قبل أن ينزل إلى ميدان القتال من جديد . فمثلا وقفت النمسا جامدة وهى ترى غزو ولاية هانوفر بألمانيا ، وإعادة احتلال مملكة نابلى ، وإكراه إسبانيا على دفع إعانة مالية ؛ وقبلت وهى تحرق الإرم حادثة القبض على الأمير

دانجيان ، وهو فى أرض الإمبراطورية النمساوية ، والحكم عليه بالإعدام بعد محاكمة سرّية . ولما أعلن نابليون نفسه إمبراطوراً ، رضيت النمسا صاغرة ؛ وكذلك فعلت حين أخذت نابليون عزة الملك ، وسافر إلى إكس لاشابل عاصمة إمبراطورية شارلمان القديمة ، ليتسلم الوثائق التى اعترفت النمسا فيها بمركزه الجديد . السبب فى ذلك كله أن هيئة كبار الفنيين الحربيين فى ڤينا قررت أن النمسا ليست على استعداد للحرب بعد ، وأن الأرشيدوق شارل النمساوى — هو الذى نصح بالتروى — تغلب برأيه مدة على آراء المتحمسين القائلين بالتعجيل .

ثم خرجت النمسا فجأة من ذلك الموقف السلبى من جراء أعمال نابليون فى إيطاليا : وذلك أن آل هابسبورج شهدوا سلسلة من التغييرات التى لم ترق نظرهم ، ومنها تأسيس جمهورية فى لمبارديا على حسابهم سنة ١٧٩٧م ، واسترجاعها على حسابهم كذلك سنة ١٨٠٠م ، وتأسيس جمهورية بها ثانية بعد ذلك بسنتين ، على نظام أدق وأشد خطراً تحت رآسة نابليون . غضت النمسا الطرف عن كل تلك الإجراءات ، آملة أن تصبح « الجمهورية الإيطالية » فاصلا بين الفرنسيين فى پيدمنت والنمساويين فى البندقية . لكن ظهر فجأة سنة ١٨٠٤ م مشروع جديد منذراً بالأخطار : إذ أعلن نابليون أن احتفاظه برئاسة الجمهورية الإيطالية لا يتفق ومركزه الجديد فى فرنسا ، وعلى ذلك أخطرت النمسا بتحويل الجمهورية الإيطالية ملكية وراثية ، وبقبول يوسف بونابرت لعرشها ، مع الضمان الكافى لبقاء تاجى إيطاليا وفرنسا

لا يحملها رأس واحد . غير أن ذلك المشروع – على ما فيه من شبهات ، وما تضمنه من مخاوف – لم يلبث أن استبدل بآخر كان أدعى لإقلاق بال النمساويين ، وهو أن قبول يوسف بونابرت للعرش الإيطالى كان سابقاً لأوانه ؛ لأنه بعد أن فكر وأدرك أنه من ضمن المرشحين لعرش الإمبراطورية الفرنسية ، آثر البقاء فى فرنسا منتظراً ما تأتى به الأيام، عن أن يقبل مركزاً فى لمبارديا مملوءاً بالمتاعب محملا بالمسئولية . ثم فكر نابليون فى تبنى أكبر أولاد أخيه لويس ، وفى منحه وهو فى الثالثة من عمره لقب ملك إيطاليا ، حتى إذا بلغ أشده تملك زمام عرشها بيده . غير أن ذلك المشروع أهمل لمعارضة أبى الولد ؛ فاستقر رأى الإمبراطور على أمر ظهر منه جلياً مبلغ أطماعه : ذلك أنه عزم على أخذ التاج الإيطالى لنفسه ، فيصبح ملك إيطاليا ، على أن يكون ربيبه يوچين بوهارنيه قائماً بالأمر عنه فى ميلان . وجعل نابليون ذلك الترتيب مؤقتاً ريثما يخلى البريطانيون مالطا ، والروسيون جزيرة كورفو فى بحر الأرخبيل . لكن من المستحيل على أى سياسى ذكى أن يصدق كل هذه الأقوال والتحفظات ، أو يعتقد أن نفسية نابليون تسمح بالتنازل عن تاج وقع فى يده مرة . وفى الحقيقة لم يخف نابليون نياته ، فسرعان ما أصبح شارلمان الجديد ، والحاكم فى إكس لاشابل وميلان ، والمهيمن على فرنسا وإيطاليا ، فضلا عن تتويج البابا له وتبريكه إمبراطوراً على الفرنسيين . على ذلك ذهب نابليون فى يونيه سنة ١٨٠٥م إلى إيطاليا ، وتوّج نفسه بكل هدوء فى كاتدرائية ميلان بتاج ملوك

لمبارديا الحديدى ، كما فعل أباطرة الدولة الرومانية المقدسة فى العصور الوسطى ، حين أتوا وحولهم الفرسان الألمان ليثبتوا للملأ حقوقهم الخيالية على سهل لمباردى . أجل بدت سلطة نابليون أوسع من سلطة بربروسا الذى دانت له البلاد فى العصور الوسطى ، وامتازت عنها بأنها لم تلق من يناهضها . انتهز نابليون فرصة زيارته لإيطاليا هذه المرة فكوّن « إقطاعاً إمبراطوريّاً » لأخته إليز من بلدة پيومبينو الواقعة على الشاطئ الإيطالى فى مواجهة جزيرة إلبا ، وضم إلى الإمبراطورية الفرنسية الساحل الذى تتكون منه الجمهورية الليجورية[1].

ألحت روسيا وإنجلترا فى تحريض النمسا لمحاربة نابليون الذى أرغمها على نحو ما تقدم ، والسبب أن القيصر إسكندر — وهو الشاب المخراق الطموح — غضب من أجل إعدام دانجيان ، بدرجة أنه وقع فى ٦ نوفمبر سنة ١٨٠٤ م على معاهدة دفاعية مع النمسا ، ضد أى اعتداءات جديدة من جانب فرنسا . ثم وقعت هذه الاعتداءات حين خرقت فرنسا حرمة معاهدة لونيڤيل بجرأة ، فوردت الأخبار على البلاط النمساوى أنه إذا لم تهب النمسا بسرعة . فإنها لن تلقى معونة رجال روسيا ، ولا أموال إنجلترا فيما بعد . على ذلك انضم فرنسيس إمبراطور النمسا للتحالف[2] ، فى ٧ يونيه سنة ١٨٠٥ م ، وبدأ

---

(١) أطلق الفرنسيون هذا الاسم الجغرافى على جنوا بعد فتحها سنة ١٧٩٧ م ، وذلك بعد أن ألغوا نظام الجمهورية القديمة .

(٢) هذا هو المعروف بالتحالف الثالث ، والفضل فى تكوينه للسياسى بت رئيس الوزارة=

في تعبئة جيوشه . بيد أن عين نابليون الساهرة لم تغفل عن تلك الحركة ؛ ولما كان من المحتمل أن تنصرم بضعة أشهر قبل أن تتأهب النمسا للحرب ، رأى أن يمضى هو فى إعداد خطته العظيمة والأخيرة ضد إنجلترا ، حتى إذا فشلت انقض على جموع النمساويين ليكتسحهم دفعة واحدة .

ثم كتب نابليون — فى ٢٣ أغسطس ، وهو فى بولونيا — إلى تاليران ، قال : « قام أسطول من فِرُول مؤلف من أربع وثلاثين سفينة ، ولم يجد للعدو أثراً ؛ فإذا نفذ ذلك الأسطول الأوامر المعطاة له ، ولحق بالأسطول المقلع من برست ليدخلا المانش معاً ، فإن هناك أملا أن أصبح المسيطر على إنجلترا » . ثم قال ، وإذا لم يتم ذلك « فسأغادر معسكرى فى هذه الجهة ، وأكون فى يوم ٢٣ سبتمبر فى ألمانيا على رأس ٢٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وأبعث ٢٥,٠٠٠ جندى أخرى إلى مملكة نابلى والبندقية ، وأكون وسعت ممتلكات منتخب بافاريا ، فلا أعود أرهب جانب النمسا » . ولكن قبل كتابة هذه الرسالة بأسبوع — أى فى ١٥ أغسطس — أدرك أمير البحر ڤيلنيف ، قائد الأساطيل الفرنسية والإسبانية المتحالفة ، أنه أخفق فى محاولته ، وأصدر الأمر بالعودة إلى ميناء قادس على شاطئ إسبانيا الجنوبى[1] .

= الإنجليزية من الروسيا والنمسا والسويد وإنجلترا ، وكانت إسبانيا وبافاريا وقتذاك فى جانب نابليون .

(١) تفصيل ما حدث أن أمير البحر فيلنيف نجح أولا فى استدراج نلسن نحو جزائر الهند الغربية ، فى ربيع سنة ١٨٠٥ م ؛ غير أن نلسن كشف الحيلة حين شهد=

هكذا فشل المقصد العظيم الأول ، بفضل يقظة البحرية الإنجليزية . فلم يبق لنابليون إلا أن ينفذ المقصد العظيم الثانى . وعزم النمساويون على تسيير الجزء الأعظم من جيوشهم إلى إيطاليا ، وعلى إبقاء ٥٠,٠٠٠ جندى فقط للقتال فى جنوب ألمانيا ، ومرجع ذلك الترتيب شيء من سوء تقدير الأحوال . ثم زاد الموقف حرجاً قلة صبر النمساويين ، وعدم مبالاتهم بضرورة انتظام وصول الأمداد الروسية، إذ بالرغم من الاتفاق على انتظار وصول ٥٠,٠٠٠ مقاتل روسى إلى بلدة براوناو على نهر الأن فى ٢٠ أكتوبر ، ظن الجنرال النمساوى ماك من الحزم أن يتقدم نحو الحدود الفرنسية ، بغية أن ينضم إليه أهل ألمانيا الجنوبية ، أو أن يحدث وصوله إلى أطراف فرنسا ثورة داخلية . وسرعان ما لقيت تلك الغلطة جزاءاً وفاقا ، فبينا كان ماك يحلم باختراق الغابة السوداء دون أن يلقى مقاومة ، إذا بجيش يبلغ عدده مثل عدد جيشه ثلاث مرات ،

= السفن الفرنسية تتأهب للرجوع عند جزيرة أنتيجا إحدى جزائر الهند الغربية لذلك أرسل نلسن رسولا على ظهر أسرع سفنه لتحذير الحكومة الإنجليزية . فأرسلت إلى أمير البحر كورنوالس ، الذى حاصر الأساطيل الفرنسية الراسية فى برست وفرول ، تأمره برفع الحصار ، والخروج إلى البحر لمقابلة أمير البحر الفرنسى ، فقابله عند رأس فنستر فى جنوب إسبانيا ، فى ٢٢ يوليه سنة ١٨٠٥م ، وألحق به الهزيمة . عند ذلك اضطر فيلنيف إلى الالتجاء إلى مينا قادس ، وجاء أسطول إنجليزى لمحاصرته فيها . ثم حاول فيلنيف الخروج إلى عرض البحر ، والانتقام لهزيمته عند رأس فنستر ، فكانت النتيجة أن لحقت به الهزيمة التامة عند رأس الطرف الأغر فى ٢١ أكتوبر سنة ١٨٠٥ م ، على يد نلسن الذى جرح أثناء المعركة ، ومات بعدها بقليل .

ويمتاز بأنه أحسن منه قيادة وأكفأ ضباطاً وأدق نظاماً ، يعبر مسرعاً ألمانيا من طرق شتى على خطط موضوعة بدقة رياضية . وسرعان ما أحاطت الشباك بقنصها الغافل ، ولم تمض ثلاثة أسابيع على عبور الجيش الأعظم [١] نهر الرين ، حتى سلم ماك وجيشه النمساوى عند ألم . عند ذلك كتب نابليون : « نفذت خطتى كما رسمتها بالضبط » . وربما لا يعى التاريخ ، بما فيه من ذكريات وأمثال ، ونخص بالذكر منها حياة القائد البروسى ملتكه [٢] ، مثلا كان تنفيذ خطة التطويق منطبقاً تمام الانطباق على الخطة الأصلية كما حصل فى ألم .

بينما الروسيون والنمساويون يتقهقرون أمام نابليون ، بدت سحب حالكة تتجمع فى شمال ألمانيا . كانت الحكومة البروسية وقتذاك غير الهيئة الرائعة التى تسير الآن قوى خمسين مليون ألمانى ، على نظام عسكرى كله وطنية متحمسة [٣] . وكانت بروسيا نفسها أقل ثروة وسكاناً ودرجة من المستوى المنخفض الذى تعيش فيه إيرلندا الحديثة ، حتى خيل أنها نبذت تحت حكم فردريك وليام الثالث أطماعها القديمة فى الوصول إلى مرتبة الدول

---

(١) أطلق هذا الاسم لأول مرة على الجيش الذى أعده نابليون لغزو إنجلترا . وبقى لاصقاً بجيش الإمبراطور فى حروبه المتعددة .

(٢) برنهارد فون ملتكه هو القائد البروسى الذى بقى رئيساً لهيئة أركان الحرب فى الجيش البروسى ثلاثين عاماً كاملة ، وتوفى سنة ١٨٩١ ؛ وهو أعظم أستاذ فى علم خطط القتال وتدابيره . فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى.

(٣) يصف المؤلف هنا الإمبراطورية الألمانية قبل الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ — ١٩١٨ .

العظمى فى أوربا ، مثل ذلك أنها اتبعت خلال عشر سنوات سياسة حيدة دائمة نحو الطرفين المتحاربين ، بلا شجاعة ولا تبصُّر ، رغم إثارات نابليونية تكفى لاستفزاز أمة ذات شمم للقتال . ثم جاء الوقت الذى لم تستطع بعده بروسيا صبراً ، ففى خريف سنة ١٨٠٥م بلغ السيل الزبى حين سير نابليون جزءاً من الجيش الفرنسى عبْر — ألمانيا — فى طريقه إلى ألم — ثقة منه أن لا جناح عليه فى خرق حرمة حياد بروسيا . ظاهر أنه لو تركت أمثال تلك الجرائم بلا عقاب ، فلا قيمة لمنطقة الحياد التى كانت تحت حماية بروسيا بمقتضى معاهدة بال . لذلك عقد ملك بروسيا مع قيصر روسيا معاهدة تحالف فى بوتسدام ، مؤداها أن تعرض بروسيا استعدادها للتدخل المسلح فى جانب نابليون . وعرضت بروسيا استعدادها لهذا التدخل المسلح بشروط يستحيل على نابليون قبولها بأى ثمن من الأثمان ، إذ طلبت منه أن ينسحب من هولندا وألمانيا ونابلى وسويسرا وپيدمنت ؛ وإلا أطلقت فى سبيل مواصلاته مائة وثمانين ألف بروسى .

تطلب الحزم أن يرجئ إمبراطور النمسا وروسيا الحرب لوقت نزول الجيش البروسى إلى الميدان ، لاسيما وأن جميع الأحوال كانت تقول فى التأنى السلامة وفى العجلة الندامة . وتفصيل ذلك أن نابليون رغم استيلائه على ڤينـــا تعرض للهجوم من كل صوب وحدب بجيوش الأرشيدوق شارل الذى رجع بسرعة من إيطاليا ، وبجيوش روسيا التى ارتدت بعد ألم إلى بوهيميا ، حيث أخذت تنضم إليها فلول الجيش النمساوى التى نجحت فى الخلاص من الشرك الذى نصب

لها فى ألم . لو أنه أضيف إلى تلك الوحدات الهائلة قوة جيش بروسى يحارب فى وادى الدنواب الأوسط ، لأصبح مركز نابليون فى مورافيا حرجاً . على أن الإمبراطور يَقِظ كل اليقظة لمخاطر ذلك المركز ، حتى إنه فتح باب المفاوضات مع كل من الإسكندر وفرنسيس علّه يفسد بينهما. على أنه تخلص من ذلك المأزق لا بالسياسة، بل بغرور الإسكندر ، إذ اعتقد القيصر أنه يمكنه وحيداً قهر نابليون ، فأراد أن ينفرد بذلك الفخار ، وعقد النية على إجبار نابليون على القتال . فى اليوم الثانى من ديسمبر سنة ١٨٠٥ م — الموافق عيد تتويج نابليون — وقعت الواقعة الكبرى التى أخذت اسمهـــا من قرية أسترلتز فى مورافيا ، حيث أقام الإمبراطوران مراكزهما الرئيسية . فى ليلة الواقعة ساد معسكرات الفرنسيين روح مدهش ملؤه الثقة وأنارت ظلام الليل البارد أضواء الرقص بالمشاعل ، الذى اشترك فيه سبعون ألفاً هاتفين للامبراطور بالنصر فى الصباح . أما جيش الحلفاء البالغ ثمانين ألفاً ، فكان معسكراً على مرتفعات پراتزن التى عرفها نابليون جيداً من قبل ، حتى إذا أشرقت الشمس أمكنه رؤية أعدائه ينحدرون من الهضبة « انحدار السيل إلى الوادى » . وجعل نابليون خطته أن يحوّل كل مجهود الهجوم الروسى ضد جناحه الأيمن ، حتى يتيسر له بعد ذلك تسيير قوة كبيرة إلى مرتفعات پراتزن ، لتشتيت قلب الجيش الروسى ، ثم رتب نابليون حركاته فى كثير من الدقة اللازمة للنجاح فى كل الحروب ، فوجه نابليون إلى القائد سولت[1]

(١) دخل سولت الجيش جندياً عادياً ، وترقى فيه حتى كانت أيام نابليون فترقى=

السؤال الآتى : « كم من الوقت يلزمك للوصول إلى مرتفعات پراتزن ؟ » فأجاب سولت : « يلزمنى أقل من عشرين دقيقة » . وعندها رد عليه نابليون : « إذا كانت المسألة كذلك ، فيمكننا أن ننتظر ربع ساعة آخر » . ثم علم نابليون من طقطقة البنادق ودوى المدافع أن الروس اشتبكوا مع جناحه الأيمن ، فسيّر مورا وبرنادوت[1] وسولت ضد قلب الأحلاف . وحارب الروس بالشجاعة التى كثيراً ما أكسبتهم

=فى أيامه كذلك ، وهو بلا شك أعظم قادة الإمبراطورية النابليونية خبرة ومهارة فى الحرب . ولما سقط نابليون نفى سولت عن فرنسا . وبقى منفياً حتى استدعته الحكومة الفرنسية نفسها سنة ١٨١٩م وخدم الملكية الجديدة .

(١) دخل برنادوت البحرية الفرنسية ، وأظهر كفاية أيام الثورة ، فترقى وقتئذ بسرعة وأصبح من الرجال المعروفين . ويظهر أنه لم يكن بينه وبين نابليون ثقة أبداً ، لأنه كان من المعارضين فى انقلاب برومير . مع ذلك أصبح برنادوت مارشالا سنة ١٨٠٦ م ، وامتاز دون بقية قادة فرنسا فى ذلك العهد بحلمه وكرمه وحسن معاملته للأسرى . ذلك أنه حدث سنة ١٨٠٩م أن السويد ملت الحرب ضد نابليون ، فعزلت ملكها جستاف الرابع ، وأقامت مكانه شارل الثالث عشر ، وكان ضعيفاً هرماً وليس له ولد ، فاختارت السويد برنادوت ولياً للعهد ، لما عرفت عنه من حسن المعاملة للأسرى السويديين أثناء الحرب ، ولتقوية أواصر المحالفة مع نابليون . وانزعجت إنجلترا وروسيا من ذلك الترتيب ؛ غير أنه لم يكن ثمت داع للتخوف ، لأن السويد اختارت فى الحقيقة أقل الفرنسيين وداً مع نابليون . ثم مات شارل الثالث عشر سنة ١٨١٠ . فتولى برنادوت عرش السويد ؛ عند ذلك طلب إليه نابليون أن ينضم إلى الحصار القارى بلا قيد ولا شرط ، فلم يقبل ، وانضم إلى روسيا سنة ١٨١٢ ، ودخل الصفوف ضد نابليون . ومن أسرة برنادوت هذه كان الكونت برنادوت ، مندوب هيئة الأمم المتحدة فى المسألة الفلسطينية .

الفخار فى تاريخ الحروب . بيد أن الفرنسيين ظهروا عليهم لكثرة عددهم وإقدامهم ؛ فاستولى سولت على مرتفعات براتزن حوالى الظهر ، وأخذت فلول الجيش الروسى بقيادة كوتوسف تنحدر متقهقرة على الجانب الشمالى للهضبة ، بينا تحوّل قلب الجيش الفرنسى إلى اليمين وحمل على جانب ومؤخرة الجناح الروسى الأيسر . رأى الإمبراطور بعينه من كنيسة سانت أنطونى كيف أبيدت ثلاث فرق روسية ، ولما تبودلت الطلقات الأخيرة ، ركب نابليون إلى الميدان ساعة الغسق فى تلك الليلة الباردة ، وتفقد بإمعان غريب غنائم اليوم ، من جثث هامدة وأجسام تنبعث منها أصوات الآلام .

وقفت الحرب فجأة عند هذه الضربة المميتة ، فانسحب القيصر المدحور إلى الشمال ، واضطر هو جفتز ، وهو المفوض البروسى الذى ظل منتظراً فى ڤينا ومصير أوربا فى كفتى ميزان، إلى التوقيع باسمه على صلح شائن فى برسبورج . أما النمسا فوقع عليها الجزاء الأوفى ، وباءت بغضب نابليون للمرة الثالثة ؛ وبمعاهدة شونبرون ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٠٥م ، وافق الإمبراطور فرنسيس على التنازل عن البندقية وإستريا ودلماشيا ، وعن خط الطوابى الجبلية بالتيرول ، وعن مختلف الأراضى التى كانت من أقدم أملاك آل هابسبورج فى الجنوب الغربى من ألمانيا .

أصبح نابليون بعد أسترلتز سيد إيطاليا وجنوب ألمانيا ؛ وقديماً واجه نابليون فى إيطاليا ثلاث قوات خارجة عن نفوذه ، وهى البندقية

وروما ونابلى — دول ضعيفة بنفسها ، قوية بشد أزر النمسا لها أدبياً وحربياً — ومن ثم أصبحت مسألتها تستدعى علاجاً دقيقاً . غير أنه حين أباد نابليون جيشاً نمساويا عند ألم ، وكسر جزءاً من جيش نمساوى آخر عند أسترلتز ، أصبح قادراً على الانقضاض على أملاك آل هابسبورج وأحلافهم فى إيطاليا ، فضم البندقية إلى مملكته الإيطالية ، وأرسل مسينا لطرد آل بوربون من نابلى ، وطلب بخشونة إلى البابا أن ينضم إلى الحصار القارى ؛ ونتج عن تردد المجلس البابوى أن أعلن نابليون نفسه إمبراطور روما والرئيس الدنيوى فى الكنيسة . بذلك أصبحت إيطاليا فى قبضة نابليون ، ولكى يكون مركزه فيها موطداً أعطى تمار التيرول لحليفه منتخب بافاريا ، بعد أن اعترف به ملكاً على الباڤاريين ، وجعله صهراً للأسرة الإمبراطورية جزاء مساعدته فى الحرب . ومن المؤكد أن يحرص هذا الحارس الجديد على ما اؤتمن عليه من أطراف إيطاليا ، لأن ابنته تزوجت يوچين بوهارنيه — ربيب نابليون — أصبحت الملكة فى ميلان .

بتلك التدابير الفعالة طهرت إيطاليا لثمان سنوات من كل أثر نمساوى ، وذاقت حلو العيش ومره على يد الإمبراطور العظيم . وكانت هذه المدة من أحرج السنوات وأهمها فى دور تكوينها : إذا أرسل أبناؤها فى حروب خارجية ، وخربت دور الفنون الجملية بمدنها ، ونهب الوكلاء الماليون خزائنها ، وهم عمال الاستبداد الحربى الفرنسى . لكنها على الأقل نالت من حكم نابليون ما كان يستحيل على النمسا

أن تنيلها إياه ، وهو إذكاء نار الآمال القومية ، ونظرة جديدة إلى العالم الحديث ، ومبادئ التدريب الجدى فى المسائل العامة .

من مزايا مركز نابليون أنه كان لانفراده بالسلطة فى فرنسا ، يستطيع فى أى وقت ، وبدون أن تعترضه العراقيل ، أن يفيد من كل شاردة وواردة فى تحقيق أغراضه الحربية فى سهولة . مثل ذلك أنه لم يدخل الحرب الآنفة الذكر إلا بعد تفقد الحال السياسية فى ألمانيا ، حيث رأى أن الدويلات الألمانية الجنوبية توجس خيفة من مطامع النمسا ، وأن من الممكن استمالتها إلى جانب فرنسا ، بإعطائها شيئاً يقيم رمقها . وبهذه الطريقة سارت بادن وفرتمبرج وباڤاريا مع التيار الفرنسى ، واشتركت فى معسكر أسترلتز ؛ وبعد الانتصار طلب كل منها ونال الأرض والألقاب التى تُجزى بها أمثال تلك الخدمات . ولم تكن المساومة فى مصلحة طرف واحد ، لأن نابليون نال بسرعة مدهشة ثلاثاً من بنات أمراء الدويلات الثلاث : زوّج إحداهن إلى ربيبه يوچين ، والثانية إلى ابن عم ربيبه ، والثالثة إلى أخيه چيروم ، وبتلك المصاهرات الغريبة الموفقة ، طبع نابليون مشروعه الهائل بطابع الوقار ، وربط ثلاث بيوتات قديمة ذات مجد غير ضئيل بعلاقات زواجية أجنبية .

وبعد أن تمت تلك المحالفات وتأصلت ، صار الطريق واضحاً للضربة الأخيرة والقاضية على مركز النمسا فى ألمانيا ، إذ محا نابليون الدولة الرومانية المقدسة فى يونيه سنة ١٨٠٦ م ، وأقام بدل النظام الألمانى العتيق الواهن

عصبة قوية مكونة من أمراء يستمدون منه كل سلطة ، وعليهم عهد مقطوع ، أن يمدوا الإمبراطورية الفرنسية بمعونات حربية معينة . وكذلك برهن اتحاد الرين — وهو اسم تلك العصبة — برهاناً قاطعاً على الوهن الذى تصير إليه أمة متمدينة ، بتأثير التفكير السيئ والعواطف الخاطئة فى السياسة . سَبَرَ نابليون غور ذلك الوهن الألمانى ، وهو جاهل بكتابة أو قراءة كلمة واحدة فى اللغة الألمانية ، ما عدا ڤرتر الذى كان مترجماً إلى الفرنسية ، حتى إنه وضع اسم كانت[1] فى قائمة الفلاسفة المحتقرين ذوى الأحلام الطائشة ودعاة التدجيل فى العالم.

فى هذه الآونة لم تفقد المسألة القديمة الخاصة بعقوبة حكومة « الأعيان الجبناء فى لندن » — على قول نابليون — شيئاً من حدتها ، سوى أن مشروع الغزو أضحى خارجاً عن المعقول ، ونبذت الفكرة منذ أغسطس ، ثم حالت موقعة الطرف الأغر بتاتاً دون العودة إليها . فكر نابليون فى مشروع غير جديد ، لمشابهته بعض سياسته الأولى وسياسة حكومة الإدارة كذلك ، وهو أنه عقد النية على إغلاق الموانئ الأوربية فى وجه متاجر إنجلترا ومستعمراتها . ولم يذق نابليون الراحة لحظة أثناء إنفاذ ذلك المشروع الهائل ، لاتساع الدائرة التى يتناولها اتساعاً لا يجد الباحث له مثيلا فى تاريخ طغاة آسيا . ولم يعظم على

(١) الفيلسوف الألمانى كانت (Kant) أكبر فلاسفة العصور الحديثة ، ولد سنة ١٧٢٤ م فى مدينة كونجزبرج فى بروسيا الشرقية ، ومات بها سنة ١٨٠٤ م ، وكان أثناء حياته أستاذ الفلسفة فى جامعتها ، وله مؤلفات كثيرة ومذهب فلسفى خاص به .

ذهنه الثاقب . وبصيرته النافذة ، ودقته الهندسية التى امتاز بها ، أن يتصوّر قارة بأسرها تخضع لإشارته ؛ فنصب أحد إخوته حاكماً على نابلى ، والآخر على هولندا ، وخيل إليه أن خضوع إسبانيا لن يقل عن خضوع لجهورن أو چنوا أو أنڤرس . إنما كان هناك ثلاث ثغرات خطيرة فى السياج الجمركى الذى أقامه نابليون، فى ألمانيا وروسيا والبرتغال، فلو تركت هذه الثغرات لتهدم مشروعه من أساسه فى سرعة . وتبين أن ساحل ألمانيا الشمالى أهم تلك الثغرات وأوسعها ، ولا بد أن يدخل ضمن النظام القارى ، رضيت بروسيا أم كرهت .

كانت الحكومة البروسية مرغمة بمعاهدة برسبورج على أن تقبل من نابليون منتخبية هانوڤر التابعة للأسرة المالكة فى إنجلترا ، مع العلم بأن هانوڤر كانت فى الواقع مطمح أنظار الساسة فى برلين . لكنهم حصلوا عليها مقابل قطع العلائق مع إنجلترا ، وحاول البروسيون سدى أن يرفضوا تلك المنحة التى أيقنوا أن استلابها محال ، دون أن يعرضوا سواحلهم لعقاب الأسطول البريطانى . لكن لما كان غرض نابليون الوحيد من سياسة الكرم الممزوج بالخداع أن يلقى الشقاق بين بروسيا وإنجلترا، فإنه رفض بتاتاً أن يسترجع ما أعطى . ثم أعلنت الحرب ، ووقع ما كان فى الحسبان : إذ حاصرت إنجلترا الموانئ البروسية ، واستولت على السفائن التابعة لبروسيا ، برغم أن مركزها أصبح مركز اللص الذى أكره على صناعته . عند ذلك بلغت روح الكراهة للفرنسيين أقصاها فى برلين، وقال الناس إن من الحماقة أن تدخل بروسيا فى حرب مع إنجلترا

إنجلترا حليفتها الطبيعية ، طوعاً لأمر أجنبي مستبد ، لاتزال جيوشه الكبيرة المظفرة معسكرة فى جنوب ألمانيا . وبالرغم مما حدث لم يحرك نابليون ساكناً لتهدئة المخاوف البروسية ، حتى إذا ظهر أنه وعد الحكومة الإنجليزية خلال مفاوضات عقيمة بإرجاع هانوفر إلى إنجلترا ، طفحت كأس بروسيا ، وأصدر فردريك وليام الثالث الأمر بتعبئة الجيوش البروسية .

بدا نابليون على أتم استعداد للحرب ، وذلك أنه بالرغم من امتلاء رسائله صيف سنة ١٨٠٦ م بمسائل إيطاليا ، مما يحمل على الاعتقاد بأنه كان أكثر اشتغالا بتثبيت أخيه يوسف فى مملكته الجديدة عن مسائل الشمال ، فإن عينه كانت ساهرة ترقب البروسيين ، علماً منه بأن الحرب سوف تنشب بينه وبينهم ، وأنها إن نشبت يكن جيش أسترلتز مستعدا لخوضها . لذلك لما دنت الساعة قضى نابليون على عدوه بخطة تعتبر من أرقى الخطط فى فن الحرب ، وتفصيل تلك الخطة أن الجيش البروسى — الذى كان ينعم بشهرة لايستحقها — زحف إلى الأمام تحت إمرة قائده الهرم دوق برنسويك ، متبعاً شمال غابة ثورنجيا ، على أمل أن يقطع خط الرجعة على الجيش الفرنسى الزاحف من الرين ، أو يتجنب هجمته . كان من المحتمل أن ينتصر نابليون حتى ولو اتبع ذلك الطريق ، لأنه فاق خصمه فى العدد والمقدرة . غير أن مثل ذلك الانتصار كان عادياً وغير حاسم ، إذ يترتب عليه أن يرتد البروسيون إلى خطوط مواصلاتهم ، ومن ثم يحاربون حرباً دفاعية حتى

ينضم إليهم حلفاؤهم الروسيون . لكن نابليون أراد نصراً مبيناً حاسماً ، لا يقتصر على هزيمة البروسيين فحسب ، بل يشمل قطع خط الرجعة عليهم ، ثم القضاء على جيشهم . لذلك جمع جيوشه عند نهر مين ، وتقدم بسرعة فى اتجاه شمالى شرقى مخترقاً مسالك الغابة المكسوة بأشجار الصنوبر ، وسار نحو نهر سال ومعه ١٦٠,٠٠٠ مقاتل ، واثقاً من النجاح ، يحمل بين جنبيه احتقاراً لخصم بليد غافل . كان الجو صحواً ، والأرض مكسوة بالكلأ الصالح للرعى ، فلم يضل الطريق جندى واحد فى ذلك الجيش العرمرم الذى سار ثلاثين ميلا فى اليوم . وفى مساء ١٢ أكتوبر وصل داڤو[1] على رأس الجيش الثالث مدينة ناومبرج ، ففصل بذلك بين ملك بروسيا وحاضرة مملكته ، واستولى كذلك على مستودعات الذخائر البروسية . أفسدت هذه الأخبار المقلقلة على برنسويك خطته ، واضطرته إلى اقتراح تقهقر بروسى عام نحو الشمال ؛ لكن فات الوقت الذى يسمح بالإفلات من العاصفة التى كانت تندفع من الجنوب . ثم انقض نابليون — يوم ١٤ أكتوبر — بقوات متفوقة فى العدد على الجيوش البروسية الأمامية المرابطة عند ينا ، تحت قيادة هوهنلوهه (Hohenlohe) ، فانتصر انتصاراً حاسماً ؛ ويرجع الفضل الأكبر إلى داڤو الذى برهن عند التقائه بالجيش البروسى الرئيسى عند آورشتات

---

(١) تربى داڤو مع نابليون فى المدرسة الحربية ، واشتهر أثناء حروب الثورة . ورافق نابليون إلى مصر ، وكان له الفضل فى الانتصار فى موقعة أبى قير البرية .

(Auerstadt) ، أن فى مقدور جزء صغير من جيش أسترلتز أن ينتصر بدون نابليون ، ورغم مواجهة عدو متفوق عنه فى المشاة والخيالة والمدفعية .

أصبحت بروسيا تحت قدم نابليون هذه الضربة المزدوجة التى حدثت فى يوم واحد ، والتى أعقبتها مطاردة عنيفة . كتب نابليون قبل الواقعة بيومين إلى فردريك وليام الثالث ملك بروسيا خطاباً — فى قالب غريب من البلاغة الراقية التى ما كان أقدر نابليون على صوغها فى الساعات الخطيرة — حذره من الهزيمة المحققة ، ونصح إليه بطلب الصلح قبل فوات الفرصة . فلما أريقت الدماء ، وتهدم الجيش البروسى ، رفض نابليون أن يستمع لطلب الهدنة ، وعقد النية على إذلال البروسيين حتى لا يعارضوا أمره مرة أخرى . فحاصر جميع معاقلهم واستولى عليها ، وأقال مركز قيادة جيوشه فى عاصمتهم ، وفرض غرامة حربية باهظة على قوم كانوا فى الأصل مرهقين بالضرائب . بتلك الخطة الحاسمة ، « انتقم نابليون لهزيمة رسباخ [1] » أواسط القرن الثامن عشر الميلادى . ثم أصدر نابليون يوم ٢١ نوفمبر — من برلين — أول سلسلة المرسومات الشهيرة التى أعلنت أن الجزائر البريطانية فى حالة حصر ، وحرمت المتاجرة أو المراسلة معها .

---

(١) رسباخ بلدة صغيرة فى سكسونيا على نهر الألب ، وعندها هزم فردريك الأكبر ملك بروسيا القائد الفرنسى سوبيز (Soubise) ، سنة ١٧٥٧ م ، أى مدة حكم لويس الخامس عشر فى فرنسا .



نابليون يوم وقعة ينا

[متحف ڤرساى]

كان من المحتم أن يخوض نابليون غمار حرب أخرى ، قبل أن يجنى ثمار هذه الانتصارات الباهرة . والسبب فى ذلك أنه على الرغم من اضطرار بلوخر للتسليم عند لوبك ، بقى جزء صغير من الجيش البروسى لم يمسسه ضرر . فلو أن جيشاً بروسياً تقدم عن طريق بولندا لمعاونة ذلك الجيش الصغير ، لأمكن تعويض الهزيمة التى وقعت عند نهر سال . لذلك زحف نابليون إلى ڤارسو (Warsaw) ، وحاول أن يشتبك فى معركة حاسمة فى ديسمبر . لكن العدو نجا من الشباك التى طرحت على مدى واسع لاقتناصه ، وبرهنت الحركات الحربية التى قام بها نابليون — عند بلدتى بولتسك (Pultsk) وجولمن (Golymin) — على أن الخطة السريعة المدهشة التى اتبعت فى ألم لا يمكن تكرارها وسط شتاء بولندا القارس ، بين الأوحال البولندية . قضى الإمبراطور شهر يناير فى ڤارسو ، حيث هام بحب سيدة بولندية جميلة اسمها الكونتس ڤالڤسكا (Walweska) ، وهى التى أعقبت منه ولداً قدر له أن يصبح وزير الخارجية فى فرنسا زمن الإمبراطورية الثانية . غير أن الانغماس فى الملاهى لم يقلل من يقظته؛ فلما علم فى فبراير أن القائد الروسى بنجسن (Bennigsen) يزحف لرفع الحصار عن دانتزج ، أسرع شمالا حتى التحم بجيوشه ، وصارت الملحمة المضطربة التى وقعت عند بروسيش — أيلاو (Prussich-Eylau) ، والثلوج المتساقطة تعمى الأبصار ، مثلا من أمثلة الملاحم التى تؤيد نظرية تلستوى[١] القائلة : إن مقدرة

(١) الكونت تلستوى شاعر روسى كبير ، وهو كذلك روائى ومصلح اجتماعى=

القائد لا تهم كثيراً فى ا لحرب ، وإن النصر لا يأتى إلا من وجود فرق كثيرة العدد يصعب تحديد أوضاعها . وكان ذلك اليوم الذى اختلطت فيه الدماء بالثلوج ، كأول يقظة من كابوس محزن طافح بالمغامرات ، إذ وقف نابليون لعدوه ، وحاز النصر بعد أن خسر ٢٥,٠٠٠ رجل ، دون أن يتقدم خطوة واحدة فى سبيل الصلح الذى ينشده .

ثم أنفذ نابليون بخفة مدهشة سهاماً لامعة، كسهام البرق الخاطف بعضها تلو بعض، فى جو ملبد بغيوم تلك الحرب غير الحاسمة ، فاخترق بها شيئا من هذه الغيوم ، رغم اختلال النظام فى جيشه لقلة المئونة ، ورغم تهديد السويديين لمؤخرته ، وقرب أعدائه النمساويين من جناحيه . وتفصيل ما عمله نابليون أنه عقد مع السويديين هدنة ، وأعلن تمنياته السلمية للنمسا ، ثم فتح باب مفاوضات عقيمة مع خصميه الرئيسين . ولكى يخلق المتاعب للقيصر فى الوقت نفسه ، عقد نابليون معاهدة مع شاه العجم ، ونصح بشدة سلطان تركيا للقيام معه من جديد فى وجه عدوهما المشترك ، منبئاً أن الساعة اقتربت لنهضة الدولة العثمانية . ثم حرك نابليون — بدهائه المعروف — عاطفة القومية بين البولنديين إلى حد يكفى لخدمة أغراض فرنسا ، دون إثارة مخاوف النمسا . عند ذلك حدث أن

=ومتصوف دينى. تربى تولستوى فى موسكو ودخل جامعة قازان، وخدم سنة ١٨٥٥م فى حرب القرم المشهورة بين تركيا وإنجلترا وفرنسا وروسيا . بعد ذلك انسحب تولستوى من الجيش، وصار روائياً معروفاً ، وله مؤلفات كثيرة منها كتاب الحرب والسلام ، وفيه يصف وصفاً رائقاً تاريخ حملة نابليون على روسيا سنة ١٨١٢ م ، ودفاع الروسيين عن بلادهم .

ارتكب بنجسن — القائد الروسى — غلطة حربية فاحشة خلصت نابليون من مركزٍ حرجٍ ، معناه أن كل تأخير فى الحرب كان يضيف إلى هذا المركز الحرج خطراً جديداً . ذلك أن هناك رافداً صغيراً اسمه آل (Alle) يصب فى نهر برجل (Pregel) ، وهذا يصب فى البحر البلطى عند كونجزبرج (Konigsberg) . وعند أحد منعطفات آل تقع بلدة فريدلاند (Friedland) ، وفى ذلك المنعطف ، حيث النهر وراءه ، وبجيش صغير جداً ، وقع بنجسن فى مخالب نابليون ؛ وكان نصر الفرنسيين مبيناً لدرجة أن قيصر روسيا المنيعة اعتقد أن عرشه أمسى فى خطر جسيم .

فى ٨ يوليه سنة ١٨٠٧ م عقد صلح تلست (Tilsit) ، وهو تسوية تدل على الحال غير العادية بين الدول المتعاقدة ، لا على توافق مصالحها ؛ فمن المعلوم أن تحالفاً روسياً فرنسياً فى عصرنا الحالى ليس إلا نتيجة طبيعية لما صارت إليه ألمانيا من التماسك والقوة[1] ؛ وأن ذلك التحالف اشتد فعلا لمزاحمة فرنسا وروسيا معاً الإمبراطورية البريطانية. لكن عندما تقابل نابليون والقيصر على ظهر سفينة فى نهر نيمن (Niemen) ، كانت ألمانيا مجموعة من الحكومات الضعيفة المتطاحنة ، كان يفصل أطراف الأراضى الروسية فى آسيا عن المصانع الإنجليزية على مصبات نهر الكنج بالهند مساحات شاسعة من الأرض الجرداء . لذلك ارتبط

---

(١) هذه العبارة صحيحة طبعاً بخصوص ألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى ، ١٩١٤ — ١٩١٨ .

الروس والإنجليز بمصالح تجارية كبيرة ، خلافاً لما تكوّن بينهما أواخر القرن التاسع عشر الميلادى من العداء فى الشرق ، فكان معظم التجارة الروسيـــة الخارجية مع إنجلترا ، ولم يوجد تاجر فى العاصمة الروسية إلا وتصبح تجارته عرضة للأذى لو نقض التحالف الروسى الإنجليزى .

غير أن القيصر إسكندر اعتقد خطأ أن لا فائدة من القيام بشيء بعد فريدلاند . وكان فضلا عن ذلك متألماً من المعاونة الفاترة التى أدتها إليه حليفته إنجلترا أثناء الحرب السالفة . لذلك مال إلى قبول تحالف زيّنه له نابليون بكل ما عنده من تضليل ، وأزجاه له بمستقبل تفوق مزاياه بكثير حرمان طبقة الخاصة فى العاصمة الروسية من بعض أدوات الرفاهة الواردة من وراء البحار ؛ ذلك أنه ليس بين الأمانى التاريخية التى يتعلل بها الشعب الروسى — المتفانى فى خدمة الكنيسة الإغريقية — أمنية أعظم من استرداد الإمبراطورية البيزنطية ، من يد الأتراك العثمانيين. ولما لم يكن الإسكندر مجرداً عن الميول التى استولت على بعض عظماء أسلافه ، فإنه لما قال له نابليون إن تقسيم تركيا غرض سيسعى التحالف بينه وبين القيصر لتحقيقه ، نبذ الإسكندر كل شكوكه ظهريا ، ووقع فى الأحبولة .

كانت هناك معاهدة عامة وأخرى خاصة : اعترف الإسكندر بمقتضى المعاهدة الأولى بالتغييرات التى أحدثها نابليون ، أو اقتراح إجراءها فى مصور أوربا السياسى . وتفصيل ذلك أنه نزع من بروسيا مقاطعاتها

الغربية والشرقية ، وأقام مملكة جديدة وستفاليـــا (Westphalia) تحت إمرة أخيه چيروم من جهة ، ودوقية جديدة باسم ڤارسو تحت إمرة ملك سكسونيا من جهة أخرى . أما المعاهدة الخاصة ، فتضمنت أمورًا أهم مما تقدم : إذ عينت السياسة التى تتبع فى المستقبل إذا رفضت إنجلترا توسط روسيا بينها وبين نابليون ، أو رفضت تركيا توسط فرنسا بينها وبين روسيا . كان المتفق عليه — إذا وقعت المسألة الأولى — أن تنضم روسيا للحصار القارى ، وتعاون فوق ذلك فرنسا على إرغام الدنمارك والسويد والبرتغال والنمسا على محاربة التجارة الإنجليزية . وكان المتفق عليه فى المسألة الثانية ، أن يتقاسم نابليون والقيصر ممتلكات تركيا ، ما عدا القسطنطينية والروملى ؛ وكان ذلك الاستثناء حاشية تفسيرية فى صحيفة أطماع نابليون ، لأنه لما طلب الإسكندر العاصمة العثمانية قابله نابليون بالرفض البات قائلا : « القسطنطينية» ! ذلك محال ! هذا معناه السيادة على العالم » .

بدا نابليون أثناء المفاوضات فى أحسن حالاته النفسيه ، وكيف لا يكون كذلك بعد أن انتهت آلام الحرب ومخاوفها فى بولندا ، وأعقبتها ولائم وحفلات وصلح باهر ، أعلن بعدها أنه يحب القيصر ، إذ قال: « إنه إمبراطور ظريف طيب القلب ، يحمل رأساً أكبر مما يعتقد الناس» ؛ والحقيقة أن نابليون أحس بأنه حصل بالتحالف الروسى على الاتفاق والمعونة اللازمتين لتثبيت ملكه فى الغرب . أما ملكة بروسيا فأدخلت إلى قلبه السرور ، لاسيا وأنه رفض مطالبها رغم توسلاتها لديه . وكان



إنعام نابليون على جندى روسى بعد صلح تلست

[متحف ڤرساى]

من دواعي سروره بأن أصبحت بروسيا تحت قدميه ، مقطعة الأوصال ، خاوية الخزائن ، مثقلة بجيش احتلال فرنسي . وكان نابليون يرجو — بل ينتظر — أن تطأطئ إنجلترا الرأس أمام عظمة تلك الانتصارات ، وأن تقبل الشروط الروسية ، وتنزل عن فتوحها الاستعمارية ، وتصلح قوانينها البحرية . وفي تلك الحالة يصبح نابليون حرا في توجيه أطماعه نحو الشرق ؛ أما إذا تمادى الإنجليز في غيهم ، فمركزه سوف يمكنه من « التسلط على البحار بالحرب على الأرض » .

الفصل السابع

خصائص الإمبراطورية

بلغت إمبراطورية نابليون في هذه الآونة مبلغاً فاق أفكار وأماني الشعب الفرنسي ، مع أنها لم تكن وصلت إلى حدها الأقصى . قال تاليران يوماً للقيصر : « إن أقصى فتوح فرنسا هى نهر الرين وجبال الألب وجبال البرانس ، أما ما زاد عنها فمن فتوح نابليون » . والدليل على صحة هذه العبارة أنه على الرغم من استمرار الانتصارات الحربية التى أخرست النقاد، وأبقيت روح التفانى والحماسة فى الجيش الفرنسى، شعر الإمبراطور بالحقيقة الماثلة أمامه ، وهى أن الأمة ملت الحرب ، وأن كل انتصار جديد يلقى لدى الرأى العام حماسة أقل مما لقيه سابقه ، وأن الإمبراطورية العظيمة ترتكز على شخصية نابليون، لا على رضا الأمة. وآية ذلك أنه لما وصلت أنباء مارنجو إلى باريس فاق الاستغراق فى الفرح حد المعقول ، لكن بعد ذلك بست سنين لم تحرك أخبار وقعة ينا أحداً . كتبت مدام جونو (Madame Junot) ، التى عاشت بين الجنود، أن الجمهور الفرنسى لم يكن ميالا لحرب النمسا سنة ١٨٠٥م، مع أنه رغب فى حرب إنجلترا؛ وفى حين أن كل مشروعات الإمبراطور

فى القارة الأوروبية كان ينظر إليها بعين الملل أو الفزع ، كان روح الإقدام والتوسع فيما وراء البحار – وهو سر نمو الإمبراطورية البريطانية – معدوماً جملة من نفسية الشعب الفرنسى فى ذلك الوقت ، حتى إن الحملة على سان دمنجو لم تكن فى نظر الناس وسيلة لمعاقبة مستعمرة متمردة فحسب ، بل لتأديب الجمهوريين الفرنسيين أيضاً .

إذا ذكرنا ذلك التنافر بين المصلحة الوطنية الفرنسية وبين إيحاءات أطماع نابليون ، سهل علينا تعليل كثير من مميزات سياسته الإمبراطورية. أدرك الإمبراطور بذكائه وفطنته أنه إذا ألقى عبء المحافظة على ممتلكاته على عاتق فرنسا ، أدى ذلك إلى تقويض دعائم عرشه . لذا غدت القاعدة الأساسية فى سياسة نابليون أن لا ترهق جيوب الشعب الفرنسى بقدر الإمكان ، وأن تتحمل الدول الأجنبية التى تحت يده نفقات ما تتطلبه أطماعه . لا ريب أن فرنسا تحملت بعض أعباء مالية فوق أعبائها السابقة ، وأن دافع الضرائب بدأ يحس بمتاعب الحرب من طريق غير مباشر ، حين ارتفعت أثمان النبيذ والملح والتبغ . لكن ما دامت الأمة طليقة من أى ضريبة مباشرة جديدة ، ومن تدهور نقودها ، فإن آلام الحرب تظل بعيدة عن عقول البعيدين عن ميدان القتال . لذلك لم يفرض نابليون ضريبة على الدخل ، ولم يسمح بإصدار ورق نقدى ؛ وعوض أصحاب المصانع والمتاجر – الذين هم على وجه العموم أشد الطبقات تأثراً بمتاعب الحرب – بنظام يجعل أسواق هولندا وألمانيا وإيطاليا مفتوحة للتجارة الفرنسية ، بدون تخفيض التعريفات الداخلية

من أجل أتباع الإمبراطورية الجدد . نتج عن كل ما تقدم فى السياسة المالية أن لم يشعر بالأزمة الاقتصادية أغنى أعضاء الإمبراطورية وأعظمها مدنية، أى فرنسا، بل توابعها الفقيرة. ومعنى ذلك أن فرنسا نفسها نجت، على حين أن نصف أراضى الأقاليم الإيطالية والألمانية والهولندية التابعة لنابليون كانت مخصصة باستمرار للوازم الإمبراطورية ، فضلا عن أن سكان تلك الأقاليم كان مفروضاً عليهم غرامة دائمة ذات ثلاث شعب : وهى المعونات الحربية ، وإيواء الجنود الفرنسية المرابطة ببلادهم، وضرورة تكوين وإعداد فرق محلية للاندماج فى الجيش الأعظم .

حاول نابليون أن يخلق فى فرنسا شعوراً إمبراطوريا بوسائل تدل على امتزاج الرفعة والخسة فى نفسه ، وهو الامتزاج الذى نجده فى حديثه وأخلاقه . مثل ذلك أنه لام القائد مارمون — عند انتهاء الحرب الإيطالية الأولى — لإهماله تجميع ثروة لنفسه ، كما فعل مسينا ، وكثير من الضباط الذين ظفروا بثروة طائلة من أسلاب وغنائم إيطاليا ، ثم كان من دواعى سروره أن يكون لقادته مغانم فى الدول التى تدين له، بفضل حروبهم وشجاعتهم . ولما توطدت دعائم الإمبراطورية ، طبق نابليون ذلك المبدأ بأوسع معانيه ، فجعل من أقاليم البندقية وإستريا ودلماشيا التى انتزعها من النمسا ضيعات أنعم بها على بعض الدوقات والأمراء . وبذلك أصبحت أخطر أطراف الإمبراطورية الفرنسية فى حراسة مجموعة من الأسرات الحربية الكفيلة بحمايتها نظير مصالحها المالية ، كما كانت الحال أيام المعاهدين فى الدولة الرومانية فى القرن الخامس الميلادى.

وكانت هذه الأموال الطائلة التى دخلت جيوب هؤلاء الحراس – لا من الخزينة الفرنسية بل من ريع أرض توابع الإمبراطورية – تمنح كافة الأسرات الحربية ، لتحبب الإمبراطورية إليهم . أما مصالح الجندى العادى فكان منظوراً إليها دون ذلك الاهتمام ، حتى إن أبطال ينا وفريدلاند دُفعت لهم من مؤخر رواتبهم نقود انحطت أربعين فى المائة من قيمتها .

كان لإنشاء طبقة أعيان جديدة ، ذات ثروة طائلة وعقار ثابت ينتقل بالإرث ، خروجاً واضحاً على مبدأ الثورة القائل بالمساواة الاجتماعية ، وهو خروج أكبر أهمية من إنشاء نشان الليجيون دونور . ولكن نابليون دافع عن خطته بقوله إن الألقاب لم يصحبها أى امتياز سياسى ، وإن أحداً لا يستطيع أن يتهمه بالسعى لتكوين طبقة أعيان . والحقيقة أنه أراد أن يحوط أسرته بدائرة من الأسرات ذات الجاه والثروة ، تحمى ضيعاتها امتيازات قانونية ، فتصبح كلها معاً جزائر زراعية كبيرة ، وسط محيط المزارع الصغيرة التى يمتلكها الفلاحون .

ومما أنشأ نابليون فى هذه السنوات كذلك توحيد التعليم جرياً وراء الغاية الأصلية التى توخاها دائماً ، وهى تقوية الوحدة الإمبراطورية . من الطبعى أن يكون إنشاء هيئة واحدة تشمل جميع فروع التعليم العام ، – من معلم القرية إلى أستاذ الجامعة – وتسير مسترشدة بمبادئ أساسها تدريب العقول على نمط واحد ، نقول من الطبيعى أن تلقى هذه الفكرة استحساناً عند الذين يؤمنون بأن غاية الحكومة يجب أن تكون منطبعة

فى أعماق مواطنيها . ولما كان نابليون لا يعتقد فى الحياة البشرية التى لا تستند إلى نظام مطاع ، فإنه أعجب بأعمال الهيئات الكاثوليكية فى غرس خلق الطاعة العمياء . وكتب نابليون فى ١٥ فبراير سنة ١٨٠٥ م فى ذلك الصدد قال : « لا يمكن الثبات على حال سياسية إذا لم تدعمها مبادئ معينة يتبعها المعلمون . وطالما جهل الأطفال ما إذا كان واجباً عليهم أن يكونوا جمهوريين أو ملكيين ، كاثوليكيين أو ملحدين ، فإن الحكومة تبقى عاجزة عن تكوين أمة ». لذلك قر رأيه على تربية نشء فرنسا على الصفات العسكرية الدينية التى تحترم الغير ، محتذياً فى ذلك حذو الإسبارطيين واليسوعيين . ولذلك كان طراز المدرسة الثانوية التى اختارها يجمع بين حياة الأديرة والمعسكرات ، ومعلموها من العزاب ، ونظامها عسكرى ، وديانتها أن الإمبراطور أداة قوة الله وظله على الأرض . وغدت هذه المدارس الثانوية تابعة لمجلس الجامعة الفرنسية ، وهو بدوره مجلس تابع للحكومة ، بخلاف إنجلترا حيث تعتمد الجامعات القديمة والمدارس على هبات وأحباس موقوفة عليها ، ولا تجد ذلك التضييق المتعب الذى يترتب على مراقبة الحكومة ، فحافظت بفضل حرية نظمها على تقاليد معتبرة محترمة . أما الجامعة الفرنسية التى أنشأها نابليون ، فبقيت ثلاثة أجيال بعد سقوط الإمبراطورية ، تعرضت أثنائها إلى مختلف الانتقادات التى تثيرها عادة كل محاولة غرضها احتكار التعليم ؛ إذ المساواة العقلية التامة بين أربعين مليوناً من الأوربيين يستحيل تحقيقها ، وهى مع ذلك غير مرغوب فيها .

ولما كان نابليون لم يعمل شيئاً للمدارس الابتدائية ، فإن سواد الأمة لم يتأثر بنظام المدارس الثانوية والجامعة .

ورغم كل ذلك أصبح أثراً خالداً ذلك القسم من أعمال نابليون الذى تناول تنظيم فرنسا ، إذ بنى نابليون فى ذلك القسم من أعماله على أساس الطبائع الفرنسية الموروثة ، وسار فى الاتجاه الذى امتاز به تاريخ فرنسا ، وهو التفاف الأقاليم الفرنسية حول مركز واحد ، كما خضع للنبوغ المنظم الذى امتازت به الشعوب اللاتينية . أما الإمبراطورية نفسها فكانت نسيجاً أقل متانة ، لأنها مع تقويتها للعناصر الكامنة فى الشعور القومى ، كما حصل فى إيطاليا ، لم تخرج عن كونها نتيجة فجائية للحرب ، أو على قول نابليون « نتيجة الانتصار على إنجلترا » . ثم إن حدودها كانت دائماً فى تغيير وتعديل ، كأن مصور أوربا منظار أشكال ، تقلبه يد عابثة كثيرة الأهواء ، فمثلا بدأت هولندا أولا جمهورية تابعة ، وثانياً ملكية تابعة ، وأخيراً صارت ولاية لفرنسا ، تسام الخسف منذ أظهر ملكها لويس بونابرت فتوراً فى تطبيق قوانين الحصار القارى تماماً ؛ وكان من شأن ذلك التقلب أن يزعج عمال الإمبراطور فى البلدان الأجنبية ، لأن الحكومة تعتمد دائماً على بقاء جزء على الأقل من أركانها وطيداً على مر الأيام . لكن من أين يأتى ذلك وسياسة نابليون كالرمل المتقلب : فمن ذلك أنه قصد بدستور وستفاليا[1]

---

(١) وستفاليا هى المملكة التى كونها نابليون من بعض الأقاليم التى انتزعها من بروسيا غربى نهر الإلب . بمقتضى معاهدة تلست ، وولى عليها أخاه چيروم .

ـ وهو أعظم الدساتير الإقليمية الألمانية وقتذاك ـ أن يكون نموذجاً لأقاليم ألمانيا كلها ؛ وهو فى الواقع منبع الفخر لدى شعوب هسّى وبرنزويك وبروسيا التى كونت هذه الدولة غير المتجانسة . ولكن ما الضمانات التى تكفل ألا يكون نصيب دستور وستفاليا مثل نصيب الدستور الإيطالى، وهو الدستور الذى انهار أمام أول رائحة للمعارضة ضد سياسة الإمبراطور ؟ وما الضمانات التى تكفل ألا يطلع النهار على الوستفاليين بمرسوم إمبراطورى يعتبرهم فرنسيين، ويمحو مملكتهم الدستورية من عالم الوجود، ويعتبر عاصمتهم كاسل (Cassel) ثالثة مدائن الإمبراطورية أو رابعتها ، لا عاصمة لمملكة مستقلة .

كثيراً ما كان نابليون يسمى دولته اتحاداً دوليا ، فإذا اعتبرنا المعنى العلمى لهذه التسمية وجب أن يكون هناك تقسيم للسيادة بين حكومة الاتحاد ، وحكومات الولايات ، أو الأقاليم المكون منها ذلك الاتحاد . وإذن تكون حكومة الاتحاد ذات سيادة فى حدود أغراض معينة ، وتكون حكومات الأقاليم ذات سيادة فى حدود أغراض معينة أخرى . وهناك أيضاً تخصيص فى الواجبات وتوزيع فى الحقوق ، وحدود معينة مضمونة ضد الاعتداء من أحد الجانبين : إذ أن روح الحكومة الاتحادية تقوم على أن هناك شعوباً تمتاز بصفات خاصة ، وتدين بتقاليد ومصالح معينة ، تتحد لمصلحة مشتركة ، وتتعاهد على مبادئ دقيقة قوامها التراضى المتبادل ، حتى يوفق بين المصالح الخاصة من جهة ، والمصلحة العامة من جهة أخرى ؛ ثم إن أهم مظهر يمتاز

به أى اتحاد هو التوزيع الدقيق بين أقاليمه وولاياته فى الأعباء المالية . خلت الإمبراطوربة النابليونية من كل شيء من ذلك ، فلم يكن فيها مشاطرة فى السيادة ، ولا تحديد للأعمال ، ولا تقسيم عادل فى مسئوليات السلم والحرب ، ولا توزيع دقيق فى الأعباء المالية . وبالاختصار لم يكن هناك دستور ؛ بل بدت الإمبراطورية أشبه شيء بدوائر ثلاث ذات مركز واحد ، أولها فرنسا والولايات الملحقة بها ؛ وثانيها التوابع الألمانية والإيطالية التى كونها نابليون ، وهى وستفاليا وبرج ومملكة إيطاليا ؛ وثالثها الدول ذات الاستقلال الداخلى ، مثل باڤاريا وفرتمبرج التى كان عليها بمقتضى شروط اتحاد الرين أن تمد الجيش الأعظم بفرق من عندها . لا يلام نابليون — أكثر مما تلام الإمبراطورية البريطانية على النظام المفكك القائمة عليه حالا — من أجل عدم وجود هيئة تشريعية واحدة تربط هذه الممتلكات الواسعة . كلاهما ملوم إذا توخينا فى المقارنة الحرف وتركنا المعنى ، فإن الإمبراطورية البريطانية تربطها المصلحة المشتركة والميول المتجانسة ، على حين أن التماسك الذى ربط أختها الفرنسية ، اتصف بالتفكك والصرامه معاً فى آن واحد ، لارتكازه على إرادة مستبد ، وارتكانه على قوة جيش من جندية إجبارية مختلفة الأجناس .

كانت الوظائف الكبرى التى تطلبتها الحكومة الإمبراطورية مفتوحة للأفراد من أهالى الأقاليم التى اندمجت فى الإمبراطورية ، ولذا وفدت على باريس فئـــات من البلجيك وهولندا وبيدمنت وجنوا وتسكانيا وروما لعضوية مجلس الشيوخ ، أو الهيئة التشريعية ، أو

مجلس الدولة . لم يغب عن نابليون أن هذه الفرص سوف تساعده على إيجاد روح إمبراطورى ، وسوف تروض رعاياه الجدد على قبول النظام الإنشائى الشامل المتبع فى معالجة الأمور العامة ، والذى سار بمقتضاه الكفاة من أعضاء مجلس الدولة ، بفضل ما أظهره نابليون من خلق متين وفكر ثاقب . ومن البدهى أن الشعب إذا ريض على صحافة حرة ، وهيئة نيابية عاملة كما هى الحال فى إنجلترا ، فليست الهيئات التنفيذية المثل الأعلى فى سبيل المصلحة العامة ؛ لأنها عادة تكون من الطاعنين فى السن ، وتسير على نهج واحد ممل . وضع نابليون مشروعاً لمحاربة هذا النقص الكامن الناتج عن تعيين أعضاء مجلس الدولة ، فأمر بأن يحضر مناقشات المجلس عدد من الشبان ، ينتخبون من كل أجزاء الإمبراطورية من الأذكياء المتحمسين الأغنياء . وعقد الآمال على تكوين الهيئة التنفيذية الإمبراطورية فى المستقبل من هؤلاء المستمعين كما سماهم .

يلاحظ بين الدولتين النابليونية والرومانية أوجه شبه ، إن لم تكن دقيقة ، فهى أكبر ما وعاه التاريخ السياسى ، فالحكم المطلق والمركزية ، والجزية وفرق الجنود الأجنبية ، وامتلاء كل من العاصمتين الإمبراطوريتين بأسلاب العالم المتمدين أيام كل منهما — تلك هى أوجه الشبه الظاهرة المعروفة . ولا جدال فى ذلك ، إذ كتب سويتونيوس [1] عن يوليوس

---

(١) سويتونيوس كاتب رومانى عاصر الأباطرة دوميشيان وتراجان وهادريان ، وأهم كتبه تاريخ حياة الاثنى عشر قيصر الأولين .

قيصر قال : « إنه حلّ كل الجمعيات التى كانت مبنية على التقاليد القديمة » . وتتضح روح الغيرة هذه التى أملت سياسة يوليوس قيصر — ومن خلفه من القياصرة ، نحو البلديات الحرة ، فى قانون الثورة الفرنسية وقانون نابليون . غير أن الولايات على عهد الإمبراطورية الرومانية الأولى تمتعت بنصيب من الحرية الداخلية ، لم تتمتع به أى ولاية فرنسية أو قطر تابع للإمبراطورية على عهد نابليون؛ ولا شك أن نظم الحكم الرومانى أيام دقلديانوس — ومن جاءوا بعده — لم تبلغ فى الدقة وتوخى الاقتصاد والتأثير ما بلغه النظم التى أقامها نابليون فى إمبراطوريته الأوربية . ومع هــــذا لا يستطيع المؤرخ إلا أن يرى بعض أوجه الشبه بين إقامة ولايات على الأطراف الرومانية وإقامة الولايات الكاتالونية والإليرية والبولندية ، حول أطراف الإمبراطورية النابليونية فى القرن التاسع عشر الميلادى . كما أن هناك تشابهاً غريباً من الوجهه الدينية ، رغم التقدم العظيم فى الحياة الدينية فى العالم . ذلك أن تقديس روما وأغسطس قيصر يمكن مقارنته بالتعاليم الإمبراطورية التى صاغها نابليون، لرفع مركز الإمبراطورية وشخص الجالس على أريكتها إلى مصاف الآلهة . وكما كانت الحكومات الرومانية تقدم القرابين الخاصة ، فى معبد أورشليم ، احتراماً لديانة اليهود ، فإن نابليون اعتنق ديانة القرآن فى مصر ، وأرجع الديانة الكاثوليكية إلى فرنسا . ولما رأى نفسه يوماً وسط مجمع من علماء الدين فى هولندا أعلن أنه على وشك اعتناق المذهب البروتستنتى ، وأنه بذلك سيتبعه إلى معتنقه الجديد ثلاثون أو أربعون

مليوناً من الناس . فالسياسة الدينية فى الإمبراطوريتين إذن امتــازت قبل كل شىء بتسامح شامل نحو المعتقدات التى لا تتضارب مع النظام الاجتماعى ، ولا تؤثر فى الطاعة السياسية الواجبة للحكومة . لكن نظر نابليون فى الأمور الدينية بدا أبعد مدى من نظر القياصرة الوثنيين ، وأكثر تساهلا من القياصرة المسيحيين . والسبب فى ذلك أن العواطف الدينية الأوربية أصبحت على جانب من الأهمية ، لا يمكن معها أن تحتقر أو تهمل ، فضلا عما بها من الاختلافات الجامدة فى إقامة شعائرها ، مما لا يسمح بأى اضطهاد أو تفضيل مذهب على آخر . ولذا نهجت الإمبراطورية الفرنسية سياسة التأسيس والتنظيم ، بلا تحيز لفريق دون الآخر . فوضعت النظم للإسرائيلى والبروتستنتى والكاثوليكى ، واعتبرت أبناء هذه المذاهب مواطنين متساوين فى نظر الإمبراطورية ، وعليهم حمل أعبائها على السواء . ثم لم يكن نابليون مبشراً دينياً مثل بوليان[١] الصابئ أو شالمان ، بل كان محايداً ، لا مع هؤلاء ولا هؤلاء ، مثل بونتيوس بيلات[٢] فالديانة فى نظره مصل نافع ضد الاضطرابات الاجتماعية ؛ وغرضه الأصلى كسر شوكة الخلافات الدينية ، وتقليل حدة المناقشات

---

(١) يوليان الصابىء إمبراطور الدولة الرومانية ، من ٣٦١ — ٣٦٣ ميلادية . ويلقب بهذا اللقب لأنه نشأ على الديانة المسيحية ، ثم أعلن ارتداده عنها إلى الوثنية عند اعتلائه العرش .

(٢) بونتيوس بيلات هو الوالى الرومانى الخامس فى فلسطين ، ووافقت ولايته زمن المسيح عليه السلام ، وكان بونتيوس معتقداً شخصياً ببراءة المسيح مما نسب إليه من التهم ، وحاول إنقاذه أثناء المحاكمة ، لكنه أمر أخيراً بصلبه إرضاء للشعور اليهودى فى أورشليم .

اللاهوتية ، وإقامه حد يفصل بين الوظائف الدينية والدنيوية ، وهاله التنافر الذى رآه عند زيارته هولندا للمرة الأولى ، فخاطب طائفة الجانسنت [1] قال : « إذا كنتم ضد البابا ، فضموا صفوفكم إلى صفوف البروتستنت . أما إذا كنتم تعترفون بسلطته ، فواجب عليكم احترام قراراته». ولا شك أنه لم يكن من اختصاص طائفة من صغار العلماء الهولنديين أن يقيدوا سلطة ممثل المسيح فى الأرض ، فهذه الوظيفة اختص بها وحده إمبراطور الفرنسيين الذى أصبح المصدر الأكبر للسلطة المدنية فى الدول المسيحية اللاتينية .

أحيت أيام معركة مارنجو فى عقول الفرنسيين ذكريات أيام شارلمان الذى ردد نابليون اسمه كثيراً فى مراسلاته ، وروى كثير من الإنجليز الذين زاروا باريس أثناء عقد صلح أميان أن الاعتقاد العام فى فرنسا لم يستبعد احتمال اتخاذ القنصل الأول لنفسه لقب إمبراطور الغاليين . فإذا كان ذلك موضع حديث أهل باريس ومتجه شعورهم ، سهل علينا فهم التأثير الخفى الذى جعل من شارلمان — بطل الفرنجة — مثلا أعلى لنابليون . وظهر كثير من دلائل ذلك الشعور على الإمبراطورية

(١) الجانسنت شعبة دينية تنتمى إلى كورنيليوس جانسن (Cornelius Jansen) أستاذ اللاهوت فى جامعة لوفان (Louvain) سنة ١٦٣٠ م ، وله كتاب هو أصل لحركة جدلية واسعة فى هولندا : ذلك أن جانسن حاول أن يبرهن فى كتابه أن تعاليم المسيح بخصوص التبرك وحرية الإرادة والقضاء والقدر مخالفة لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية الحديثة ، ولا سيما اليسوعيين ، وتبع مذهبه كثير من أهالى أترخت ، وأطلق عليهم اسم (Oude Romsche) أى المتمذهبين بالكاثوليكية القديمة .

الفرنسية : ذلك أن الحاكم الذى يسيطر على فرنسا وبلجيكا وألمانيا والأطراف الإسبانية المتاخمة لجبال البرانس ، ويفتتح عهد إمبراطوريته باتفاق مع بابا روما ، ويولى نفسه ملكاً على لمبارديا ، ويضع تاجها الحديدى على رأسه ، ويعطى إقطاعات حربية لتوابعه ، ويجمع مجلساً دينياً ، ويعتبر نفسه الرئيس المدنى للكنيسة الكاثوليكة فى غرب أوربا ، ويسير على رأس جيش جرار مختلف الأجناس من جميع أنحاء إمبراطوريته ليهاجم الإمبراطورية المتبربرة الخارجة عن الدين التابعة لقيصر روسيا[١] ، أليس ذلك الحاكم شارلمان الجديد ؟ اقترح المؤرخون لنابليون أشباها أخرى اقتبسوها من تاريخ القرون الوسطى ؛ فاعتبره تين[٢] مثل الكوندوتيرى[٣] الإيطاليين ؛ وقال ماسون[٤] — وهو الذى يذهب فى الإعجاب بنابليون فوق كل حد — إن اليسوعيين والرهبان الذين نصروا البابوية فى العصور الوسطى هم أصول بونابرتية طُردت من إيطاليا — كما طُرد دانتى[٥] من فلورنسا — لميولها الجبللينية[٦].

---

(١) يقصد المؤلف هنا التهكم على نابليون لمحاربته روسيا واعتقاده إمكان هزيمتها ، كما سيبين فى مكانه بالتفصيل فى الفصل التاسع .

(٢) هنرى تين (Henri Taine) كاتب فرنسى ناقد ، وله مؤلفات عدة فى الأدب والتاريخ ، وأهمها ما كتب عن الثورة الفرنسية .

(٣) الكوندوتيرى (Condottiere) كلمة إيطالية ، معناها زعماء المرتزقة فى إيطاليا فى العصور الوسطى ، إذ قاموا بالخدمات الحربية لمن يدفع لهم أجراً مناسباً .

(٤) ماسون مؤرخ فرنسى (١٨٤٧ — ١٩٢٣ م) وله مؤلفات كثيرة أهمها مجموعة الوثائق الخاصة بنابليون وأسرته .

(٥) دانتى فخر الأمة الإيطالية ، ولد سنة ١٢٦٥ ميلادية فى فلورنسا ، واشترك فى الحروب التى قامت بين أحزاب الجيللينيين والجولفبيين فى إيطاليا ، وخدم الحزب =

لم تكن إمبراطورية إنابليون رومانية ، ولا كإمبراطوريات العصور الوسطى ، بل كانت حديثة جدًّا من وجهة واحدة ، وهى أن نابليون بَرَعَ فى الاقتصاد ، فلا ولنجتن ولا پت ، ولا جلادستون ، أمكنهم أن يبلغوا مبلغه فى تلك الميزة القائمة على التوفير الشديد المستمر بلا رحمة ، وهم — كما نعلم — أحرص ما يكون على الوقت والمال . عاش نابليون مقتصداً فى ملبسه ، معتدلا فى مأكله ومشربه ، بخيلا بوقته ، محتقراً لأنواع المسرات ، مدققاً بكل ما أوتى من حرص على كل فرنك يصرف فى المسائل العامة . ويخيل إلينا أن التاريخ لا يذكر حكومة عظيمة — غير إمبراطورية نابليون — تعمدت سياستها قطع كل المصروفات الكمالية ، ومحاسبة الموظفين باستمرار على كل صغير ، حتى تعذر على أى هيئة بلدية أن تقوم بأى تجربة من تلقاء نفسها

=الجبليني. ثم نفى دانتى عن إيطاليا سنة ١٣٠٢م، وبقى يتنقل بين البلاد عشرين سنة ، ومات سنة ١٣٢١ .

ودانتى أول كاتب ظهر من غير رجال الكنيسة ، وأول من كتب بالطليانية الحديثة ، لا باللاتينية . وأشهر ما كتبه كتاب الكوميديا الإلهية ، وموضوعه زيارة خيالية للجنة والجحيم وما بينهما ، حادث دانتى أثناءها سكان تلك الأقاليم من رجال الأدب والعلم القدماء ، وذكر كثيراً من شعراء الرومان والإغريق الوثنيين بالإعجاب ، وإن لم تسمح له أفكاره الدينية بأن يجعل مثواهم الجنة ، أما غرض كتاب الكوميديا الإلهية كله فهو الدفاع عن نظرية الإمبراطورية .

(٦) كان الجبلليتيون فى إيطاليا فى العصور الوسطى حزب الإمبراطورية ، أما الجويلفيون فكانوا حزب البابوية .

لاستثمار مواردها . والدليل على صحة ذلك ما كتب نابليون عقب انقلاب برومير مباشرة ، يرسم لأخيه لوشيان وزير الداخلية وقتذاك ، ما يجب اتباعه فى إدارة البلديات فى فرنسا . وضرب نابليون فى تلك المذكرة المعتبرة من أعظم الأوراق الرسمية الخاصة بذلك العصر على النغمة التى ضربها هو باستمرار فى سياسته الداخلية ، إذ وصف البلديات الفرنسية — البالغة ستاً وثلاثين ألفاً — بأنها وريثة النظام الإقطاعى فى العصور الوسطى ، حررتها الثورة الفرنسية من نير النبلاء والقساوسة ، وأصبحت بذلك ذات شخصية شرعية . ثم ذكر ما حل بها على يد رجال حكومة الإدارة الذين أتلفوها وسلبوها حتى صارت مثقلة بالديون ، غير قادرة على التصرف بحكمة فى حرياتها ومواردها الجديدة . وختم مذكرته بأن المسألة الهامة فى حكومة فرنسا الداخلية هى السير بتلك الهيئات الواهنة السقيمة إلى حالة مالية ثابتة ، ورسم الطريق المؤدية إلى تحقيق ذلك ، وبين الخطوات التى يجب اتباعها بالتتالى . الخطوة الأولى أن تعمل قائمة بالستة والثلاثون ألف بلدية ، تقسم إلى تسعة أنواع ، حتى إذا ما أحصيت البلديات المستدينة ، وعرفت مقادير ديونها ، وجهت الحكومة كل مجهودها إلى إنقاذها . الخطوة الثانية أن يزور حاكم المقاطعة البلديات الداخلة ضمن دائرة نفوذه مرتين فى السنة ، ليتفقد أحوالها ، وأن يقوم وكيله بمثل ذلك أربع مرات فى السنة وإلا فصل من وظيفته . أما العمدة الذى لا يتعاون مع الحاكم فى العمل فيفصل فى الحال ، والذى يمتاز عن أقرانه فى خطة الاقتصاد

يكافأ بزيارة باريس ، ويحظى بمقابلة القناصل[١] ، ويقام عمود تذكارى فى القرية أو المدينة التى نجح فى رفع الديون عنها . بذلك نال نابليون غرضه ، وأقام نظاماً اقتصادياً دقيقاً طبّقه – بلا فارق بين قرية ومدينة فى فرنسا – بواسطة وزارة الداخلية ، ونجح به فى تخفيف ديون البلديات تخفيفاً محسوساً . غير أننا كلما ذكرنا هذه الأعمال المالية والانتصارات الحربية التى قامت بها الإمبراطورية ، وجب أن نذكر كذلك أن للمجن ظهراً . الواقع أنه لو أتيح لنا زيارة أيه مدينة من أمهات مدن فرنسا بين ١٨٠٨ و ١٨١٥ م ، لوجدنا المعلمين ورجال الدين يعيشون عيشة ضيق بمرتبات جد ضئيلة ، ولرأينا المدارس خالية من التلاميذ ، والمستشفيات العمومية مفتقرة إلى المرضات والأدوات الطبية ، ولشاهدنا الصناعات كاسدة ، والحكومة تاركة الحبل على الغارب ، فضلا عن فقدانها كل عناية بالإصلاح . ذلك أنه ليس من العقل – ولا من الحكمة – فى المسائل المالية أن يسن الحاكم قانوناً غير قابل للتغيير ، على قاعدة أن ضرائب الحكومة فى كل بلد من البلاد الفرنسية خمسة عشر سنتيما على كل ساكن . من السكان مهما اختلفت الطاقات المالية . لا يمكننا الخوض فى هذا الموضوع إلى أكثر من أن نقول إن المالية – ككل الأعمال البشرية الأخرى – تخسر كثيراً إذا طبقت عليها

---

(١) يراعى أن نابليون طبق هذا النظام بعد أن أصبح قنصلا ، أى أن النظام نفسه قام فى فرنسا منذ أيام القنصلية .

القواعد الآلية . غير أن مثل هذه القواعد تشاهد دائماً فى كل النظم التى ترمى إلى ضرورة الاقتصاد فى إمبراطورية مركزية عظيمة ؛ ولما كان من المحتم أن تعتبر تلك الحكومة وأشباهها الأفراد كالأرقام، فلا غرابة أن تعتقد أن الحياة نفسها ليست إلا مسألة حسابية .

الفصل الثامن

الصدمة الأولى

تسبب عن محاولة نابليون تعميم الحصار القارى أن اصطدم بأكبر قوتين فى المدنية الأوربية وهما الكنيسة الكاثوليكية والروح القومى . ذلك أنه اعتقد أن وجود الدولة البابوية مدعاة للخلل فى المسائل الأوربية، على رغم اعتقاد الكاثوليكيين أن وجودها ضرورى ، لضمان استقلال البابا فى المسائل الدينية . أغضى نابليون عن ذلك الخلل المزعوم أثناء الاتفاقية السياسية التى عملت سنة ١٧٩٧م ، وظل البابا الحاكم السياسى على إمارة ممتدة فى عرض إيطاليا[١] من تراتشينا (Terracina) إلى ريمينى (Rimini) ، وذلك بعد أن قبل البابا هذه الاتفاقية وأتى إلى باريس لتبريك حفلة التتويج الإمبراطورى . كان خليقاً بأى سياسى رصين حازم أن يصبر على تلك الحالة ، مهما تعرض فى سبيله من المتاعب السياسية ، لأن قوة البابا لم تأت من الحكومة الضعيفة القائمة فى إمارته الصغيرة الفقيرة فى إيطاليا ، بل من مقدرته على إثارة ضمائر الكاثوليكيين فى أوربا قاطبة . غير أن نابليون لم يكن رصيناً

---

(١) انظر مصور رقم ٣ ، إيطاليا .

ولا حازماً بعد أسترلتز ، فما شعر بأنه يقوم بدور شارلمان فى أوربا حتى أعلن أنه حاكم روما ، وأن البابا تابع من توابع إمبراطوريته، معتقداً أن من السهل ومن السياسة صدع إمارة فقيرة فى الموارد المادية ، بارعة فى المخاتلة . ثم وجد نابليون من امتناع البابا بيوس السابع عن الاشتراك فى حرب هجومية ضد إنجلترا ذريعة كافية لالتهام إمارته ، غير أن إدماج روما رسمياً فى نظام الإمبراطورية الفرنسية — مايو سنة ١٨٠٩ م — حمل البـــابا على نشر مرسوم بحرمان سالب الكنيسة من رحمتها . فأجاب نابليون على ذلك بفعلة وحشية شنيعة ، حرض على تنفيذها ، ثم أنكر اشتراكه فيها ، ثم ما لبث أن دافع عن ارتكابها . تلك الفعلة هى القبض تحت جنح الليل فى قصر كويرينال (Quirinal) فى روما على الشيخ الوقور الذى تجرأ على مخالفة الإمبراطور الفرنسى ، وإرساله مخفوراً بالجنود إلى سجن فى بلدة ساڤونا قرب جنوا .

يلاحظ هنا أن فكرة نابليون عن الإمارة البابوية كانت على طرفى نقيض مع الآراء والعقائد التى لقيت عطف الناس بعد سقوطه . ذلك أنه اعتبرها ولاية من ولايات الإمبراطورية ، يمكن حكمها بلا قلق ولا تعب من باريس ، وأن البابوية نفسها لا تزيد على أنها أكبر أسقفية ، وأن من السخف أن يكون معظم أعضاء جمعية الكرادلة من الإيطاليين ، حتى إنه اقترح أن يكون لكل دولة كاثوليكية كرادلة من بين أبنائها بنسبة عدد سكانها . ثم أعلن نابليون أن من اختصاصه دعوة المجالس الدينية ، ودفع مرتب البابا ، وتأييده الأعمال الدينية فى

الكنيسة الكاثوليكية بنفوذه السياسى . وعلى ذلك نقلت سجلات البلاط البابوى إلى باريس ، ودار على الألسنة احتمال تأسيس بطريركية ألمانيا مستقلة عن روما . وفى الحقيقة لو طال أجل الإمبراطورية عشر سنوات أخرى ، لاضطرت الطوائف الكاثوليكية فى أمريكا إلى قطع علاقاتها مع كنيسة غيرت معالمها ، وامتهنت إلى ذلك الحد .

وبينما يبلغ النزاع أشده ، وبينما يصب كل قس كاثوليكى جام لعناته على رأس نابليون ، بدأ نابليون يستولى على أكبر الأمم كثلكة . ذلك أنه رأى — لضرورة تعميم الحصار القارى — أن يطبق النظام الفرنسى على شبه جزيرة أيبيريا . ولا سيما مملكة البرتغال . فلم يكد يتم الصلح مع روسيا حتى بدأ يهيئ الأسباب للسيطرة على بلاط لشبونة ؛ ثم أدرف بذلك المشروع مشروعاً أكبر قدراً وأكثر خطراً ، نحو مملكة إسبانيا وحكومتها الفاسدة الممقوتة ، مع العلم بأن هذه الحكومة استكانت إلى أبعد مدى فى خدمة مصالح نابليون ، وأمدته بمعونات مالية وسفن حربية ، وأعلنت الحرب على إنجلترا طوع أمره ، وشهدت تخريب أسطولها عند الطرف الأغر ، من أجل حرب لم يكن لها فيها مصلحة حيوية . لكن هذه الحكومة غيرت موقفها أثناء حروب الإمبراطور فى بروسيا ، إذ ساد الاعتقاد فى مدريد أن نابليون على باب هزيمة منكرة ، فعزم جودوْا (Godoy) — محبوب الملكة ماريا لويزا ، والحاكم الحقيقى فى المملكة الإسبـــانية — أن يهب فجأة لتخليص الدولة من قبضة نابليون . ولتنفيذ ذلك صدرت الأوامر بتعبئة الجيش الإسبانى ،

لكن سرعا ما ألغيت هذه الأوامر عند وصول أبناء وقعة ينا . كان فى تلك الحادثة كفاية لتذكير نابليون باستحالة قيام سلام ثابت بينه وبين ملك الأسبان ، ولدفعه إلى سياسة زينها عقله سنة ١٨٠٥ م ، وتتخلص فى توجيه ضربة حاسمة إلى البقية الإسبانية من الأسرة البوربونية العتيقة التى استراحت منها فرنسا وبارما ونابلى .

برهن نابليون أنه وماكيافللى (Nachiavelli) أبناء وطن واحد ، حين قرر القضاء على الملكية الإسبانية ، والتاريخ لا يذكر مؤامرة دبرت فى روية وبراعة أكثر مما دبرت به المؤامرة التى قصد بها إرباك أمة تكره أى انقلاب عنيف ، مع نزع سلاحها وإلقاء الرعب فى قلوب أبنائها وأول خطوة خطاها نابليون فى هذه المؤامرة أن طلب من حكومة إسبانية نادمة فرقة حربية مكونة من خمسة عشر ألفاً من صفوة جنودها ، للخدمة على الحدود الدنماركية . فلما أجيب إلى طلبه ؛ وأرسلت الحكومة الإسبانية جنودها إلى ولاية هلشتين (Holstein) التابعة للدنمارك ، عقد اتفاقاً سريا عند فونتنبلو (Fontainebleau) قرب باريس — فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٨٠٧ — مع إسبانيا لغزو وتقسيم البرتغال ؛ والأهمية الحقيقية لهذه الاتفاقية أنها مكنت لنابليون إرسال جنود فرنسية إلى إسبانيا . أما البرتغال فقبلت — تحت ضغط نابليون — أن تقفل الموانئ البرتغالية فى وجه التجارة الإنجليزية ؛ فلو كان الحصار القارى هو الغرض الوحيد فى رأس نابليون لكفى ذلك القبول لحماية البرتغال من أى هجوم . غير أن نابليون كان يرجو حرباً يخبّ فيها ، فطلب إلى

البرتغال مصادرة المتاجر الإنجليزية جملة ، ووجد فى امتناعها عن تلبية ذلك ذريعة كافية لغرضه . ثم رسمت الخطة لغزو البرتغال بجيش مكون من قوات فرنسية وإسبانية ، حتى إذا استولى عليها الجيشان كوفئ جودوا بإمارة فى جنوب البرتغال . ولا يفوتنا هنا أن جودوا كان فى أشد حالات الرعب منذ حركته أثناء حروب نابليون فى بروسيا ، ولذا أعلن استعداده لعمل أى شىء لمصالحة نابليون . لو كان ذكاء ذلك الرجل مساوياً لجشعه ، لفكر أن ليس من طرق الإمبراطور أن يكافئ الشر بالخير ، ولأدرك أن مكافأة الصديق الخائن بإمارة برتغالية عمل زائف لا تؤمن عواقبه . وقدر نابليون قيمة جودوا حين قال : « إن ناظر السراى هذا ممقوت من كل الأمة الإسبانية ، وسأستعين بخبثه على فتح أبواب إسبانيا » .

وفى ١٨ أكتوبر سنة ١٨٠٧ عبر جيش چونو المرابط فى مقاطعة الجيروند — والبالغ عدده خمساً وعشرين ألفاً — الحدود الفرنسية الإسبانية عند نهر بيداسو (Bidassoa) فى طريقه إلى لشبونة ، على أن يعاونه عدد مساو من القوات الإسبانية تتقدم من ثلاث جهات . وضع نابليون هذه الخطة لإخلاء إسبانيا من الجيوش ، فى وقت من مصلحته أن تكون المملكة خالية من وسائل الدفاع الكافية . ومن مكملات هذه الخطة أنه بينما يستحوذ چونو على الأسطول والأسرة المالكة والخزينة فى لشبونة ، تسير جنود فرنسية إلى إسبانيا بحجة معاونة الحملة المزدوجة ، وعندئذ يمكن حمل شارل الرابع ملك إسبانيا الضعيف على التنازل عن

عرشه أو الهروب ، ويصبح من السهل القضاء على جودوا الذى تمقته الأمة ، والاستيلاء على المملكة الإسبانية بين استحسان الأهالى ، أو بموافقتهم على الأقل .

وصل چونو لشبونة فى ٣٠ نوفبر ، بعد زحف لقى أثناءه صعوبات جمة ، فوجد أن الأسرة المالكة أبحرت على سفينة من سفن الأسطول الإنجليزى ، وأن الخزينة والأسطول البرتغاليين أفلتا من يده . ومع ذلك دلت القرائن حتى هذه الآونة على أن مشروع نابليون نجح ، فالبرتغال فتحت ، والحدود الإسبانية عبرت بواسطة خمسة جيوش فرنسية ، تحت ستار الاشتراك فى الحملة البرتغالية لمساعدة حلفائهم الإسبانيين اسماً ، ولتمهيد الطريق لاحتلال إسبانيا فعلا . وإذا خالج أى إسبانى ريب فى حقيقة مقصد الإمبراطور ، فإن كل الريب زالت فى فبراير ومارس سنة ١٨٠٨ م ، حين استولى الفرنسيون على المعاقل الإسبانية الهامة ، وهى بامبيلونا (Pampeluna) وبرشلونة وسان سباستيان وفيجوراس (Figueras)، وحين علم الأهالى أن مورا — أعظم قادة الخيالة عند نابليون ، يزحف على مدريد بصفته رسول الإمبراطور .

عند ذلك جاء الظرف الذى تحينه نابليون ، وهو أن شارل الرابع والملكة ماريا تريزا وجودوا هالهم التقدم الفرنسى ، فعزموا على الفرار ، وقرروا الرحيل إلى أشبيلية ومنها إلى أمريكا ، للنجاة من صرامة الإمبراطور ، وغضب الأمة الإسبانية من حكمهم الذى دل على الخيانة . غير أن الهاربين أوقفوا عند آرانجويز (Aranjuez) ، وهناك قامت ثورة أنذرت

بإحباط كل مشروع نابليون ، لأن الثوار أجبروا الملك على التنازل عن عرشه لابنه فرديناند أمير أستورياس (Asturias) .

بدا ملك إسبانيا الجديد محبوباً من أمته ، لا لفضيلة اتصف بها ، فإنه كان خلواً من الذكاء والجمال والأخلاق ، بل لأنه بدا فى نظر الأمة عدواً لبلاط جلب العار لبلاده . ولذا لم يكن من الصعب على فرديناند ــ وهو ينعم بتلك المحبة العظيمة بين مواطنيه ــ أن يلم شعث الأمة الإسبانية ضد الغزاة. ولكن من حسن حظ نابليون أن فرديناند كان جباناً ، فبدلا من أن يعلن الحرب ألحف فى طلب الصلح ، وبدلا من أن يتراجع إلى مقاطعة أندلوسيا ــ لجمع أشتات الجيش الإسبانى ــ ذهب إلى مدريد ، حيث عسكرت فرقة فرنسية تحت قيادة مورا ؛ وهناك كتب خطاب تذلل لنابليون ، ورجا أن يعترف به ملكاً على إسبانيا . غير أن مورا رفض أن يعترف بلقب فرديناند ، فجزع الملك الجبان ، وخيل له أن عرشه على شفا جرف ، وقبل أن يذهب إلى بلدة بايون فى جنوب فرنسا لمقابلة الإمبراطور ، على اعتقاد أن مقابلة شخصية مع نابليون لازمة للاعتراف به ملكاً على إسبانيا ، فما وصل إليها حتى علم أن نابليون قرر وجوب انتهاء حكم آل بوربون .

قال نابليون فى سياق حديثه مع فرديناند : « إن بلاداً كبلادكم مملوءة بالرهبان يسهل إخضاعها ، غير أن الأمر لا يخلو طبعاً من بعض مظاهرات ، لكن الإسبانيين سيهدءون إذا علموا أننى أكفل لهم بقاء حدود بلادهم على ما هى عليه ، ودستوراً فضفاضاً مع المحافظة على عوائدهم الدينية والقوميه » .

ولما ظهر أن فرديناند لم يرض بهذه الشروط أصبح من الضرورى مواجهته بأبيه وأمه . وكان بيد نابليون إقرار من شارل الرابع بأنه أرغم على التنازل عن العرش لابنه ، وهو على أية حال لا يريد سوى أن يكون خلواً من الهموم والمتاعب؛ فرأى نابليون أن يحصل شارل الرابع على تنازل فرديناند عن العرش ، ثم يوقع هو على تنازل آخر . وهكذا مثلت رواية هزلية إسبانية أمام نابليون فى ٢ مايو ، والممثلون فيها أمير حديث السن عبوس ، وأب غاضب مسنّ مصاب بالروماتزم ، أم سفيهة ذات لسان بذىء وخلق ذميم . وتفصيل ما حصل أن الملك المسنّ أمر ابنه بالتنازل ، فقوبل أمره بالرفض البات . غير أن كنانة نابليون احتوت سهماً أسدّ من أمر الأب ، إذ وصلته أنباء بحدوث ثورة خطيرة ضد الفرنسيين فى مدريد ، فاتهم الأمير الشاب بالتآمر ضد الإمبراطور ، وأخبره بأنه إن لم يتنازل عن العرش من ليلته فإنه سوف يعامل معاملة الخائن العاصى . عند ذلك كتب فرديناند تنازله ، مخافة أن يصيبه ما أصاب دوق دانجيـــان . إذ وقع شارل الرابع على معاهدة بينه وبين نابليون فى اليوم السابق ، تنازل فيها عن كل حقوقه فى عرش إسبانيا للإمبراطور . فإن الرواية المضحكة المبكية التى مثلت فى بايون ختمت على ما يرا م. ثم قبل يوسف بونابرت عرش إسبانيا بعد أن رفضه لويس ، ولما خير القائد مورا بين البرتغال ونابلى ، دله بعد نظره على أن يختار الحكم فى إيطاليا .

اعترف نابليون ــ فيما بعد ــ أن السبب فى خراب ملكه هو ما سماه القرحة الإسبانية . ولا غرابة فى ذلك ، فإنه أراد إخضاع بلاد لم

يـرَ مثلها فى كل حياته المتنوعة الحوادث ، فإيطاليا والنمسا وألمانيا لم تكن سوى اصطلاحات جغرافية ، مكونة من دول متعددة لا تسود فيها عاطفة مشتركة ، خاضعة لحكومات لم يكن لها فى قلوب الناس أصل ولا قبول . أما إسبانيا فأمة واحدة ، منفصلة عن الدول الأخرى انفصالا تاماً ، حتى أصبحت لا تتأثر بالحوادث الأوربية التى تحرك الأفكار وتغيرها . الدليل على ذلك أن ريح الثورة الفرنسية لم تهب على ما وراء جبال البرانس ، ولم تصادف الحريات الدستورية وحقوق الإنسان والتسامح الدينى — وغيرها من العبارات التى حققتها الثورة الفرنسية — هوى فى فؤاد الإسبانى الذى رأى فى نابليون عدو دينه ، وخاطف مليكه وغازى بلاده . وسرعان ما انتشرت فى أنحاء إسبانيا حركة فجائية كانت درساً لكل أوربا ، حتى إذا سلمت الفرقة الفرنسية بقيادة ديبون فى ٢٣ يونية ، لجيش أسبانى عند بايلن ، أدرك نابليون خطأه فى تقدير صعوبات مشروعه وعلم أن إسبانيا لا تغرر بدستور حبر على ورق ، ولا يمكن السيطرة عليها بجيش مفكك العرى ، مكون من مجندين حديثين لم يدربوا بعد على أصول القتال .

بدأت الثورة الإسبانية سلسلة طويلة من الحركات القومية التى قضت — آخر الأمر — على الإمبراطورية النابليونية القضاء الأخير . فى تلك الثورة وضحت الصعوبات الهائلة الناتجة من طبيعة أرض إسبانيا . ومن جدب الهضبة الوسطى ، وتقاطع كل السلاسل الجبلية مع طريق الزحف من بايون إلى قادس ، وقلة الطرق ورداءتها ، ومجرى الأنهار

الإسبانية ، وهو عقبةٌ لاعونٌ فى المواصلات . كل تلك الصعوبات جعلت إسبانيا صالحة جدًّا لحرب الكر والفرّ ، وازداد سوء حظ نابليون فى ذلك النضال الذى أثاره دون أن يحسب للعواقب حساباً ، إذ مهدت حرب شبه الجزيرة ميداناً لجيش إنجلترا البرّى يبلى فيه أحسن البلاء. ذلك أن وزارة دوق پورتلاند فى لندن قررت — بدلا من صرف قوة إنجلترا الحربية فى حروب لا طائل تحتها ، فى جزائر السكر [1] الموبوءة بالحميات — أن يشترك الجيش البريطانى فى النضال القومى فى إسبانيا والبرتغال . كان لذلك القرار شأن عظيم فى مصير هذه الحرب ، لأنه بينما نتج عن وجود الجيش الإنجليزى بقيادة ولزلى (Wullesley) أن اشتد أزر المقاومة الباسلة التى قام بها الأسبان على سوء نظامهم ، كان اشتباك الإسبانيين مع الفرنسيين — فى جهات مبعثرة — عوناً كبيراً للحركات الحربية الإنجليزية . وكان خليقاً بنابليون أن يعتبر من الضربة الأولى عند ڤيميرو (Vimiero) ، فى ٢١ أغسطس سنة ١٨٠٨ م ، حين بددت الجيوش الإنجليزية القليلة العدد بقيادة ولزلى الجيش الفرنسى بقيادة چونو ، وطهرت البرتغال من الفرنسيين .

رفض نابليون أن يعتبر ، وظل طول مدة الحرب يستخف بصعوبات أرض إسبانيا ، ويصدر إلى قادته أوامر تنفيذها من رابع المستحيلات . وربما قوى ثقته بحسن المستقبل النتائج الباهرة التى انقضت بها الحرب القصيرة شتاء ١٨٠٨—١٨٠٩م ، فى حين زحف بنفسه على رأس جيش

(١) جزائر السكر هى مجموعة فى جزائر الهند الغربية .

عظيم مكون من ٢٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وقضى على مقاومة الإسبانيين فى الشمال، وأعاد أخاه يوسف ملكاً فى مدريد، ثم طارد سير چون مور (Sir John Moore) القائد الإنجليزى من سهل ليون إلى سفح تلال غاليسيا . غير أنه لم يكن ثمة داع للتفاؤل من وراء ذلك ، ولو أن نابليون اتعظ من منذرات بايلن وڤميرو ، وحصر أعماله الحربية فى الأقاليم الواقعة شمال نهر إيبرو ، لكان حكيماً . لكن الذى حصل هو أن تقدمه الجرىء اضطره لمواصلة حرب استنفدت زهرة جيوشه ، وأضعفت قبضته الحربية على بروسيا ، وشجعت كل أعدائه فى أوربا .

ليس من شىء يبين خلق نابليون أكثر من أنه فتح باب المفاوضة مع روسيا للمرة الثانية — والمشروع الإسبانى يختمر فى رأسه — لاقتسام تركيا ، ولتسيير حملة مزدوجة عن طريق نهر الفرات لمهاجمة الممتلكات الهندية التابعة لإنجلترا . رأى نابليون إسبانيا — بساحلها الطويل وموانيها الكثيرة — مصدر قوة بحرية بعد إيطاليا فى القيمة ، فالاستيلاء عليها — كالاستيلاء على إيطاليا — يساعد على كسر شوكة إنجلترا ، على اعتبار أن قادس مفتاح كلكتا . غير أن الثورة الإسبانية غيرت وجه الأشياء وعكست دورة السياسة ، فزال مشروع اقتسام تركيا الذى راوغ به نابليون روسيا والنمسا ، وزال معه المشروع الهندى من صفحة السياسة العملية ، وحلّ محلهما غرض نابليون الأصلى ، وهو تجديد تحالف تلست، لتبقى النمسا ساكنة ، حتى يمكنه أن يصفى حسابه مع أهل إسبانيا المذبذبين . لذلك دُعى القيصر إلى مؤتمر فى ألمانيا ، عُقد خصيصاً

لإظهار نابليون فى دوره الجديد ، حسيبًا للأمراء الألمان وحاميهم . وذهب إسكندر إلى إرفرت (Erfurt) فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٠٨ م ، غير أن تحمسه الشديد نحو نابليون بدا تشوبه بعض الريبة . ومع ذلك وقّع إسكندر على اتفاق سرّى ، وعد فيه بالمساعدة فى حالة ما إذا بدأت النمسا بامتشاق الحسام . بذلك سدت منافذ الخلاف بين فرنسا وروسيا ؛ ولكن لم يخف على أى بصير أن حالة أوربا تغيرت عن أيام تلست ، وأن التحالف الفرنسى الروسى أخذت تبلى جدته ، وأنه بينما واجهت نابليون صعوبات جديدة ، ازدادت قوة القيصر بالاستيلاء على فنلندة وإمارتى الأفلاخ والبغدان على مصبات الدانوب .

ثم أنتج فشل نابليون فى إسبانيا نتيجة حتمية ، وهى فتح باب النزاع القديم مع النمسا من جديد : ذلك أن موقف فرنسيس إمبراطور النمسا لم يقتصر على الدهشة لخلع آل بربون فى إسبانيا ، لأن بين الرءوس المتوجة رابطة ملكية ، كأنها نقابة يتأثر أعضاؤها بمصائب الملوك إخوانهم. ومن يدرى إذا كان خلع الملوك الذى نجح فى تيورين وبرنزويك وكاسل ، وفلورنس ونابلى وبايون ، لا يطبق بنجاح كذلك فى ڤينا، ولاسيما بعد أن ظهر فى المسألة الإسبانية أن أطماع نابليون لا يوقفها استكانة فريسته ، أو استعدادها لإجابة ما يريد ؟ ثم إذا لم يتردد الإمبراطور فى خلع حليفه ، فلا مجال للظن أن يفلت المحايد من يده . وبالاختصار بدأت روح جديدة تسرى فى النمسا وظهرت بوادرها فى تكوين قوات حربية أهلية ، وضاعفت

أنباء الثورة الإسبانية على سريان تلك الروح الجديدة . وفى ديسمبر سنة ١٨٠٨ م قر الرأى على انتهاز اشتغال نابليون بالحرب فى إسبانيا للاستعداد من أجل إعلان الحرب فى الربيع التــالى ، ودعا إلى هذه السياسة ثلاثة أقطاب نمساويين وهم أرشيدوق شارل ، وكونت ستاديون (Count Stadion) رئيس الوزارة ، وسفير حديث السن عرف نابليون فى باريس ، وقدر له أن يقوم بدور كبير فى القضاء عليه . وهو مترنيخ (Metternich)، الذى صار اسمه رمزاً للقوة الرجعية أكثر من جيل من الزمان ، مع أن السفينة السياسية التى ركب متنها أنزلت لأول مرة فى وقت المد الذى أحدثته الحركات القومية فى بحر السياسة الأوربية .

فى تلك السنة بلغ نابليون التاسعة والثلاثين من عمره . نعم إنه أضحى بديناً ، إلا أن صحته ظلت جيدة ، ولم يعتور نشاطه وتحمله المصاعب شىء . يبرهن ذلك أنه عبر أثناء تعقبه سير چون مورجبال الجوادراما (Guadarrama) بإسبانيا ، على رأس جيشه سيراً على القدم ، وسط عاصفة ثلجية أعمت الأبصار ؛ وقطع ٢١٤ ميلا فى اثنى عشر يوماً فى جو ديسمبر ، متجشما الجليد والثلج ؛ وعاد من فلادوليد (بلد الوليد) إلى باريس فى أقل من ستة أيام، فبرهن على أنه فى تلك المرة لايقل فى المهارة عن المرات الكثيرة التى قام فيها بأسفار كلها عقبات ثم إن ثقته بالمستقبل بقيت عالية ، مثل علوها أيام الحملة المصرية ، وبقى عدد جيشه ٨٠٠,٠٠٠ مقاتل حسب الإحصاءات الرسمية . وبالرغم من اضطرار ٣٠٠,٠٠٠ من الجيش الفرنسى للبقاء

فى إسبانيا ، فإن عوامل ثلاثة جعلت نابليون يشعر أن ليس ثمة ما يخيفه من النمساويين ، وهى « كثرة جنوده الإجباريين ، واسمه الرنان ، وأحذيته الطويلة الرقبة ، وهذه الأحذية هى التى أمنته » .

أما السبب فى عدم تحول حرب سنة ١٨٠٩م إلى حرب عامة لتحرير ألمانيا ، فيرجع إلى السرعة المدهشة التى انقض بها نابليون على النمساويين فى الوادى الأوسط للدانوب ، والتى طاردهم بها إلى ڤينا قبل أن تشتعل نار الثورة فى الشمال . ذلك أنه رأى بثاقب نظره ، وبقدرته على توجيه كل الهمة إلى جلائل الأمور ، أن العمود الفقرى للمقاومة فى وسط أوربا هو الجيش النمساوى ، فإذا كسر ذلك الجيش بحيث لا تقوم له قائمة بعدها ، شلت الوطنية الألمانية والتيرولية . غير أن الحرب كادت فى أول أمرها تعود بالخسران ، من جراء خطط برتييه (Berthier) ، الذى اشتهر بمهارته كأركان حرب ، لا كقائد . ذلك أن نابليون أصدر أمرًا عاماً بتجميع كل فرق الجيش حول راتزبون (Ratisbon) ، وأضاف إلى هذا الأمر العام أنه فى حالة عبور النمساويين نهر إن (Inn) قبل ١٥ أبريل ، يجب على الجيش الفرنسى أن يتراجع إلى نهر لخ (Lech) . وتنفذ الجزء الأول من هذه التعليمات تقريباً ، وزحفت فرقة داڤو إلى راتزبون فى ١٦ إبريل ، أى فى اليوم الذى نجح فيه أرشيدوق شارل فى عبور نهر إيسار ، على رأس ١٢٦,٠٠٠ مقاتل ، هنـا بلغ الخطر بمركز الفرنسيين أشده ، لأن داڤو كان فى راتزبون ، وبرتييه فى أو جزبرج على مسافة

٧٦ ميـــلا غرباً ، وبين الجيشين فرقة بافارية ضعيفة معسكرة عند آبنسبرج (Abensberg) . ولو كان الأرشيدوق من مهرة القادة لهزم جيش داڤو المكون من ٦٠,٠٠٠ مقاتل، قبل أن تصل إليه الأمداد ، ولتقدم بعد ذلك وقضى على جيش برتييه . لكن بينما الأرشيدوق فى غفلته ، إذا بنابليون ينهب الأرض « بأحذيته الطويلة » نحو ميدان القتال ؛ لأنه سمع بإعلان الحرب فى الساعة الثامنة من مساء ١٢ إبريل وهو فى باريس ، وعند الساعة الرابعة صباحاً من اليوم السابع عشر كان فى دوناوفورت (Donauworth) يهيمن على أعمال الميدان . وأثارت الحركات التى قام بها نابليون هذه المرة إعجاب معظم النقاد الحربيين ، واعتبرها نابليون نفسه أحسن أعماله الحربية ، على الرغم مما أعوزها من دقة فى بعض تفاصيلها . ذلك أنه جمع أشتات جيشه، بإصدار الأمر إلى داڤو بالتراجع مع الجناح الأيسر ، وإلى مسينا بالتقدم مع الجناح الأيمن ، ثم زحف لكسر عدوه فرقة فرقة ، فضرب الجناح النمساوى الأيمن ضربة ألقت وحداته صرعى عند آبنسبرج. ثم أجبر الجناح الأيسر إلى التقهقر بلا نظام حتى عبر نهر إيسار عند لاندشوت (Landshut) ، وأخيراً أسرع لنجدة داڤو الواقف أمام القوات الرئيسية بقيادة الأرشيدوق عند إجمهل (Eckmuhl) ، وبذلك تغيرت مواضع كفتى الميزان . فارتد النمساويون إلى راتزبون ، واشتبكوا فى وقعة يوم ٢٧ أبريل، ثم انسحبوا بانتظام عابرين الدانوب ، بعد أن خسروا خمسين ألف مقاتل فى هذه الحرب التى دامت خمسة أيام، حيث كانت الغلبة

لقوة الابتكار السريع على التردد فى ساحل القتال . ثم علم نابليون فى أبريل أن الأرشيدوق — بعد عبور إيسار — انحرف شمالا عن طريق التقدم المستقيمة ، « فاستوى قائماً ، وتألقت عيناه ، وظهرت على نظرته وصوته وإشارته نشوة الفرح » . ثم قال : « الآن وقعوا فى يدى ! ضاع جيشهم ؛ سنكون فى ڤينا فى ظرف شهر » . وكان نابليون معتدلا فى آماله ، إذ لم تمض ثلاثة أسابيع إلا وهو نزيل قصر شونبرون (Schônbrunn) ، بالعاصمة النمساوية .

تم الفصل الثانى من تلك الرواية على ضفاف الدانوب السريع الجريان ، على بعد ثلاثة أميال من ڤينا ، حيث تشطر النهر شطرين جزيرة لوباو (Lobau) الكبيرة المكسوة بالغابات . قال نابليون — فيما بعد — يصف ما قام به من الأعمال الحربية فى تلك المرة « إن عبور نهر الدانوب أمام عدو يعرف أماكن عبوره جيداً ، ويملك عطف السكان ، هو أكثر الأعمال الحربية خطراً » . ولما كانت النمسا تجنى كثيراً وفرنسا تخسر كثيراً بسبب الإبطاء فى العبور ، تحتمت محاولة هذه العملية الصعبة ، وفى ليل ٢٠ مايو تحولت فرقة القائد مسينا ، وفرقة الحرس والخيالة الخفيفة تحت إمرة القائد لان ، لعبور النهر من الجزيرة إلى الضفة الشمالية ، حيث قوبلوا مقابلة كافية لإلحاق الوهن بأى جيش عادى ؛ إذ لبث جيش فرنسى مكون من ٣٦,٠٠٠ طول النهار حول قريتى أسبرن (Aspern) وإسلنج (Essling) يحارب قوات متفوقة عليه ، بعد أن سُدت فى وجهه السبل ، وقطعت عنه الأمداد ،

بتهديم الجسور . وفى ليلة ٢٢ جاءت الأمداد إلى الجيش الفرنسى، ولكنها لم تك من القوة بحيث تغير أوضاع كفتى الميزان ، وبعد انقضاء يوم آخر ، فى حرب سجال حمى وطيسها ، سحب نابليون جيوشه إلى الجزيرة ، وخسر فى وسط معمعة أسبرن — إسلج قائده لان ، أشجع الشجعان؛ عند ذلك أدركت أوربا أن قهر نابليون ليس عليها بمستحيل.

بعد ذلك بثلاثة أسابيع وقعت الواقعة التى ختمت بها الحرب ، وهى المعروفة للتاريخ بواقعة فاجرام (Wagram) . عبر نابليون نهر الدانوب ليلة ٥ يوليو بجيش عرمرم يزيد على عدوه بنسبة عشرين فى المائة ، وفى اليوم التالى تأهب للقتال . برهنت هذه الواقعة أن الشجاعة النمساوية ليست حادثاً عرضياً ، وأن التفوق الفرنسى ليس من ضرورات النظام الطبيعى . ذلك أنه بعد قتال عنيف ، بدأ فجر يوم من أيام يوليو واستمر حتى بعد الظهر ، انسحب أرشيدوق شارل من الميدان مغلوباً ، لكنه غير مفلول القوى ، وبدون أن يترك أسيراً أو علما فى يد العدو . فكان المهزوم هو أرشيدوق شارل حقا، لا الجندى النمساوى، وكان المنتصر رجال المدفعية الفرنسية لا مشاة الجيش الأعظم الذى لم يعد أداة حربية فاخرة ، كأيامه الأولى . وسبب ذلك أن زهرة الجيوش الفرنسية هلكت فى أسبانيا . ودل الذعر الشائن الذى استولى على الفرنسيين أصيل الواقعة ، حين ذاع خبر اقتراب جيش أرشيدوق حنا ، أن هناك بوناً شاسعاً بين المجندين الأحداث الذين حاربوا فى ڤاجرام وبين الجنود المدربين الذين حاربوا فى أركولا وأسترلتز .

عقدت هدنة بين الأمبراطورين مداها أربعة شهور ، وظل كلا الفريقين يتتبع باهتمام أخبار المنازعات القائمة فى الجهات الأخرى من أوربا ، أملا فى ابتسام الحظ مرة ، وكان الخطران الرئيسيان أمام نابليون أن تعلن بروسيا الحرب ، أو يقرر القيصر نقض التحالف مع فرنسا . وكان هناك خطر آخر بعيد الاحتمال ، وهو حصول هزيمة منكرة فى إسبانيا ، أو نزول الإنجليز على شاطئ البحر البلطى ، لإثارة العناصر الثورية التى تحتشد فى شمال ألمانيا . لكن كل تلك الغيوم انقشعت بانقضاء الصيف وحلول الخريف ، فالبروسيون لم يعلنوا الحرب . وظل التحالف الروسى قائماً مؤقتاً ، على أن تأخذ الروسيا جزءاً من غاليسيا من النمساويين . ثم وردت أنباء من إسبانيا اعتُبرت أعظم ما تكون فى صالح الفرنسيين ، وهى أن ولزلى تقهقر إلى البرتغال بعد موقعة تالاڤيرا (Talavera) ، وأن حملة إنجليزية — وجهتها الاسمية أنفرس — سارت إلى حيث فنيت قواها فى مستنقعات والشرين (Walcheren) الموبوءة بالحميات ، على حين اتخذ نابليون من وجودها هناك ذريعة لتجنيد جيوش جديدة . ثم قامت فى شمال ألمانيا ثلاث ثورات طائشة لا اتصال بينها ، أخمدت الواحدة تلو الأخرى . أمام كل ذلك ، ونظراً لتفشى الأمراض فى الجيش النمساوى ، جاء فرنسيس يطلب الصلح صاغراً .

ذكر نابليون علناً أثناء المفاوضات أن الأجدر بفرنسيس أن يتنازل عن العرش ، إذ قال للأمير لشتنشين (Lichtenstein) المفوض

النمسوى : « أريد أن أتفق مع رجل أعتمد على اعترافه بالجميل ، فلا يعود إلى مناجزتى مدة حياتى . كثيراً ما برهنت السباع والفيلة على قوه العاطفة وتأثيرها فى القلب ، لكن سيدك لاتحركه العواطف » . لاعجب أن أمبراطور النمسا ، لم يستطع أن يحذو حذو العجماوات حتى يعترف بالجميل لعدو كان نزيل قصره الإمبراطورى فى شونبرن . لذلك سلبه نابليون إقليما يبلغ سكانه أربعة ملايين ، بما فيه ميناء تريست العامرة والساحل الشمالى للبحر الإدرياتى . واشتمل ذلك الصلح الذى تم فى ڤينا نفسها ، فى ١٤ أكتوبر سنة ١٨٠٩م ، على كثير من الخزى والعار للنمسا ، من جراء ترك التيروليين — وهم الشجعان الذين بذلوا كل مرتخص وغال فى سبيل الرجوع إلى حظيرة الوطن لانتقام نابليون .

حدث بعد الصلح — بمدة يسيرة — أن تم أشهر زواج سياسى يذكره التاريخ الحديث : ذلك أن نابليون طلق چوزفين بعد رجوعه إلى باريس ، وطلب يد أرشيدوقة نمساوية ، ونال موافقتها . ولم تجد الدموع والتوسلات التى بذلتها المرأة الجميلة التى أحبها نابليون مرة ملء قلبه ، وبقى يشعر نحوها بعاطفة الحب ، بل تحكمت أسباب سياسية عليا . من تلك الأسباب أن چوزفين لم تعقب منه نسلا ، ولما كانت الإمبراطورية فى حاجة إلى وارث للعرش قرر مجلس الشيوخ الخاضع للإمبراطور انحلال عقد زواجه من چوزفين . ثم أفتى مجلس الأساقفة فى باريس أن الزواج لم يحصل أبداً .



الإمبراطورة مارى لويز النمساوية وابنها ملك روما

[متحف فرساى]

كان اختيار عروس ثانية لنابليون موضع أخذ وردّ ردحاً من الزمن ؛ وفتحت مفاوضات عدة فى وقت واحد مع بلاطى ڤينا وسان بطرسبورج . وأخيراً قرر نابليون التزوج من مارى لويز النمساوية ، لأنها فى سن الزواج من جهة ، ولأنها كانت كاثوليكية من جهة أخرى ، ولأنه أحس بعدم رضاء البلاط الروسى به ، واعتقد أن الروسيين سيرفضونه من جهة ثالثة . ولما قال لاكويه (Lacuée) وزير الحربية — وكان معارضاً فى الزواج — إن النمسا لم تعد دولة عظيمة ، ردّ عليه نابليون : « إذن يخيل إلى أنك لم تحضر واقعة ڤاجرام » . من الطبيعى أن يستشهد نابليون بحوادث الحرب الماضية ، ليحمل على الاعتقاد أن التحالف النمساوى سيكون دعامة قوية يستند إليها هيكل الإمبراطورية الفرنسية المختل . هكذا تزوج الكورسيكى القصير القامة من أعرق أسرة فى أوربا . وتلبدت بسبب ذلك الزواج غيوم من الشر فإن المرأة لم تكن بالمخلصة ، وانقلبت دولتها عدوة ، وعاش وليد ذلك الزواج الهابسبورجى البونابرتى عيشة رديئة تعسة ، بين أعداء اسم أبيه .

الفصل التاسع

انهيار البناء

يقع سقوط نابليون فى ثلاث درامات متصلة الحوادث ، وهى موسكو وليبرج وفونتنبلو ، يتلوها فصل ختامى فى وترلو . امتازت المجهودات التى بذلت — والضحايا التى ذهبت — فى ذلك النضال الأخير ، بالجسامة والتهور إلى مدى جعل الخلف يعتقد بزيادة ما بذل عن طاقة ذلك العصر المخضب بالدماء . فالدول التى اشتركت فى الحرب اشتراكاً فعليًّا كانت أكثر عدداً ، والجيوش أكثر نفرا ، والخسائر التى لحقت المتحاربين من جراء القتال ونفاد المؤن أكثر هولا ، مما رأته حرب سابقة . بلغ عدد القتلى فى واقعة بورودينو (Borodino) وحدها ثمانين ألفاً ، وعدد جرحى ليبرج مائة وعشرين ألفا . غير أن نابليون على الرغم من اضطراره إلى الارتداد وراء نهر الرين بخسارة ما يقرب من مليون رجل ، لم يذعن لفكرة اعتزال الملك إلا بعد الاشتباك فيما يقرب من عشرين واقعة . والسبب أن ذلك كله حدث فى عصر لا عهد له بالتلغراف ، أو التليفون ، أو الطرق الحديدية ، أو بأى تأثير جدّى من الصحافة فى عقول الجمهور فالأمم لاتثار بسرعة ، والأفكار

بطيئة التغيير ، والناس أصعب قياداً عند إثارتهم وتنظيمهم للأغراض الحربية . غير أن ذلك العصر ، الذى ظلت الأسفار فيه بطيئة ، والمواصلات رديئة ، رأى أوربا جميعها تسلس قيادها طوعاً لتأثير قوة إرادة واحدة . سيرت الفلاحين الفرنسيين إلى موسكو ، وأتت بفرق القوازق والكالموك الروسية إلى باريس للالتحام فى نضال سداه ولحمته مصالح وأطماع الأمم العشر الكبرى فى أوربا .

لا ريب أن مغزى هذه المأساة الثلاثية الهائلة انتصار الروح القومى على السيطرة الأجنبية ، وهى السيطرة التى تدرب وتشجع الوسيلة التى تقضى عليها . فى إسبانيا وروسيا وإنجلترا ، وفى بروسيا أخيراً ، اصطدم نابليون بقوة لم تخطر نتائجها على باله ، وتمتاز — كما برهنت الحوادث — بالقدرة على التجدد والرجوع دائماً إلى سيرتها الأولى . نعم عرف نابليون مظاهرات الشوارع ، وكيف يمكن تفريق المتظاهرين بإطلاق حفنة من البارود ، كما حصل فى باريس[١] وباڤيا[٢] والقاهرة[٣] غير أنه أخطأ حين اعتبر كل الحركات القومية من ذلك

---

(١) حادثة باريس تقدم ذكرها فى الفصل الأول من هذا الكتاب .

(٢) تفصيل حادثة باڤيا أن نابليون حين دخل ميلان ظافراً فى مايو سنة ١٧٩٦م ، إبان الحرب الايطالية الأولى ، جمع كثيراً من النفائس ، بناء على تعليمات حكومة الإدارة ، كما أخذ جميع مواشى فلاحى لمبارديا لتموين الجيش . فثار الفلاحون ، وهاجموا باڤيا ،وقتلوا كل من لقوا من الجنود الفرنسيين . أخمد نابليون هذه الثوره بإطلاق البارود على الثوار ، ثم استبيحت باڤيا ، فنهبها الجنود .

(٣) زعم الفرنسيون أنهم سيعمرون فى مصر طويلا برغم واقعة أبى قير البحرية ، =

النوع لا قيمة لها ، ولا شجاعة فيها ، وسهل إخمادها بشيء من الصلابة الحربية ، فظن مثلا أن ليس من خطر فى إسبانيا إلا الجيش الإنجليزى ، وأنه يكفى لإخماد ثورة الكالابريين فى جنوب إيطاليا إضرام النار فى بعض المبانى ، وإعدام بعض الأفراد رمياً بالرصاص . وقال نابليون فى شيء من الاستخفاف فى إحدى رسائله وقتذاك : « يجب علينا أن نميت الروح القومى فى ألمانيا » ، كأن من الممكن تدريب أمة عظيمة على نسيان مدنيتها القديمة بسهولة ، كما يدرب الجندى الجديد على ترك عادة السير المسترخى البطىء . ولعل السبب فى وقوع نابليون فى ذلك الخطأ طول وجوده فى مركز الآمر الناهى ، لأنه ليس من شيء أكثر خطراً على الذكاء من الاسترسال فى الأمر . ولا شك أن الانفراد بالحكم ، وما يترتب عليه من ثقيل الأعمال أضر بعقل نابليون ، وآذاه فى أخلاقه ؛ إذ أصبح أقل إنصاتاً للنصيحة ، وأسرع غضباً ، وأقل احتمالا لمخالفة أوامره ؛ وإن فى تتابع وزراء الخارجية من تاليران إلى شامباني (Champagny) ، إلى ماريه (Maret) — وكل

=ولكنهم أتوا بأعمال استفزت المصريين ، إذ هدموا بعض الأماكن من أجل تنظيم الشوارع ، وتشددوا فى جباية الضرائب بنظام أوربى ، وأساء نابليون إلى بعض العلماء الذين أبوا وضع الشارة الفرنسية على صدورهم . وفوق ذلك تواترت الإشاعات بأن السلطان يعد جيشاً عظيما لطرد الفرنسيين ، فكان كل ذلك سبباً لقيام ثورة فى القاهرة . لكن سرعان ما أخمدها نابليون : إذ نصب المدافع على ربى المقطم ، وهدد مراكز الثورة فى الأزهر وجهة الحسينية ؛ ودخلت الجنود الفرنسية الأزهر بخيلها فانتهكوا حرمته .

منهم يقل عن سابقه فى المقدرة واستقلال الرأى — أعظم دليل على اتساع شقة الخلاف بين سياسة الإمبراطور ومصالح فرنسا .

كان سقوط نابليون النتيجة المنطقية للنظام القارى الذى وجه إليه أكبر نشاطه فى السنتين التاليتين لموقعة ڤاجرام . ذلك أن مشروع إغلاق كل موانى أوربا فى وجه المتاجر الإنجليزية أو متاجر مستعمراتها لم يستلزم توسيع دائرة فتوح نابليون فحسب ، بل نتج عنه أن ضم نابليون لفرنسا هولندا والمدن الهنسية[1] ودوقية أولدنبورج (Oldenburg). وبصرف النظر عن الاستياء والفزع العامين اللذين نتجا عن هذه الأعمال ، فإن الحصار البحرى جرّ صنوف الفاقة وويلاتها على رأس جميع الفرنسيين .

وصف جيته[2] الشاعر الفيلسوف الألمانى نابليون بأنه أحد الرسل

---

(١) أطلق هذا الاسم على مجموعة المدن الألمانية التى كونت بينها عصبة تجارية سنة ١٢٤١م ، لحماية الموانى التى تستعملها هذه المدن من عادية القراصنة الدانيين السويديين . ثم أخذت العصبة فى الاضمحلال حين ابتدأت التجارة تتحول أواخر القرن الخامس عشر الميلادى إلى المحيط الأطلسى . وجاءت حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ — ١٦٤٨) . فكانت نتيجتها انتثار عقد المدن الهنسية ، ولم يبق منها إلا ثلاث حافظة لظل العصبة القديمة ، وهى هامبورج (Hamburg) ولوبك (Lubeck) وبرمن (Bremen) ، ثم استولى نابليون على هذه المدن الثلاث ، لإحكام السياج الذى أراد إقامته فى وجه التجارة الإنجليزية .

(٢) جيته (Goethe) أعظم شعراء الألمان ، وأكبر رجال الأدب فى عصره . وحدث أنه وقع فى حب فتاة مخطوبة هام بها وكتب كتابه « آلام فرتر » يصف لواعج حبه . وبعد ذلك اشتغل بالأدب ، وما زال يتقلب بين الأدب والسياسة ، ويخرج كتباً عدة ، منها رواية فاوست الشهيرة وكتاب الشعر والحقيقة . وعاش جيته اثنتين وثمانين سنة متمتعاً بشهرة عالمية فائقة ، ومات سنة ١٨٤٢ م .

المبعوثين لإقامة مدنية أعلى من المدنية التى قامت فى أوربا أواخر القرن الثامن عشر الميلادى . لكن إذا كان من مقتضيات الرسالة أن يبلغ ثمن التبغ ما بلغ ، وأن يندر وجود البن والسكر فى الأسواق ، وأن تبقى السفن فى الموانى حتى تبلى ، وأن تصرف المحال التجارية الكبرى الواحد بعد الآخر عمالها وتغلق أبوابها ، فإننا نعرف أن أناساً أقل فلسفة وشاعرية من جيته لم يروا فى أعمال نابليون إلا الاستبداد القاسى والإسراف بلا مبرر : فالحصار القارى تمخض عن الخسائر فى كل مكان ، والبلاد التجارية مثل هولندا ودوقية برج أصبحت خراباً ؛ والواقع أنه لم يوجد فى سياسة نابليون — إذا استثنينا التجنيد الإجبارى — ما جعل حكمه مكروهاً فى أوربا أكثر من الحصار القارى .

لا يخفى أنه لو أمكن تنفيذ المشروع بدقة لجاز أن ينتج عنه الأثر المطلوب ، لكن ثروة إنجلترا الطائلة لا تعتمد اعتماداً كليا على التجارة ، كما زعم نابليون ، لأن معظمها ثمرة نشاطها الصناعى . أما نقطة الضعف فى حالتها الاقتصادية ، فهى أن سكانها نموا نمواً سريعاً . حتى أصبحت بحاجة من آن لآخر إلى استيراد القمح من أوربا . ولو أن كميات الغلال الأجنبية قطعت عن السوق الإنجليزية ، لكان من المحتمل أن تقع إنجلترا فى مجاعة أليمة تضطرها لطلب الصلح . لكن نابليون سمح للمصدرين الفرنسيين برخصات خاصة لإرسال غلالهم لإنجلترا ، وليس غريباً أن يفشل الحصار فى تحقيق ما وضع له بسبب التجارة الواسعة التى سمح بها بمقتضى تلك الرخصات الخاصة ،

وبسبب النشاط العظيم بين المهربين . إنما الغريب أن يظل نابليون معتقداً أن إصدار القرارات البالغة التضييق – والتى يستحيل تنفيذها بالدقة ، سيمكنه من إرغام إنجلترا على الخضوع .

حمل ذلك السبب نابليون – وأسباب أخرى أهمها مسألة زواجه – على أن يعدل عن عزمه الأول ، وهو العودة لإسبانيا ؛ لأنه اقتنع بعض الشيء بأنه إذا أدار اللولب الضاغط على التجارة الإنجليزية دورة أخرى ، فإن حرب الجزيرة يقضى عليها من جذورها . لذلك أناب عنه مسينا – وهو أقدر قادته – لغزو البرتغال ، غير أنه لم يفرده بقيادة الجيوش الفرنسية فى إسبانيا ، ولم يزوّده بجيش كاف ، ولم يترك له الحرية التامة فى العمل .

ورأى مسينا وهو يعسكر على مرتفعات بوساكو[1] (Bussaco) ، وأمام خطوط توريس – فدراس (Torres-Vedres) ، وفى معسكره الشتوى عند سنتاريم (Santarem) ، ما لم يدر بخلد نابليون قط : وهو إمكان تدريب جيش برتغالى لمواجهة النار الفرنسية ، وهو ماقام به الإنجليز . رأى مسينا كذلك أن خطة التخريب العام التى قام بها ولنجتن فى أنحاء البرتغال أفسدت النظام الحربى الفرنسى ، وهو النظام المعتمد على تموين الجيوش الفرنسية من ميرة البلاد التى تحتلها . لذلك كله نكص الغزاة الفرنسيون على أعقابهم ، ونجت البرتغال : إذ عبر مسينا فى إبريل سنة ١٨١١ الحدود الإسبانية بجيش ساخط متمرد ، مختل النظام

(١) انظر مصور إسبانيا ، للتحقيق من ميادين حرب شبه الجزيرة .

خالى الوفاض ، بادى الأنفاض ، بعد أن خسر ثمانية وثلاثين فى المائة من رجاله ؛ فبرهن بارتداده المشهور على مهارة ولنجتن وعدم حكمة نابليون ، وعلى الفشل النهائى فى محاولة إجبار البرتغال على دخول حلقة الحصار القارى .

ثم هدد الحصار القارى أمر وأدهى من الطرف الأوربى الآخر. نتيجة سياسة نابليون ، وهى السياسة التى أدت إلى إضعاف التحالف الفرنسى الروسى . وتفصيل ذلك أن القيصر لم يطمئن من أول الأمر إلى المعاملة القاسية التى خص نابليون بها روسيا ، كما لم يطمئن إلى تشجيع الآمال القومية بين البولنديين بإنشاء دوقية ڤارسو . ثم إن القيصر قبل التحالف مع فرنسا على رغم عدم رضى الأشراف والدوائر التجارية فى روسيا ، تحت تأثير شخصية نابليون من جهة ، وليتنهى من جهة أخرى من مشادة مؤقتة قامت بينه وبين إنجلترا ، واعتقد القيصر أن مصادقة نابليون تعينه على تنفيذ أطماعه فى الشرق ، لكن سرعان ما أذهبت الحوادث هذا الزبد جفاء ، وشفت عما تحته من حقائق ، إذ أخرت الثورة الإسبانية اقتسام تركيا إلى أجل غير مسمى . لذلك دخلت روسيا حرب سنة ١٨٠٩م مضطرة وعلى غير رغبتها ضد النمسا ، وأمدت فرنسا بمساعدة جد فاترة . وهنالك أدرك نابليون فى سرعة أن أوربا على باب انقلاب سياسى ، لأنه على الرغم من مكافأة القيصر على خدماته بجزء من غاليسيا ، فإنه أعطى الجزء الأكبر من ذلك الإقليم بمقتضى معاهدة شونبرون إلى دوقية ڤارسو ، بقصد الاعتماد عليها

فى حالة وقوع حرب مع روسيا . ورأت وزارة خارجية روسيا توسيع رقعة دوقية ڤارسو نذيراً بالويل، فطلبت من نابليون وعداً صريحاً بأنه لن يوافق على إحياء مملكة بولندا[١] . لكنه أبى أن يقطع على نفسه ذلك العهد ، لاعتقاده باحتمال وقوع حرب مع روسيا ، حيث تكون الوطنية البولندية عوناً له على النصر . لو كان نابليون بلا حليف فى أوربا لسار وقتذاك فى سياسته فى شىء من الحذر ، لكنه — وهو زوج مارى لويز — أحس بأنه ليس مضطرا للتراضى مع الروسيين .

على أن ذلك التوتر لم يكن ليؤدى إلى حرب ، لولا أسباب مالية جعلت من المحال على روسيا البقاء على سياسة الحصار القارى . ذلك أنه لما طلب نابليون من القيصر فى منتصف أكتوبر سنة ١٨١٠ م — أن يمنع من السفر جميع السفن الإنجليزية الراسية فى المياه الروسية، والرافعة أعلاماً محايدة ، قوبل طلبه بالرفض ، لأن روسيا لاتستطيع الاستغناء عن حاصلات المستعمرات الإنجليزية ، ولأن المراكب التى تحملها لموانيها اترفع أعلاماً محايدة . وفى أواخر سبتمبر سنة ١٨١٠ م صدر أمر عال روسى لتسهيل دخول المراكب المحايدة إلى الموانئ

(١) عاشت بولندا حتى سنة ١٧٧٢ م مملكة مستقلة تحيطها روسيا والنمسا، وبروسيا؛ وفى تلك السنة اقترح فردريك الأكبر ملك بروسيا على ماريا تريزا إمبراطورة النمسا وكاترين الثانية قيصرة روسيا إقفال باب التزاحم بين الدول الثلاث بتقسيم بولندا الضعيفة فيما بينهم ، وبذا تم ما يسمى فى التاريخ بتقسيم بولندا الأول وهو التقسيم الذى قضى على استقلال هذه الدولة حتى كانت الحرب العالمية الأولى ، فأرجعت معاهدة فرساى إلى البلاد استقلالها ، وهى الآن جمهورية .

الروسية ، ولفرض ضرائب جمركية باهظة على الأنبذة والجرائر ، وهى أهم الصادرات الفرنسية ؛ وبالاختصار رأى نابليون أن ذلك الانقلاب فى نظام روسيا المالى إعلان للعداء .

قال بعض المؤرخين إن الحرب كانت واقعة لا محالة ، وألقى بعض آخر اللوم على القيصر . والحقيقة أنه لا سبيل لاتقاء الحروب ، إذا اعتبرنا أخلاق وأعمال مثيريها جزءا من نظام ثابت فى الطبيعة . والدليل على ذلك أن ما نعمله عن نابليون وعن القيصر ، وعن الأحوال الدولية فى ميادين التجارة والمالية وقتذاك ، لم يترك مجالا للشك فى قرب وقوع الحرب . إنما ليس فى تغيير الرسوم الجمركية فى دولة ما — فى ذاته — ما يدعو إلى نشوب حرب فللروسيا كل الحق — بعد أن رأت ما لحق ميزانيتها من العجز — فى تعديل رسومها الجمركية إلى ما يناسب حاجاتها الداخلية ؛ ولم يكن لنابليون أي حق فى التدخل . فالتصادم لم ينشأ لأن القيصر بحث عن مشكلة لإبادة الحرب بينه وبين نابليون على أية حال ، بل لأن نابليون اعتبر أن أى تهاون فى تنفيذ الحصار القارى يكون بمثابة طعنة فى إمبراطوريته ومركزه .

دلت حال نابليون العقلية إبان الاستعدادات التى سبقت الحرب الروسية — على أنه لم يهتم لاجتناب الحرب . ذلك أنه لم يعتبر النضال القريب عائقاً ظهر لتعكير صفو السلام الأوربى تجب إزالته ، بل امتلأ رأسه حماسة وطرباً يشبهان ما يجيش فى صدر القرصان عند ما يظهر له باب للسطو والنهب . قال نابليون فى ذلك الصدد : « يريد

الناس أن يعرفوا إلى أين نحن مسوقون . إنا عازمون على القضاء على البقية الباقية من أوربا ، وعلى أن ننقض كاللصوص على لصوص أقل منا جرأة ، لنصبح المسيطرين على الهند » . وبدأ نابليون فعلا يجهز حملة إلى مصر ، وحملة أخرى إلى مستعمرة الرأس ، وقال لناربون (Narbonne)[١] عن موسكو إنها محط رحال القاصد إلى الهند ، وعن الحرب الروسية إنها ليست إلا الدور الافتتاحي لزحفه المظفر فى أصقاع الشرق . ليس شىء من ذلك غريباً ، إذ اعترف نابليون منذ عام ١٨٠٤ م أنه مل أوربا العتيقة ، والآن يقول إنه سيسيطر على العالم فى ثلاث سنين .

مما أخذ على مقدرة نابليون فى وضع الخطط الحربية ، أنه حاول جدياً فتح دولة روسيا ، حيث تنهزم الجيوش الصغيرة ، وتموت الجيوش الكبيرة جوعاً ، بسرعة أكثر مما حصل فى إسبانيا . غير أن حادثاً سبق وقوعه قبل ذلك وترتب عليه نجاح ، وليس من المستحيل وقوعه مرة أخرى فتكون نتيجته كسابقه ، أى نصراً كبيراً على الحدود يتبعه صلح سريع[٢] . ولم يترك نابليون شيئاً فى السياسة أو الحرب إلا استعد له ، واعتمد على ضعف القيصر لتخليصه من صعوبات القتال فى أرض

---

(١) ناربون أحد ساسة فرنسا المشهورين ، ووزير الحربية فى عهد لويس السادس عشر . غير أن المشاحنات الحزبية بين اليعقوبيين والجيرونديين أدت إلى عزله سنة ١٧٩٤م ، وتوفى سنة ١٨١٣م .

(٢) يشير المؤلف هنا إلى موقعة فريدلاند .

كالصحراء . غير أنه أخطأ فى تقدير طباع خصمه ، ولم يلبث أن وجد نفسه أمام خطة سداها عدم الحرب وحرمانه من القتال ، ولحمتها استدراج جيشه الجرار إلى قلب مهمه قفر . ومع ذلك لم ينصت نابليون لصوت حكمته ورويته ، وعزم على اقتفاء أثر الجيش الروسى حتى وصل موسكو . ولو أن القيصر أنصت لمطالب نابليون من موسكو ، لما شهد العالم سلسلة المآسى الحربية الطويلة ، التى لا تفتأ تذكر كلما ذكر نابليون .

غير أن الحملة الروسية سنة ١٨١٢م سوف تبقى دائماً البرهان القاطع على ما ينتج عن انفراد دولة واحدة بالقوة الحربية فى أوربا ، بقطع النظر عن عيوب الخطط الحربية التى سار عليها القتال فى هذه الحملة بالذات . ذلك أن الحرب لم تكن مسألة تنازع بين أمتين ، بل مسألة تنازع للبقاء بين أطماع رجل واحد ، وبين وطنية قوم أمجاد على جانب عظيم من التدين . أما الشعب الفرنسى الذى لم يعلم بوقوع الحرب إلا بعد عشرة أيام من نشوب القتال ، فتلقى الأخبار بالرضاء المعهود . فى وسط كل ذلك وقف نابليون هادئاً صامتاً ، معتمداً على أنه برغم فشله فى ضم السويديين والأتراك إلى جانبه — أعد الوسائل لإثارة حماسة البولنديين ، وحصل من النمسا وبروسيا على جيش لحماية جناحى جيش عرمرم بلغ عدده ستمائة ألف مقاتل من مختلف القوميات الأوربية ، لم يسبق لنابليون أن قاد مثلهم ، بعد أن جندهم بطرق لا تختلف عن غارات اقتناص العبيد . واحتوى ذلك الجيش على جند من الأقاليم التابعة أو المتحالفة مع

الإمبراطورية ، لاشتغال زهرة جيوش فرنسا بالخدمة فى إسبانيا . ومع ذلك حارب هذا الجمع المتنوع الوحدات — من ألمانيين وإيطاليين وهولنديين وبولنديين — من أجل نابليون ، وأراق الدماء تحت إمرة ضباطه الفرنسيين ، ولم يحدث عصياناً ، ولم يمتنع عن مواصلة القتال . ولا شك أنه لو فنى الجيش الأعظم عن آخره فى محاولته ، فلا يرجع ذلك إلى الجنود أنفسهم ، بل إلى أسباب نقشت نقشاً عميقاً على وجه الطبيعة ، وهى أسباب ليس فى مقدور أية قوة بشرية مهما تعظم أن تتغلب عليها .

رتب نابليون خطته الأصلية على قاعدة استمرار الحرب سنتين ، فيقاتل الروسيين فى السنة الأولى فى ليتوانيا[1] ، ثم يتقدم فى الثانية من سمولنسك إلى موسكو . وبناء على هذه الخطة بدا لنابليون أن لديه متسعاً من الوقت للعناية بالاستعدادات الواجبة ، ولإرجاء القتال حتى شهر يونيه ، حين تكون سهول ليتوانيا صالحة لإمداد خيله بالعلف . ولو أن القيصر انتظر فى الخنادق التى أشير عليه بعملها عند بلدة دريسا — من باب التقليد الأعمى لخطوط ولنجتن فى تورس — فدراس ، لكسب نابليون الحرب . غير أن التفوق العددى الذي امتاز به الجيش الأعظم أضر بالفرنسيين ، ونفع الروسيين ، على عكس ما كان منتظراً ، لأن القادة الروسيين اضطروا — برغم تطلعهم لمنازلة العدو — إلى التقهقر دون الاشتباك مع جيش عدده أكثر من ثلاثة أضعاف القوات التى تحت إمرتهم . ثم إن جيش نابليون البالغ ٦١٠,٠٠٠ مقاتل

(١) انظر مصور روسيا لمعرفة ميادين القتال فى هذه الحملة .

ـ عدا سرايا المؤن ـ لم ينجح فى حركات التطويق ، ولم تكن فيه الخفة اللازمة للقيام بحركات المطاردة . والنتيجة أن الإمبراطور وجد نفسه فى منتصف أغسطس فى سمولنسك ، عند الطرف الشرقى من أرض جرداء قاحلة ، بعد أن فقد من جيشه مائة ألف مقاتل ، دون ظفر حاسم يمكن التحدث به . وفى خرائب سمولنسك المحترقة ، وفى مستهل الخريف ، عزم نابليون على الزحف على موسكو . ذلك أنه فضل أن يقامر بكل ما لديه ، فيخسره أو يكسب مثله ، على أن يواجه تقهقراً غير مشرف ، أو خسارة تلحق بجيشه بسبب وقوفه جامدا فى الشتاء الليتوانى . عند ذلك وقف الجيش الروسى فى طريق نابليون بقيادة كوتوسوف (Kutusoff) الوطنى المحنك الذى لبى صوت الأمة لإنقاذ الوطن ، واشتبك فى موقعة بورودينو (Borodino) التى وصفها تلستوى وصفاً خالداً فى أسلوبه البديع . وفتحت مذبحة بورودينو لنابليون الطريق إلى موسكو ، ولكنها لم تأت بشىء لإخماد العزيمة الصادقة فى قلب عدوه . ثم ترك كوتوسوف موسكو ، وانسحب إلى نقطة فى الجنوب غير بعيدة عن العاصمة ، أملا فى الانقضاض فجأة على الجيش الفرنسى المفكك . غير أن استيلاء الفرنسيين على موسكو لم ينتج شيئاً سوى أنه زاد حنق الروسيين . إذ وجد نابليون المدينة لدى دخوله خاوية على عروشها ، بعد أن أسلمها الغل الوطنى المتأجج فى قلب حاكمها للتدمير بإشعال النار التى اندلعت ألسنتها من كل صوب ، فى سرعة حيرت الكل فى أمر مصدرها . وعلى الرغم من ذلك بقى نابليون فى موسكو ، بين

كتلة كثيبة من الخرائب المحترقة السوداء ، حتى ١٨ أكتوبر ، أملا فى أن يأتى الإسكندر صاغراً ؛ على أنه كتب فى أثناء تلك الأيام العصيبة قانوناً للمماثل والملاهى الفرنسية. ثم قرر نابليون التقهقر بعد الأوان بشهر كامل ، لأنه على الرغم من تأخر هطول الثلوج فى ذلك الخريف ، فإن ما هطل منها وقت تقهقره كان كافياً لإيقاع خسائر فادحة بجيش بالى الأطمار ، دامى الأقدام ، يجر أذيال الخيبة ، مهرولا أمام حراب القوازق . ولما كف الروسيون عن المطاردة عند نهر نيمن (Niemen) — وهو إذ ذاك الحد الغربى للإمبراطورية الروسية — كانت خسائر الجيش الأعظم خمسمائة ألف أو يزيدون .

تمت الدرامة الثانية فى ألمانيا وهى درامة قام فيها نابليون بدور عظيم خطير من أدوار حياته ، على حين كانت هى نفسها مرحلة هامة فى تطور الأمة الألمانية . ذلك أنه أصبح من الضرورى تكوين جيش كبير ليقوم مقام الجيش الذى فنى معظمه فى روسيا ، وليحمى المراكز البعيدة فى الإمبراطورية . وكان فى استطاعة سكان فرنسا — البالغ عددهم ٣٦ مليوناً — أن يمدوا نابليون بما لا يقل عن مليونين ونصف مليون من الرجال الصالحين للخدمة الحربية ، على رغم ما تكبدته فرنسا من الخسائر فى الحروب الأخيرة . غير أننا نسأل كم من هؤلاء يمكن تجنيدهم بسرعة ، وإعدادهم باللوازم الكاملة لحرب بعيدة المزار؟ أمكن نابليون فى أربعة شهور ، وبدون الوسائل الحديثة التى تساعد على التعبئة السريعة ، أن يعد حملة للقتال فى ألمانيا عددها ٢٢٦,٠٠٠ جندى و٤٥٧ مدفعاً . وتم

ذلك – العمل الذي يكفى لإذاعة صيت وزير من وزراء الحربية فى العصر الحاضر – بعد حرب طاحنة فى روسيا ، ومع العلم بأنه جزء من برنامج إمبراطورية متشعبة الأعمال. أسرع نابليون بعد ذلك إلى الميدان، وباشر أعمالا حربية شاقة جداً ، لأنه فضلا عن الجيش الروسى الذى سيره القيصر للانتقام من الإمبراطور ، كانت بروسيا انضمت لإعدائه ، وأصبح معنى هزيمته خروج النمسا عن حيدتها، وامتناع اتحاد الرين عن مساعدته .

وبدأت الحرب بوقعتين كانتا انتصارين مزيفين لنابليون ، إذ التقى عند لوتزن (Lutzen)[1] قرب ليبزج ، ثم عند بوتزن (Bautzen) فى سيليسيا ، بقوه ، مكونة من البروسيين والروسيين الذين فاقوا جيشه عدداً، ولم يوفق فى أحدهما إلى انتصار حاسم . لم يكن السبب فى ذلك فتور مواهبه الخاصة ، لأن بوادر الملل التى ظهرت على نابليون فى الأدوار الأخيرة لتلك الحرب لم تتطرق إليه فى الأدوار الافتتاحية. غير أن أول ما يجب على القائد هو الوصول إلى ساحة القتال بجيش يفوق جيش عدوه عدداً ، والإسراع إلى الاشتباك والفرصة فى جانبه . قام نابليون بهذه العملية التى هى من أصعب العمليات الحربية فى لوتزن وبوتزن خير قيام، فاختار الأرض الصالحة كما هو معهود فيه . ودل على مواهبه فى القيادة شأنه فى معظم حروبه . وحدث أثناء تقهقر الفرقة الثالثة من جيشه أمام الهجوم عند لوتزن أنه ركض بجواده على رأس فرقة الحرس المكون من

---

(١) انظر مصور أوربا الوسطى ، للتحقق من ميادين القتال فى تلك الحرب .



نهاية الجيش الأعظم فى روسيا

[متحف ڤرساى]

الجند الأحداث ، فكان منظراً بديعاً تجددت به شجاعة الفرقة المكسورة. ولا شك أن نجاح نابليون فى تجنيد جيش من الأحداث ، الذين لم يزد تعليمهم الحربى على سيرهم إلى الميدان ، ثم تدريبهم على تلقى ضربات الوقعتين الهائلتين لدليل على قوة إرادته الحديدية ، أما الوقعتان فكانتا سجالا ، لأن خيالة نابليون بلغت من الضعف بحيث لم تقو على مطاردة الأعداء .

لم يكن لمثل ذلك الانتصار قيمة ، وأدرك نابليون برغم إجلائه العدو عن سكسونيا وسيليسيا ، وكسب موقعتين ، أنه لا يمكنه إنفاذ ضربة قاضية بلا إمدادات كبيرة لا سيما من الخيالة ، وأن قادته ملوا الحرب ، وأن جيشه الذى لم يدرب بعد أن أنقصه الموت أو المرض أو الهرب إلى نصف قوته . ثم إنه لم يعد يعتمد على النمسا وصداقتها ، واعتقد أنه إذا لم يتخذ احتياطات سريعة تهديدية ، فمن المحتمل أن تصبح النمسا فى صف أعدائه . وسبب ذلك الاعتقاد أن النمسا اهتمت وقتذاك بتعبئة جيوشها فى بوهيميا ، وأبدت استعدادها لمسالمة نابليون إذا تنازل لها عن الولايات الإلليرية وعن فتوحه البولندية والألمانية . غير أنه رفض هذه الشروط ، واعتبرها إهانه كبرى ، وعزم على تسيير جيش من إيطاليا إلى لايباخ (Laybach) ، حتى يعدل النمساويون عن سخافتهم . وبناء على هذا الاعتقاد ، وقع نابليون فى ٤ يونيو فى بلاسفتز (Plaswitz) على هدنة تستغرق شهرين ، دون أن يفكر فى التنازل عن شىء من فتوحه ؛ بل أراد بتشجيع الكلام فى الصلح كسب

الوقت ، لإعداد مجندين جدد يقذف بهم إلى حيث يهلكون . والدليل على ذلك ما جاء فى مذكرات مترنخ ، مبيناً كيف ألح السفير النمساوى على نابليون فى ٢٦ يونيو فى قبول شروطه وإقامة السلام فى أوربا ، وإلى رد نابليون بغضب . إذ قال : "ماذا تنتظر منى ؟ أتنتظر أن ألحق العار العار بنفسى ؟ ذلك محال ! سأعرف كيف أموت ، ولكنى لن أنزل عن شبر من الأرض . أن ملوككم الذين ولدوا فى الملك يمكن أن ينهزموا عشرين مرة ، ومع ذلك يؤوبون إلى عواصمهم . أما أنا فلا قبل لى بذلك ، لأنى بلغت الملك عن طريق الحرب " . ثم سأله مترنخ ماذا هو صانع إذا حل بجيشه المكون من المجندين الأحداث ما حل بالجيش الأعظم أثناء الحملة الروسية ، فعلت وجه الإمبراطور صفرة ، ثم عبس وقال بعنف : « إنك لست جنديا ، ولا تعرف ما يجيش بصدر الجندى أما أنا فنشأت فى ميادين الحرب ، ومثلى لا يعبأ إلا قليلا بضياع حياة مليون رجل» . وبينما هو يلفظ هذه الكلمات بصوت عال قذف بقبعته فى زاوية من زايا الغرفة . عند ذلك قال له السفير ، بعد ما استأذن بالخروج : « مولاى على ملكك العفاء ! كنت أشعر بذلك عند ما وفدت ، وها أنا واثق كل الثقة لدى ارتحالى عنك » .

أجمع النقاد الحربيون على ضرر عقد الهدنة ؛ لأنها — وإن مكنت نابليون من جمع الإمدادات — بدت أكثر نعفاً لأعدائه . بدليل أنه حين ابتدأت الحرب فى أغسطس ، وقفت النمسا والسويد فى صف الحلفاء ، فأصبح جيشهم ٨٦٠,٠٠٠ ، يقابلهم ٧٠٠,٠٠٠ من الفرنسيين ، بما

فيهم من الجنود الإسبانية والإيطالية . وإنا لنتساءل عما إذا كان فى استطاعة أى قائد حازم فى موقف نابليون أن يتنبأ فى يونيه بتلك النتيجة . تلك مسألة تفتح مجالا للتشكك ، وكل ما نعرفه بالتأكد ، هو أن الحرب عادت والأحوال أقل ملاءمة لنابليون فجيوشه كتلة قوامها أحداث غير مدربين ، وأعداؤه أوثق تماسكا وأعز نفراً ، وعزائمهم أكثر قوة من ذى قبل

تقع درسدن عاصمة سكسونيا على نهر الألب ، على مسافة عشرين ميلا شمال الحدود الجبلية لبوهيميا . هناك عزم نابليون على الوقوف بجيشه ، لا لحماية خط نهر الألب فحسب ، بل ليتمكن من المحافظة على ولاء حلفائه السكسونيين ، وثقة حلفائه البولنديين ، ولاعتقاده أنه بوقوفه فى ذلك المكان الملائم يستطيع رد جميع الهجمات التى توجهها إليه الجيوش الثلاثة المتحالفة ، الزاحفة من بوهيميا وسيليسيا وبراندنبرج . لكنه اعترف فيما بعد بسوء اختياره ، لقرب درسدن من الجبال ، حيث يمكن تمزيق الجيش الذى يتقهقر إلى بوهيميا ، قبل أن يتمكن من الوصول إلى المضايق والممار ليحتمى فيها .

وامتلأت أيام درسدن بالنكبات حقاً ، إذ اتفق الحلفاء على أن يجتنبوا ما استطاعوا ملاقاة نابليون نفسه ، وأن يهاجموا قادته بنشاط كلما التقوا بهم . نجحت هذه الخطة ، وذاقت فرق القائدين أودينو [1]

(١) أودينو من أعظم قادة الإمبراطورية المعدودين ، حضر واقعتى أسترلزوينا ، وكان السبب فى انتصار الفرنسيين فى واقعة فريدلاند .

وناى[1] اللتان أرسلتا لمقابلة جيش الشمال مرارة الهزيمة، عند بلدتى جروس بيرن (Gross Beeren) ودنفتز (Dennewitz) ، حيث وقعت واقعتان خالدتان فى التاريخ الحربى البروسى ، برهنتا على بعث العظمة البروسية من جديد . وفى الطرف الشرقى من ميدان الحرب الواسع هزم بلوخر قائد جيش سيلسيا القائد الفرنسى ماكدونالد ، عند نهر كاتزباخ (Katzbach) . أما الوقعة الوحيدة التى شذت عن سلسلة الهزائم الشنيعة المتقدمة ، فحدثت أول أدوار القتال ، حين زحف الجيش البوهيمى على درسدن فى ٢٢ أغسطس ، على اعتقاد أن المدينة سوف تضطر للتسليم نظراً لرداءة تحصينها ، قبل أن يتمكن نابليون من الرجوع لحمايتها ، ولانشغاله ضد بلوخر فى سيليسيا غير أن الحوادث برهنت على خطأ ذلك التقدير ، لأن شفارزنبرج (Schwarzenberg) أبطأ فى الزحف بقدر ما أسرع نابليون فى الرجوع . وفى أثناء الواقعة التى نشبت خارج أسوار درسدن بقى الدفاع أحسن حالا ، لوجود القيادة فى يد الإمبراطور ؛ بعد حرب استغرقت يومى ٢٦ و ٢٧ أغسطس ارتد

---

(١) ناى من أعظم قادة الإمبراطورية النابليونية ، إخلاصاً لنابليون . منحه نابليون وسام الشرف لانتصاره انتصاراً مبيناً فى واقعة فريدلاند ، وسماه أشجع الشجعان (Le Brave des braves) ويلاحظ أنه حين نفى نابليون إلى جزيرة إلبا سنة ١٨١٤ م خضع ناى للبوربونيين ؛ ولما فر نابليون إلى فرنسا ، بعثت الحكومة ناى على رأس أربعة آلاف جندى ، للقبض على ولى نعمته القديم . غير أنه سلم جنوده لنابليون ، وانضم إليه ، وحارب معه فى واترلو . ثم انهزم نابليون فى واترلو ، وحاول ناى الهرب إلى سويسرا ، فلم يفلح بل قبض عليه وحوكم أمام مجلس الأعيان الفرنسى ، وأعدم رمياً بالرصاص سنة ١٨١٥م .

الجيش البوهيمى إلى الحدود . ولو تابع نابليون ذلك الظفر بنشاطه القديم ، لأصبحت درسدن مثل ينا ، واحدة من انتصاراته الحاسمة . لكن التاريخ حافل بأمثلة كثيرة كان للصحة أثر فعال ونتيجة واضحة فى تكييفها : إذ ظهر نابليون أول أدوار هذه الواقعة مرونته وسرعته وقوة عزيمته المعهودة ، فرجع بالحرس إلى درسدن ، بسرعة تسعين ميلا فى اثنين وسبعين ساعة . وفى اليوم الأول للوقعة أجلى نابليون جيشاً نمساوياً مؤلفاً من خمسة عشر ألفا عن مراكزهم ، بقوة تقل عن نصف ذلك العدد ، فاقتصد اقتصاداً حكيما فى صفوف الاحتياطى . وفى اليوم التالى أخذ الهجوم الفرنسى يقل عن نشاطه العادى ، على رغم وصول أمداد عظيمة إلى الإمبراطور أثناء الليل ، حتى إن قلب الجيش النمساوى ظل سليما على حين عزم شفارزنبرج على التقهقر عندما وصلت إليه الأخبار فى الساعة الخامسة صباحاً - تنبئه بهزيمة الجناح الأيسر من جيشه . فلو أن نابليون فى أوج قوته لاستطاع مطاردة فلول النمساويين ، وإلحاق العطب بصفوفهم ، لأن الجيش البوهيمى - وهو الجيش الرئيسى للحلفاء - اشتمل على نمساويين وروسيين وبروسيين ، ورافقه ملوك هذه الدول الثلاث ، وفى إلحاق الدمار به تأثير على أوربا لا يمكن تقديره . لذا وجب على نابليون أن يكون تدمير ذلك الجيش هو الغرض الأصلى من الحرب ، لاسيما وأن الحظ والمهارة اجتمعا لنابليون ، وأنه أفلح بعد لأى فى إكراه شفارزنبرج على التقهقر . وكان قمينا به هنا ألا يترك أى فرصة لتحويل التقهقر النمساوى إلى هزيمة ، والهزيمة إلى تسليم .

لكن الأمطار هطلت كالسيل يوم ٢٧ ، وأصاب نابليون برد ، وأنهكه التعب بعد بقائه على ظهر جواده خمسة أيام ، ولزم فراشه . فلما ابتدأ العدو يلين تحت الضغط الفرنسي اعتبر نابليون أن مهمته انتهت ، وأرسل فى طلب جواده ، ثم ركب إلى درسدن والمطر يتساقط من معطفه الرمادى . وفى الساعة السابعة مساء كتب إلى القائد برتييه أن العدو لم يتقهقر بعد ، وأن كل القرائن تدل على أن وقعة عظيمة ستنشب فى اليوم التالى . وعلى رغم ما أتى به الغد من تكذيب النبوءة ، ترك نابليون أمر المطاردة لقادته ، وبقى فى درسدن ، على حين أن فرقة القائد فاندام (Vandamme) التى أرسلها لقطع خط الرجعة على العدو أحيط بها ، ودمرت عند كولم (Kulm) .

وفى أواسط سبتمبر نقص عدد الجيش الفرنسى فى سكسونيا من ٤٠٠,٠٠٠ إلى ٢٥٠,٠٠٠ مقاتل ، وتفشى الهروب ، وغصت المستشفيات بالمرضى والجرحى ، وازدادت مصاعب التموين بسرعة خطيرة ، ولاسيما بعد هزيمة ناى فى ٦ سبتمبر . وكان الأمل الوحيد أن يقع أحد الجيوش المتحالفة فى شباك نابليون ، فيقضى عليه قبل أن يصل الاثنان الآخران لإنقاذه . غير أن ذلك الأمل لم يتحقق ، وظل الإمبراطور شهراً يروح ويغدو بجيشه متخذا درسدن مركزاً له ، فأجهد نفسه وجيشه ابتغاء الالتحام مع العدو ، ولم يوفق إلى بغيته . هنا ابتدأ شىء من التردد يستولى على نابليون ، فلم يقطع بالتقهقر ، لكنه أكره آخر الأمر بفعل الحلفاء . ذلك أن بلوخر خرج من سيليسيا فى

الأسبوع الأخير من سبتمبر ، وعبر نهر الإلب ، واتصل في ٧ أكتوبر بالجيش البروسي السويدى تحت قيادة برنادوت ، منعطفاً من الشمال إلى خط رجعة نابليون ، على حين خرج شڤارزنبرج من الجبال البوهيمية ، ودار دورة بطيئة من الجنوب لمقابلته . رأى نابليون حين علم بهذه الحركة التطويقية أن يرسل مورا إلى ليبزج لإيقاف شڤارزنبرج ، وأن يحاول هو بالجيش الرئيسى أن يلحق الدمار بجيش بلوخر ؛ لكن سرعان ما ظهر أن بلوخر لا يقع فى الشرك . لذلك عُكست الخطة ، وفى يوم ٢ أكتوبر ، بعد أيام انقضت فى حيرة مؤلمة ، عزم نابليون على الانضمام بقوته إلى مورا ، وعلى هزيمة الجيش البوهيمى الزاحف من الجنوب على ليبزج ، قبل مجىء بلوخر وبرنادوت لنجدته . ودخل الإمبراطور ليبزج ظهر يوم ١٤ أكتوبر ؛ غير أنه انقضى يومان قبل أن يكون جيشه مستعدا للقتال ، فى صبيحة اليوم السادس عشر .

وتتخلص وقعة ليبزج فى أنها ملحمة من الملاحم التى يحارب فيها جيش ذو عدد محدود جيشاً تصل إليه الأمداد تباعا بعد ابتداء القتال ، فيظفر الجيش الثانى ظفرا مبيناً بسبب الإضافات المتتابعة لكتلته . بدأ نابليون القتال بجيش يبلغ عدده ١٩٠,٠٠٠ جندى ضد خصم عدد رجاله ٢٠٠,٠٠٠ ، أى أنه كان لديه فى اليوم الأول — وبالأخص فى الساعات الأولى من النهار — فرصة صادقة فى النجاح . فلو أنه وجه قواته إلى ليبزج — كما وجب عليه أن يعمل — بحيث يلتحم بجيش شڤارزنبرج يوم ١٥ ، لقابل جيشاً يقل عن جيشه بكثير ،

لعدم تكامل جموعه ، ولكان من المحتمل الانتصار ؛ أو لو أنه لم يترك نابليون ٣٠,٠٠٠ مقاتل فى درسدن تحت قيادة الجنرال سان سير (St. cyr) — وهو ما رفض الموافقة عليه قبلا — لتحسنت آماله فى النجاح . ومع هذا ، وعلى الرغم من فتور الهمة وتضارب الخطط التى امتازت بها الأدوار الأولى فى زحفه غرباً ، فإن ذكاءه عاد إليه . وفى ١٢ أكتوبر سبق نابليون النمساويين إلى الميدان ، ووقف برجاله مستعدا للقتال بالسرعة المعهودة ؛ غير أنه أخطأ التقدير فى مسألة حيوية ، ملخصها أنه على حين اشتعلت الحرب فى القرى الواقعة جنوب ليبزج ضد شفارزنبرج ، سمع نابليون فجأة دوى مدافع من شمال المدينة ، فركض إلى مصدر الصوت ، ووجد مارمون مشتبكاً مع بلوخر البروسى الهرم . ذلك أن بلوخر تقدم بسرعة نحو ليبزج من الشمال الغربى ، وابتدأ يصب جام ناره على المراكز الفرنسية بنشاط ، وبذا أضحى مستحيلا على نابليون أن يسحب رجلا واحداً لاستخدامه فى القتال ضد شفارزنبرج وهو القتال الذى اعتمد عليه للحصول على تفوق حاسم .

هكذا كان يوم ليبزج يوماً عصيباً ، ومذبحة لا تنسى . وما جن الليل على نابليون حتى كان رجلا مقهوراً ، إذ فشل فى تحطيم قلب الجيش البوهيمى ، أو بالحرى أخفق فى اختراق أى نقطة فى دائرة أعدائه . ولا غرابة فى ذلك ، فإنه بينما بلغت خسائر نابليون مبلغاً جسيما وصل شفارزنبرج مدد قوى بعد الظهر . فى مثل هذه الأحوال تصبح الضربة غير الحاسمة بمثابة هزيمة ، والقائد الحازم هو الذى

لا يضيع دقيقة فى تخليص جيشه من مأزق يزداد خطورة ويأسا من وراء التأخير ، ولشد ما دهش القادة الفرنسيون لما لم يصدر نابليون أي أمر للتقهقر . وفى اليوم التالى – يوم أحد ماطر – كتب نابليون وهو فى فسطاطه للإمبراطور النمساوى يقترح هدنة ، ويشير إلى التسليم . غير أن أعداءه أدركوا أنه أصبح فى قبضتهم ، فعولوا على ألا تفلت الفريسة من أيديهم ، ورفضوا المفاوضات . ولما استؤنف القتال فى اليوم التالى ، وهو الثامن عشر ، وقف كل الاحتياطى النمساوى فى الميدان ؛ وزحف برنادوت بجيش يبلغ ٦٥,٠٠٠ ، لمساعدة بلوخر فى الجهة الشمالية . ثم انجلى الجيش الفرنسى كرها عن ليبزج ، بعد أن طوقته جيوش متفوقة ، وبعد الاستبسال فى الدفاع عن كل شبر من الميدان . وفى الساعة الرابعة بعد الظهر أصدر الإمبراطور أوامره للتقهقر العام ، وظلت الجيوش الفرنسية تتدافع طول تلك الليلة نحو المدينة ، لكى تعبر نهر إلستر (Elster) فى صباح اليوم التالى . وفى ذلك اليوم وقعت الطامة الكبرى ، واندفع سيل الهاربين فى هرج لا يوصف ، نحو الجسر الوحيد . هناك قابل القائد شاتو (Chateau) حوالى الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم ، رجلا « غريب البزة » وسط جمع صغير ، وعليه سيما أهل المدينة ، مطرقا رأسه ، سابحا فى بحر من الفكر ، يردد أنشودة « ما لبروك ذهب يحارب »[1] . ذلك الرجل الغريب البزة

---

(١) أنشودة فرنسية مشهورة مطلعها :

"Malbrouk s'en va-t'en guerre'
Mironton, mironton, mirontaine."

هو الإمبراطور بعينه ، يردد الأنشودة القديمة ، بينما يمرّ سراعاً فى مخيلته ذلك المنظر المؤلم — منظر جيشه المحطم المفلول .

لم يبق بعد ليبزج إلا التسليم للظافر ، لأن هيكل الإمبراطورية تقوض من جراء هذه الهزة المركزية . إذ هبت ألمانيا لتطرح نير نابليون ، وانقلب البافاريون من أحلاف إلى أعداء وحاربوا الجيش المتقهقر ؛ وأعلنت هولندا ولاءها لآل أورانج ، وعقدت نابلى معاهدة مع النمسا ، وتبدد حلم المملكة الفرنسية فى إسبانيا ، حين طارد ولنجتن القائد سولت على جبال البرانس . واشتدت الرغبة فى الصلح فى جميع أنحاء فرنسا لأن الطبقات الغنية والمتنورة من الأمة نظرت منذ سنين لأعمال نابليون بعين القلق والاستهجان ، حتى إذا فنى جيشان عظيمان فى سنتين ، وتعطلت المصانع ، وخلت خزائن الحكومة ، وأصبحت الدولة مهددة بالغزو من الخارج ، أحس كل عاقل إحساساً شديداً بالنقمة الناتجة عن العبودية السياسية . ثم على الرغم من أن كتلة الفلاحين والجنود مالت منذ أول الأمر لفكرة الإمبراطورية ، فإن الطبقة المفكرة من الأمة بدأت تستسلم للآراء الحرة ، وتنادى بصلح مشرف ، وبسيطرة الأمة على السياسة العامة . وصرحت الهيئة التشريعية المكونة من رجال عاديين من الطبقة الوسطى بعدم ثقتها بالحكومة ، وبرغبتها فى الحرية الدستورية ، فأوقف نابليون المجلس الجسور عند حده بتأنيب عنيف ؛ بيد أن الدول المتحالفة لمحت من ذلك أنه لم يعد بين نابليون وفرنسا وفاق .

هناك صنف من الناس يأبى التفكير أو الاعتراف بالإهانة ؛

لكن نابليون اعترف فى ساعاته الهادئة[1] بأن اتحاد الرين كان «مشروعاً رديئاً» ، وبأن الحصار القارى كان «وهماً فارغاً» ، وبأن الإمبراطورية العظمى نعيم زال ولا يمكن استرداده أبداً . ولكن عزة نفسه أبت أن تقبل تحكيم ضميره لما قال يوماً — وهو إمبراطور — لمجلس الدولة وهو يحاوره : «أتريدون الهبوط من السماء التى رفعتُ فرنسا إليها ، وتصبحون ملكية بسيطة مرة ثانية بدلا من إمبراطورية فاخرة ؟» عز عليه أن يترك فرنسا أضعف مما جعلها ، أو مما وجدها . ولما جالت فى فكره مسألة تخلى أحلافه عنه فى ساعة الحرج استولت عليه سورة الغضب ، وأقسم أن لا بد من الانتقام ، إذ قال : «لتحرق ميونخ ، ولتحرق على يدى»[2] . وعزم فى حالة اضطراره إلى التسليم ألا يستكين للإهانة زمناً طويلا ، بل يستعد فى مدة عامين للحرب ثانياً . وما دام هناك بصيص نجاح فى ميدان الحرب ، فسوف يتجنب ذلة المصالحة ، ويعتمد على الغلطات الحربية التى يحتمل وقوع أعدائه فيها ، وعلى احتمال تخلى النمسا ، وعلى البسالة التى تنفجر عند ما ترى الأمة الفرنسية بلادها تغزى . لذلك جعل خطته التسويف والمماطلة فى المفاوضات ، حتى يظهر أمام الشعب الفرنسى بمظهر المستعد للصلح بينما يتربص للنكاية بأعدائه عند أول فرصة .

أدى هذا التصلب فى طبعه إلى خرابه ، لأن خطة الحلفاء لم تطلب

---

(١) أى وهو فى جزيرة سنت هيلانه .

(٢) كانت ميونخ وقتذاك عاصمة بافاريا التى انقلبت على نابليون بعد واقعة ليبزج .

فى الأصل تنازل نابليون عن العرش ، أو تغيير الأسرة المالكة . والدليل على ذلك أن الحلفاء بعثوا ، فى نوفمبر سنة ١٨١٣ م ، من فرنكفورت رسولا إلى باريس، ليعرض المفاوضة مع نابليون ، على قاعدة الحدود الطبيعية لفرنسا : وهى نهر الرين وجبال الألب وجبال البرانس . وفى ٤ فبراير سنة ١٨١٤م ، بعد أن احتجت فرنسا ، ووقعت أول هزيمة بالجيوش المدافعة ، كان فى مقدور نابليون أن يحفظ عرشه ، لو أنه قبل التنازل عن بلجيكا وسافوى ، والموافقة على حدود الملكية القديمة ؛ وكان واجباً على نابليون أن يصيخ لصوت فطنته الشخصية ، ويستمع لنداء الواجب الوطنى لعقد الصلح .

حدث بعد تقهقر نابليون إلى فرنسا وهزيمته عند لا روتيير (La Rothière) ، فى فبراير، أن ظهر عليه كأنما قر رأيه على أن يطأطئ الرأس : إذ خول القائد كولانكور (Caulaincourt) سلطة غير محدودة للمفاوضة مع الحلفاء . لكنه رؤى فى صبيحة اليوم التالى ممتداً على أرض غرفته يرقش مصوراً بالدبابيس ، إذ بلغه فى المساء أن الحلفاء قسموا قواتهم إلى فرق ، وأن شڤارزنبرج سوف يزحف بالجيش الرئيسى إلى باريس ، متبعاً الطريق الجنوبى المحاذى

---

(١) لحقت الهزيمة بنابليون عند هذه البلدة الفرنسية الواقعة ، على نهر أوب (Aube) أحد فروع السين ، فى فبراير سنة ١٨١٤ م ، إذ وقع من جيشه ٣٠٠٠ فى الأسر ، وخسر ٧٣ مدفعاً ، فضلا عن ٥٠٠٠ جندى بين قتيل وجريح من جيش يبلغ عدده أربعين ألفاً فقط .

لنهر السين ، على حين يسير بلوخر على رأس قوة أصغر مكونة من من البروسيين شمالا إلى وادى المارن . فلما جاء ماريه – وزير الخارجية الفرنسية – للتوقيع على التعليمات الصادرة للسفير المكلف بمفاوضة الحلفاء ، لمح بريق الحرب فى عين نابليون حين قال : « إنى عازم على هزيمة بلوخر » . لكن على الرغم من تحقيق ظنه ، وإحراز ثلاثة انتصارات باهرة ، فإن هزيمة بلوخر أفقدته عرش فرنسا .

استحقت الحرب الدفاعية التى قام بها نابليون فى وديان السين والمارن[1] كل إعجاب ، إذ ظهر فيها كيف يتمكن جيش صغير ، يدير حركاته قائد ماهر واسع الخبرة ، يتحرك على خطوط داخلية ، من إلحاق الهزيمة تلو الهزيمة بعدو يفوقه عدداً ، تعوزه قيادة موحدة . ومن هذا الانقضاض السريع على بلوخر عند تروى (Troyes) ، والثلاث الضربات المتوالية عند شامبوبرت (Champaubert) ومونميراى (Montmirail) وفوشان (Vauchamps) التى أفنت مقدمة الجيش البروسى على طول نهر المارن ، ثم الانتصار على الطلائع الجنوبية عند مونتيرو (Moetereau) . ودلت هذه الأعمال التى استغرقت من ١٠ إلى ١٧ فبراير على أن الإمبراطور لم يفقد شيئاً من فنه القديم ، ولكنها على رغم إيقافها تيار التقدم مؤقتاً ، لم تكف لتقرير انتصار أحد الفريقين . عند ذلك عزم أحد أعداء نابليون – وهو بلوخر –

(١) انظر مصور فرنسا للتحقق من ميادين هذه المرحلة النهائية من حروب نابليون .

أن يفتح لجيشه طريقاً مهما يكلفه الأمر؛ ولم يكن باوخر نابغة فى فنون الحرب بل جندياً غليظ القلب أمياً، يتأجج قلبه الوطنى بالانتقام للمذلات التى لحقت ببروسيا . فلم يأبه للاضطراب الذى ساد المعسكر النمساوى ، ووقف لا يتزعزع ، ولا يستكين للهزيمة ، بل تقدم نحو الشمال الغربى ، وانضم إلى جيش بروسى — روسى قادم من بلجيكا تحت قيادة بولو (Bulow) . وبهذه الإمدادات دفع بلوخر نابليون إلى كراؤون (Cranuce) ولاون (Laon)، فأصبح بذلك فى مركز يسمح له إما بالزحف على باريس، وإما بالانضمام إلى الجيش الجنوبى . اختار بلوخر الطريق الثانى ، وبينما تقهقر نابليون شرقاً ليهدد خطوط مواصلات العدو ، اصطدم عند أرسيس — سير — أوب (Arcis-Sur-Aube) بالجيش الرئيسى لأعدائه . ومن المستحيل على ثلاثين ألف مقاتل — أعياهم التعب — أن يظهروا على مائة ألف هم فى الواقع أحسن استعداداً . لذلك صُدّ نابليون، لكنه على الرغم من ذلك واصل سيره شرقاً بضعة أيام بدت فيها قدرته العظيمة ، إذ يقول بعض النقاد باستحالة اتباع أية خطة أكثر ملاءمة من الخطة التى هيأها نابليون فى الأيام السابقة مباشرة لوقعة أرسيس ، لأنه بجمعه حاميات الألزاس واللورين استطاع تكوين جيش قوى يقطع به مواصلات الحلفاء، ويزيد فى انقسامهم . غير أن الخطة نفسها أهملت، بمجرد سماعه أن الغزاة يزحفون على باريس ، إذ عزم على الاشتباك فى آخر واقعة له قرب العاصمة ، لكن الغزاة سبقوه إليها بثلاثة

أيام، وسلمت باريس لقيصر روسيا، قبل أن يتمكن نابليون من دخولها .

ولما حيل بين نابليون وبين العاصمة على ذلك الوجه ارتد إلى قصر فونتنبلو (Fontainebleau) قرب باريس، متشوقاً — لو وافقه قادته — إلى استمرار النزاع ضد سلام أوربا ، وضد المصالح الحيوية فى فرنسا . لكن القادة سئموا حالة قل فيها الرجاء، فأرادوا الاطمئنان على مستقبلهم قبل ضياع الفرصة . وليس من الممكن أن نعتبر هؤلاء الرجال القادرين المخلصين مجرمين، حين أشاروا على نابليون بالتنازل، لعلمهم أن ملوك أوربا أرادوا ذلك ، وأن مجلس الشيوخ قرر نفس الطلب ، وأن جمهور الباريسيين متفق معهم . وظن أولئك القادة أن يسمح للإمبراطور بالتنازل لولده ، وأن تبقى الأسرة النابوليونية حاكمة فى فرنسا . لكن القيصر الذى استولى تاليران على أذنه للتشفع لآل بوربون ، قرر أن يطلب من نابليون التسليم بلا شرط . ثم قبل القادة القرار بعد أن حاولوا تعديله بلا جدوى ، وألحوا على سيدهم لكتابة تنازل عن عرش فرنسا وإيطاليا فى ٦ أبريل ؛ وبعد ذلك بخمسة أيام أمضيت معاهدة تمنح نابليون السيادة على جزيرة إلبا ، وحرساً خاصاً، ومخصصاً مالياً . قيل إن نابليون تجرع سماً ليلة رحيله من فونتنبلو إلى جزيرة إلبا ، لكن التاريخ يكذب تلك الرواية، فمثل ذلك القنوط لم يكن من خلق رجل عرك الدهر ، ودرس كثيراً من مصادفات الأقدار ، وشعر فى أشد الأيام محنة أن عمله لم ينته بعد ، وهو الذى قال يوماً : «سأظل دائماً رجلا فوق مستوى البشر» .

بينما يسير نابليون جنوباً مخترقاً ولاية بروڤانس الملكية تشيعه اللعنات ، إذا برجل هرم شرس دميم مثقل بداء النقرس ، أقام مدة فى مزرعة جميلة بين المراعى الخضراء فى مقاطعة بكنجها مشير بإنجلترا ، يتأهب لتولى الحكم فى باريس[1] .

---

(١) يشير المؤلف إلى لويس الثامن عشر ، ملك فرنسا بعد نابليون .

الفصل العاشر

الدور الأخير

تعتبر الحلقة التالية فى حياة نابليون أغرب حوادث التاريخ . إذ أمضى نابليون أوائل هذه الحلقة عشرة شهور يحكم مملكته الصغيرة فى جزيرة إلبا ، ثم ما لبث أن انسل فجأة بطريق البحر ، ونزل إلى شاطئ فرنسا على رأس ١٢٠٠ رجل ، وسار متجنباً أهل بروفانس الملكيين ، مخترقاً الممار الجبلية حتى جرينوبل (Grenoble) ، ومنها أسرع إلى پاريس دون وقوع حرب أو مناوشة ، وبدون تبادل إطلاق النيران ، أو إراقة قطرة من الدماء ، فوصلها وتسلم مقاليد الدولة فى فرنسا مرة أخرى . وهنا لا يفوتنا أن نذكر أن الجيوش التى أرسلت لرده عن باريس انضوت إليه ، بتأثير شخصيته الساحرة ، وتفصيل ذلك أنه لما وقف رجال الفرقة الخامسة فى طريقه عند ممر لافريه (Laffray) الضيق — فى الجهة الجنوبية لبلدة جرينوبل — جاء إليهم نابليون فاتحاً معطفه الرمادى ، وطلب إليهم أن يطلقوا النار عليه ، قال : « أيها الجنود ! يمكنكم أن تطلقوا ناركم . ألا ترون فى عاهلكم؟ ألست قائدكم القديم ؟ ليس الطمع هو الذى حدا بى إلى هنا ، وإنما



انضمام فرقة من الجيش الفرنسى لنابليون بعد عودته من جزيرة إلبا

[رسم شتويبن]

طلبني من جزيرة إلبا الخمسة والأربعون رأساً المتولية أمر الحكم فى باريس ، فضلا عن ثلاث الدول الأولى فى أوربا وهى التى وافقت على رجوعى » . عمى الناس عما ورد فى قوله من الأضاليل ، وقابلوه على طول الطريق بحماسة شديدة ؛ فلو كان الأب البار بعشبه ، وقضى السنين الطوال فى السهر على حل ضائقة العسر عن الفقراء ، لما كان من الممكن مقابلته بأكثر تهليلا ، كأنما نسى الناس فجأة ضرائب أيام الحرب والحصار ، وضحايا النفوس . وبالاختصار افتتن الناس على اختلاف أصنافهم وطبقاتهم بحديثه معهم ، لا سيما عند ما خرج من عربته ليعانق حداداً جمهورياً كهلا ، وليحاور تلميذاً فى تاريخ بلده ، وليتكلم مع أديب باهتمام عن ترجمة سترابون[١] ، ومع بعض المحامين عن عزمه على إصلاح قوانينه . وعندما تسربت إلى باريس أخبار تقدمه الناجح ، وعدم القبض عليه ، انقلب غضب الملك لويس الثامن عشر قلقاً وفزعاً وقنوطاً . وما وصلت عربة نابليون إلى قصر التويليرى — مساء ٢٠ مارس — حتى اختفى الملك الهرم وحاشيته عن باريس ، وترك المدينة لرجال الإمبراطورية .

لا يرجع السبب فى هذه المعجزة إلى مؤامرة مدبرة ، وإنما فر

(١) المؤلف استرابون (Strabon) الجغرافى الإغريقى الشهير كتابان عظيمان أحدهما تاريخى ، ويشتمل على ٤٧ كتاباً لم يصلنا منها إلا القليل ، والآخر جغرافى ويشتمل على ١٧ كتاباً . فى وصف بلاد الدولة الرومانية وأخلاق أهلها وعاداتهم ، ونظام الأمم الخاضعة لها وتقاليدهم .

نابليون من إلبا ، لأنه حفظ بين جوانحه من النشاط ما لم يكن فى الحسبان ، ولم يجد فى الأمور التافهة الخاصة بمملكته الصغيرة ما يستنفد ذلك النشاط . ونجح نابليون فى الوصول إلى باريس ، لأن طبقتين من الناس — الجنود والفلاحين — أحبتا أن تريا الحكومة البوربونية تجازى جزاء وفاقاً على ما اقترفت من أعمال . وليس معنى ذلك أن حكومة لويس الثامن عشر بدت فاسدة أو مستبدة ، بل إن سياستها قامت على توطيد السلام وتخفيض النفقات . إذ منحت بمقتضى دستور مكتوب نصيباً من الحرية السياسية والمدنية ، وهو نصيب أكبر مما تمتع به الناس على عهد نابليون . إذن لا يحق لأحد أن يتهمها بسوء النية ، أو تعطيل نهوض الأمة . لكن عدم استنادها من أول الأمر إلى تأييد الأمة جعلها تثير الشعور القومى ضدها ، بسبب سلسلة من الأعمال غير الحكيمة . فمثلا أغضبت الجيش باتباع سياسة متطرفة فى تقليل النفقات ، وأغضبت الفلاحين بترويج الإشاعات القائلة بأن نظام توزيع الأرض الذى أحدثته الثورة سوف ينسخ عما قريب .

بإزاء هذه الحكومة الرجعية الجامدة التى تولتها عصبة من الملكيين ، لاح نابليون كأنه بطل الثورة الفرنسية وما أحدثته فى فرنسا من التغييرات ، إذا علم كل فلاح فرنسى أن « الأونباشى القصير » لن يطلب منه أن يرد الأرض التى تملكها الملتزم ورئيس الدير قبل الثورة ؛ وأنه مهما تكن الخسائر التى تنتج عن الحكم الإمبراطوى ، فلا خوف على الأقل من القسيس والمهاجر فى ظل نابليون ابن الشعب ، وهو الذى يفهم عقولهم ،

يعرف ما تكنه قلوبهم ، والذى زينت صورته كل دار ، وأحاديث انتصاراته تروى وتردد فى كل مكان ، حتى أصبح مثل شارلمان جزءاً من الأساطير القومية ، يدعى بألقاب إعزاز طريفة ، وتؤلف حول شخصه قصص لا تحصى. أما حكامها الملكيون فهم على عكس ذلك ، لا تعرف عنهم فرنسا سوى أنهم عاشوا خمسة وعشرين سنة منفيين محتجين على أعمال الثورة الفرنسية ، وأنهم عميت أبصارهم عما أتته الإمبراطورية من الأعمال الجليلة . وعلى الرغم من كل ما أوتى شاتوبريان (Chateaubriand) من البلاغة فى أسلوبه الذي يأتى فى المرتبة الثانية بعد أسلوب روسو أكبر ملوك البيان فى النثر الفرنسى ، فإن الأسرة القديمة لم تصادف هوى فى قلوب الناس : إذ كرهها البعض لسالف تاريخها ، واحتقرها البعض الآخر لماضيها السيء ، وخشيت الأكثرية ما عساه أن تعمل إذا هى تسلمت مقاليد الأمور . أجل ! لم يكن هناك خوف على الدستور فى عهد لويس الثامن عشر ؛ لكن الكونت دارتوا أخا الملك — والوارث للعرش — متعصب دينى ضيق الأفكار ، مبدؤه السياسى الحكم المطلق ، الخاضع لأشد طبقات

---

(١) هاجر شاتوبريان (Chateaubriand) من فرنسا إبان الثورة الفرنسية ، وظل عدة سنين يعيش عيشة ضيقة فى لندن . ثم تمكن من العودة لباريس سنة ١٨٠٠ م ، واشتغل بالكتابة والتأليف حتى أصبح ممن يشار إليهم بالبنان . ودخل شاتوبريان فى خدمة نابليون ، ثم استقال من منصبه بسبب إعدام دوق دانجيان ، وأخذ يتنقل بين دول الشرق . ولما سقط نابليون رجع شاتوبريان إلى فرنسا ، ثم عين سفيراً لفرنسا فى إنجلترا على عهد لويس الثامن عشر ، ومات عام ١٨٤٨ م .

الكنيسة تعصباً .

وجد نابليون ضالته فى هذه الأحوال التى ملأت الرأى العام من الريبة والسخط ، فأخذ يجوس خلال الأوساط المختلفة يتكلم أحياناً بلغة اليعقوبيين ، وأحياناً بلغة الأحرار ، مما يروق سامعيه . وأعلن نابليون للفلاحين أنه يقف حياته على درء أخطار المبادئ الإقطاعية والدينية ، ولأهل المدن إنه فاتح اعتزل الحرب ، وأنه نادم على ما فعل ، ممتلئ قلبه بحب الحرية والسلام . ولما وجد أن لا شيء يخشاه الناس بوجه عام أكثر من ذكر الحرب مرة أخرى ، صور نابليون نفسه للناس رجلا ارتكب بلا شك أغلاطاً أوحى بها الطمع ، وأضاع حياته فى فتوح خارجية زائفة ، وسياسة داخلية أخمدت أنفاس الناس . وأبان نابليون أن المثل الأعلى الذى سعى لتحقيقه مدة حياته هو تكوين اتحاد أوربى بقيادة فرنسا ، وأنه ليس من العدل أن يحكم الناس عليه بما أقامه من نظم وسط مشاغل الحرب وأهوالها ، أو على السياسة التى تطلبتها أحوال متقلبة . وقال إنه تاق إلى جعل فرنسا سيدة أوربا ، لكن النكبات التى حلت به علمته أن ذلك المطمع الذى سبقه إليه الكثيرون فوق المستطاع . على أن جزءاً لم يتحقق بعد من برنامجه ، لا يزال ممكناً إنفاذه ، وهو إعطاء فرنسا سلسلة من النظم الحرة التى تأجلت بسبب صعوبات الحرب . وبفضل هذه التصريحات وأشباهها التى فاه بها نابليون فى هذه المرحلة من حياته ، قبل كارنو (Carnot) الجمهورى القديم أن يتولى وزارة الداخلية ،

ولبى بنيامين كونستان (Benjamin Constant) – كبير علماء شرائع الأمم ، وزعيم حزب الأحرار – دعوة نابليون لرسم دستور جديد .

لو أن الإمبراطورية استطاعت أن تتمشى حقاً مع الحرية والسلام ، لما وجدت الأمة الفرنسية حكومة أوفق لحاجاتها منها . وليس أدل على ذلك من أنه بعد وفاة نابليون – بزمن طويل – ظلت نظم الكنيسة والقوانين النابليونية والجامعة الفرنسية كما تركها مهندسها الأعظم ، كما ظلت التقاليد الفرنسية نابوليونية تحت حكم ولاة نبذوا ما للإمبراطورية النابليونية على الفرنسيين من الحقوق . إنما الذى قلل من عظمة نابليون هو الشك – الذى تحول اعتقاداً راسخاً بين الفرنسيين – بأن الحرب والاستبداد جزءان لا يتجزآن ولا يتغيران فى طبيعة نابليون . ولذا رأى نابليون بعد عودته من إلبا أن محو ذلك الاعتقاد أول ما يمليه الحزم ، فأحاط مبادئه الحرة الجديدة برضى الأمة من طريق الاستفتاء العام ، وبالهيبة التى تنتج عن الاحتفال فى باريس بنزوله على إرادة الأمة . وفى أول يونية سنة ١٨١٥م، وفى وسط جمع كبير دعى إلى شان دى مارز (Champs de Mars) بباريس ، أقسم الإمبراطور يمين الطاعة للدستور الجديد، وهو دستور ضمن حرية الصحافة ، ومسئولية الوزارة ، والحكم النيابى . لكن الرسميات والاحتفالات لا تغير الحقائق التى منها أن وجود مجلس نيابى حر ووجود نابليون أمران لا يتفقان ، وبدليل عزم الإمبراطور برغم قبوله الدستور

الجديد أن يحل الهيئات النيابية فى أول فرصة يوفق فيها للانتصار فى الميدان — كما نوه فى سنت هيلانة .

ثم إذا ساور الأمل نابليون أن أوربا سوف ترضى رضاء سلبياً عن رجوعه ، بعد ما قضت السنين الطوال وبذلت المهج فى سبيل إخضاعه، فإن ذلك الأمل لم يلبث أن أضحى سراباً ، إذ لم تكد أنباء فراره تصل إلى ڤينا حتى اجتمع المفوضون عن الدول الثمانية الكبرى ، وقرروا أن نابليون أصبح طريد القانون . بعد ذلك مباشرة تعاقدت بريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا على أن تجهز كل منهما ١٥٠,٠٠٠ جندى إلى الميدان، وأن تبقى هذه الأعداد الضخمة تحت السلاح « حتى يصبح بونابرت عاجزاً تماماً عن تكدير صفو الأمور من جديد» . بيد أن نابليون على الرغم من ذلك كله لم يعدم الأمل من فصل إنجلترا والنمسا عن حلقة أعدائه . وقوى ذلك الأمل فى قلبه علمه أن مشادة وقعت فى مؤتمر ڤينا بخصوص مصير بولندا وسكسونيا ، وقعت الروسيا حيالها فى جانب ، وإنجلترا والنمسا وفرنسا فى جانب آخر . وعلى الرغم من تسوية المسألة بسلام ، حسب نابليون أن الشعور بالتباغض والارتياب لم يزل قائماً ؛ ولذا أرسل إلى النمسا وبريطانيا كتباً يؤكد رغبته فى إقامة السلام ، وقبوله الحدود المقتضبة التى أصبحت لفرنسا ، فلم تقبل إحدى الحكومتين وعوده . الحقيقة أنه لو أن فرصة سنحت لتغيير موقف النمسا ، فإن تلك الفرصة ضاعت فى إبريل حين قام يواقيم مورا ملك نابلى من تلقاء نفسه ، وغزا الولايات البابوية ،

داعياً الأمة الإيطالية إلى الثـــورة ، وإلى قبوله ملكاً على إيطاليا كلها .

ثم انفصل النزاع بين نابليون وأوربا فى بلجيكا ، حيث اجتمعت طلائع جيوش الحلفاء المكونة من إنجليز وهولنديين وبلجيكيين وألمانيين تحت قيادة دوق ولنجتن ، ومعها جيش بروسى بحت ، مصدر قوته بلوخر ، ورأسه المفكر جنيسناو (Gneisenau) . ذلك أنه تحتم على نابليون أن يطلب عدوه فى بلجيكا ، حتى ولو اضطر إلى ذلك بجيش قليل العدد . لأن من الحمق من الوجهة الحربية ، ومن الخطر من الوجهة السياسية كذلك ، أن ينتظر فى فرنسا حتى تعبر إليه جيوش الحلفاء . ورأى نابليون أن فرصته تتركز فى هزيمة البروسيين والإنجليز ، قبل أن تتأهب جموع الروسيين والنمساويين للنزول إلى ميدان القتال . وعلى الرغم من أن الجنود الذين اجتمعوا إليه لم يزد كثيراً على نصف عدد جنود العدو — إذا استثنينا الجنود التى خصصت للاحتياطى ضد قيام فتنة فى إقليم لاڤنديه، ولحماية الحدود الفرنسية — فإن هذا الجيش الفرنسى على صغره تألف من جنود لايقلون فى دربتهم ولا فى نفسيتهم عن أى جيش قاده نابليون . ولذلك لم يكن مستحيلا أن يهزم نابليون بذلك الجيش أعداءه هزيمة منكرة ، وأن يستولى على الأراضى المنخفضة ، وأن يثبت ثقة فرنسا به . لذلك أيضاً أعد نابليون منشورات محررة فى بروكسل ، لإرسالها من هناك إلى مختلف العواصم الأوربية ، بعد الانتصار .

لم تنشر تلك المنشورات . غير أنه لو انتصر نابليون فى واترلو ، لما أمكن تلافى النكبة التى لم يكن لوقوعها بد . ذلك أن الكتلة العامة لجيوش الحلفاء — مع العلم بأن القوات المرابطة فى بلجيكا لم تتعد جزءاً صغيراً منها — بلغت ٦٠٠,٠٠٠ مقاتل ، تظاهرهم قوات احتياطية لا حد لها من الأمم الأوربية الحاقدة ، وهى قوات كفيلة بهزيمة نابليون على أية حال ، مهما استطاعت فرنسا أن تستعيد من حماستها التى جاشت بها إبان الثورة ، ومهما استطاع نابليون أن يستعيد من النشاط الذى ملأه فى حداثته ثم إن الحال صارت إلى غير الحال ؛ ففى سنة واترلو بدت فرنسا — إذا استثنينا جيشها الرسمى الصغير — أمة زالت عنها الأوهام ، وبدا نابليون اليوم غيره بالأمس . نعم إنه ظل مدهشاً فى نشاطه وحسن تصريفه ؛ لكنه أقل ثقة بنفسه ، وأقل شدة ، وأقل تدقيقاً عنه من قبل . ثم لم يكن من المنتظر أن تشايعه أمة ، أصبح الرأى السائد بين الطبقات الوسطى فيها المناداة بالسلم والحرية ، بمثل ما شايعته به قديماً من الثناء . ولم يكن الرديف الذى جنده بسرعة — من البحارة والشرطة والحرس الأهلى وحرس الجمارك — مما يصلح لإمداد الجيش فى ساحة القتال — مع العلم أن نابليون لم يستطع — برغم ما بذل من مجهود — أن يحصل على أكثر من ٨٤,٠٠٠ رجل . ظاهر إذن أن واقعة واترلو ليست إحدى الوقائع العالمية الحاسمة ، التى لو أسفرت عن غير ما أسفرت لتغير مجرى التاريخ . فإن نابليون أمسى رجلا مقهوراً قبل أن تدوى أول طلقة . غير أن الوقعة معروفة

بأنها الحادثة الوحيدة التى وضعت نابليون فى مواجهة أستاذ عظيم فى حرب المشاة ، وبأنها الوقعة التى انتهت عندها سيادة فرنسا فى أوربا ، والتى ختمت ذلك النزاع الطويل الذى قام بين مبادئ الثورة الفرنسية والتقاليد الأرستقراطية والكنسية الموروثة عن العصور الوسطى .

أما العامل الأكبر فى وقعة واترلو ، فهو التفوق العددى الهائل فى جيوش الحلفاء ، حيث استحال على الفرنسيين الانتصار على قوات بلوخر وولنجتن مجتمعة . واستقرت خطة نابليون أن يقطع وسط الخط البروسى الإنجليزى الممتد على طول الحدود البلجيكية ، وأن يقضى على ما يأتى فى طريقه من أيهما . امتازت الأدوار الأولى فى هذه الخطة بالسرعة والتكتم والدقة ، ففى مساء ١٤ يونية اجتمع الجيش الفرنسى بجوارشارلروا[١] ، على حين ظلت القوى الإنجليزية والبروسية مبعثرة على خط يبلغ طوله مائة ميل ، من لييج إلى غنت . هنا حدث تأخير لم يكن بذى خطر كبير على آمال نابليون فى النجاح، غير أنه أفاد أعداءه فائدة كبيرة . ذلك أن عبور نهر سامبر (Sambre) ، الذى وجب القيام به بعد ظهر يوم ١٥ لم يتم إلا ظهر اليوم التالى ، ولذا لم ينزل نابليون للقتال — فى اليوم السادس عشر — حتى أحاط الحلفاء بخطته علماً . فأسرعت الجيوش الإنجليزية والبروسية للاتصال

(١) انظر مصور رقم ٧ — بلجيكا — للتحقق من ميادين خاتمة الحروب النابليونية .

بعضها ببعض لمنع تقدمه ؛ ولم يحن ظهر اليوم إلا بعد أن جمع بلوخر عند لنيي (Ligny) ثلاثاً من الفرق الأربع المؤلفة منها جيشه (البالغ عدده ٩٠,٠٠٠ تقريباً) ، على حين أرسل ولنجتن الأمداد بسرعة إلى كاتربرا (Quatre Bras) ، على مسافة ستة أميال تقريباً غربى الخطوط البروسية ، الممتدة على طريق بروكسل — شارلروا . وفى صباح ذلك اليوم قابل دوق ولنجتن القائد البروسى ، ووعده بالتقدم لمساعدته إن هو لم يهاجم .

من خصائص القائد العظيم أن يهيمن على حركات جيشه ، بحيث يتمكن بسرعة من أن يجعل مركزه ملائماً لأى موقف من المواقف الفجائية المحتمل وقوعها . رجع نابليون إلى معسكره عند شارلروا الساعة الثامنة مساء اليوم الخامس عشر منهوكاً ، لبقـــائه ممتطيا جواده سبع عشرة ساعة . غير أن قلبه دق طرباً لعلمه أنه نجح فى عبور نهر سامبر ، وأنه رد إلى الوراء المراكز العسكرية الأمامية التابعة لفرقة تريتن (Zieten) البروسية ، التى أرسلت للتحمية عن موقف الحلفاء . وفيما عدا ذلك لم تكن لدى نابليون معلومات وثيقة ، سوى أن الفرق البروسية الأربع مبعثرة على مساحة واسعة ، وأنه لا يحتمل التئامها بسرعة للقتال فى اليوم التالى . ولذلك قسم جيشه قسمين ، نصب القائد ناى على الجناح الأيسر ، والقائد جروشى (Grouchy) على الجناح الأيمن ، وأبقى تحت قيادته احتياطياً يمد به أحد الجناحين حسبما تستدعى الأحوال . ثم صدرت الأوامر إلى القائد ناى ليكون

على تمام الأهبة للتقدم نحو بروكسل عن طريق شارلروا ، وأعطيت تعليمات إلى جروشى للزحف على فلوريس (Fleurus) ، ولمهاجمة من يجد هناك من البروسيين . اعتقد نابليون أن البروسيين لن يتيسر لهم الوقوف أمام زحف جروشى بأكثر من أربعين ألف مقاتل ، وأن ناى سوف يلقى صعوبة قليلة فى اختراق المراكز الأمامية الشرقية التابعة للجيش الإنجليزى الهولندى . ومن ثم تتحول الحال العامة بطبيعتها إلى أحسن ما يرام ، إذ بعد تحطيم الفرقة البروسية غير المحمية عند فلوريس ، بفضل تفوق الفرنسيين عليها فى العدد يتحول الإمبراطور غرباً لمساعدة ناى ، ويدخل بروكسل فى صبيحة اليوم السابع عشر ، ومن هناك يتقدم للقضاء على الجيش المختلط تحت قيادة دوق ولنجتن .

وعلى الرغم من إخفاق ذلك التقدير إخفاقاً تاماً ، بسبب سرعة التئام جيش بلوخر ، جعل نابليون خططه بحيث يمكن تسويتها مع كفالة نجاحها أكثر فى الأحوال الجديدة . ذلك أنه عندما وجد نفسه عند ليينى أمام الجيش الرئيسى البروسى المؤلف من تسعين ألف مقاتل — لا أمام جزء منه مكون من أربعين ألفاً — قر رأيه على تطويق عدوه ؛ وأرسل إلى ناى يأمره أن يتحول بجيشه — أو على الأقل بجزء منه — عن الطريق المؤدية إلى بروكسل ، وأن ينقض على جانب البروسيين ومؤخرتهم ؛ وقرر نابليون كذلك أنه على حين يقوم ناى بذلك ، يشتبك هو على رأس ستين ألفاً مع البروسيين ليحيط بجناحهم الأيسر ، ثم ينقض على جناحهم الأيمن وقلبهم . بدأت هذه الخطة فى الساعة الثالثة ، حين

قال الإمبراطور لجيرار[1] : « من الممكن أن يتقرر مصير الحرب بعد هذه اللحظة بثلاث ساعات . وإذا نفذ ناى أوامرى بدقة ، فلن يفلت من يده مدفع واحد من مدافع الأعداء » .

كاد يتقرر مصير الحرب فى ميدان ليني ، حيث وقعت خاتمة انتصارات نابليون وأشدها فى العنف ، ممـــا نقش فى قائمة الملاحم العنيفة التى اشترك فيها ، إذ انجلى البروسيون عن مراكزهم فى الساعة العاشرة «مدحورين اندحاراً لا يتصوره العقل » كما تنبأ لهم دوق ولنجتن ، غير أنهم ظلوا قوة متماسكة قادرة على التقهقر فى ترتيب وانتظام . وعند الغروب وجه نابليون فرقة الحرس نحو قلب الجيش البروسى حتى أجلاه عن الميدان ، لكنه لم يحرز النصر المنشود . ويرجع السبب فى ذلك إلى سلسلة طويلة من الغلطات اضطرته إلى الاشتباك فى المعركة ، دون أن تصله مساعدة رجل واحد من مركز قيادة ناى . وأول هذه الغلطات أن القائد ناى — الشجاع المملوء نشاطا — تقدم على طول طريق بروكسل بتأنيه المعهود ، فجر عليه تأنيه النكبـــات هذه المرة .

---

(١) خدم جيرار (Gérard) فى الجيش الإمبراطورى متطوعاً ، وأظهر مهارة فائقة . ولما عاد نابليون من جزيرة إلبا قاد جيرار فرقة فى لنى ، وجرح فى وافر . وبعد سقوط نابليون ، أبعدت الحكومة الجديدة هذا القائد المتحمس للإمبراطورية عن فرنسا ، ولم يتمكن من العودة إليها حتى عام ١٨١٧ م . وظل جيرار يعيش عيشة هادئة فى باريس ، ثم عين مارشالا فى الجيش الفرنسى سنة ١٨٣٠ م ، أى بعد زوال الملكية البربونية ، واختاره الملك لويس فيليب وزيراً للحربية ، وما زال يتقلب فى وظائف الدولة حتى وفاته فى باريس عام ١٨٥٢ م .

فبدلا من اقتحام مراكز العدو فى كاتربرا فى الساعة التاسعة أو الحادية عشرة ، حين كان أمير أورانج لايملك سوى ٧,٨٠٠ مقاتل تحت إمرته . أجل ناى القتال إلى ما بعد الظهر ، أى بعد أن وصلت الأمداد لعدوه، وصار عدده أربعة أمثال عدد الفرنسيين ولذا بات ناى غارقاً إلى منكبيه فى كاتربرا ، لا يستطيع شيئاً سوى منع ولنجتن عن مساعدة بلوخر . ومع هذا بقى عامل لو استخدمه نابليون لنال النصر الكامل الذى ابتغاه لتقرير مصير القتال ، وهو أن فرقة القائد ديرلون (D'Erlon) المؤلفة من عشرين ألفاً ، والتابعة لقيادة ناى ، بدأت فى السير متأخرة نحو كاتربرا ، وفى الساعة الرابعة وربع الساعة جاء إلى ديرلون ياور عسكرى — من قبل نابليون — بتعليمات مكتوبة ، للسير فوراً نحو لنيي . واتجهت الفرقة شرقاً وعلى رأسها ديرلون ، حتى أصبحت على مرأى من نابليون فى مكان غير منتظر ، غير أن أمراً من ناي وصل إليها يلح فى طلب العودة فوراً إلى كاتربرا . فأطاع ديرلون أمر رئيسه المباشر ودل بذلك على عدم تبصره . وبذلك مضت هذه الفرقة — المؤلفة من عشرين ألفا — فى طريقها جيئة وذهابا بين الميدانين ، دون أن تعمل شيئاً ؛ وكان من المحتمل أن تقرر مصير القتال فى أحدهما .

امتازت قيادة نابليون فى الميدان حتى هذه المرحلة بعزم ومهارة ، إذ أدهش أعداءه بالسرعة والتكتم فى زحفه ، وأصاب موضع الضعف فى مكان الاتصال بين الجيوش المعادية ، وأجلى البروسيين بعد أن حملهم خسارة خمسة عشر ألفا . غير أن عدم التمكن من القضاء على

بلوخر قضاء سريعاً مبرماً ، يرجع إلى أسباب لم يكن لنابليون عليها سلطان ، مثل رداءة التعاون بين فرق ناى ، وغلطة ديرلون ، وفساد أعمال أركان الحرب فى الجناحين الفرنسيين . ثم وقع نابليون فى غلطة خطيرة صبيحة ١٧ ، وهى غلطة لا تقل عن تراخى ناى فى زحفه إلى كاتربرا ، أو غياب ديرلون عن ميدان لنيي . ذلك أنه استنتج بناء على خليط من التهاون واعتلال الصحة والإعياء، لا بناء على تمحيص الحقائق تمحيصاً كافيا ، أن البروسيين لم تعد فيهم قوة للقتال ، وأنهم يجرون أذيال الخيبة فى حيرة مرعبة تاركين ولنجتن ، متتبعين طرق مواصلاتهم عن طريق نامور ولييج . لذلك تخلل حركات نابليون ساعات كلها سكون كان فيها حتفه : فمثلا طاف راكبا حول ميدان القتال لترويح النفس ، وتحدث مع قادته عن الحالة السياسية فى باريس ، بل فكر فى تسريح جيشه للراحة يوماً كاملا . ولم يصدر التعليمات النهائية إلى جروشى إلا عند الظهر ، ليتعقب البروسيين بجيش عدده ٣٣,٠٠٠ مقاتل و٦٩ مدفعاً ؛ ولم يذهب لنجدة ناى إلا الساعة الثانية بعد الظهر . فلو أنه قام بذلك الزحف قبل ذلك بأربع ساعات ، لأمكنه مهاجمة دوق ولنجتن بجيش يبلغ ضعف عدد جيش الدوق . إنما الذى حصل أنه جاء متأخراً ، فلم يستطع أن يعطل الحركة التقهقرية التى بدأها ولنجتن مستعيناً بالمطر الهاطل كالسيل ، وبما قامت به الخيالة الإنجليزية من الأعمال الباهرة(١) .

---

(١) علم دوق ولنجتن بواقعة لنيي فى الساعة السابعة صباحاً ، أما نابليون فلم يصله=

فى تلك الليلة الممطرة من يوم السبت اتخذ ولنجتن مركزه على مون سان چان (Mont St. Jean) ، وهى أكمة واقعة على مسافة أحد عشر ميلا جنوب بروكسل ، اختارها ولنجتن بثاقب نظره لصلاحيتها لأساليبه فى الدفاع . وفى مواجهته ، على بعد ١٣٠٠ ياردة ، مرتفع معروف باسم لابل ألالايانس (La Belle Alliance) — نسبة لاسم مزرعة على قمته — وصلت طول الليل كتائب تلو كتائب من جيش فرنسى متعب جائع يقوده نابليون . غير أن الإمبراطور كان أثقل مدفعية وأكثر رجالا ، وفى استطاعته أن ينصب ٢٤٦ مدفعاً مقابل ١٨٤ ، وأن يسير ٧٤,٠٠٠ جندى من الفرنسيين القدماء الذين عركوا الحروب ، مقابل ٦٧,٠٠٠ منهم أربعة وعشرون ألفاً فقط من الإنجليز .

حصل الاتفاق بين ولنجتن وبلوخر على الدفاع عن مون سان چان ؛ بعد التحقق من إرسال مساعدة بروسية لتقوية المدافعين . وفى باكورة يوم ١٧ ، تلقى ولنجتن خبراً مؤداه أن البروسيين يتقهقرون ، لا شرقاً كما يتوقع نابليون ، بل شمالا فى اتجاه قرية وافر (Wavre) — وهى قرية على مسافة ثلاثة عشر ميلا تقريباً من واترلو . رد ولنجتن على الضابط الذى حمل إليه ذلك النبأ أنه إذا أمكن الاعتماد على المساعدة — ولو بفرقة واحدة — فإنه يظل فى انتظار نابليون عند مون سان چان ، ويشتبك معه فى القتال ، وإلا يكون مضطر لتضحية بروكسل ،

= شىء من أخبارها ، ولم يكن فى مقدوره حينئذ ، بعد تلك الواقعة ، أن يتحرك قبل الساعة الثامنة صباحاً .

وللتقهقر إلى ما وراء نهر شلت . ثم وردت رسالة فى ساعة متأخرة من مساء السبت إلى مركز القيادة الإنجليزية العليا أدت إلى تقرير الانتظار ، ومؤدى هذه الرسالة أن بلوخر يتجمع عند وافر ، وأن فى إمكان ولنجتن أن يعتمد على مساعدته . وعلى ذلك لم يكن من سوء التقدير – مع اعتبار الأوحال التى ملأت مفارق الطرق وقتذاك – أن تصل المدافع البروسية حوالى الظهر ، فتصوب نيرانها على الميمنة الفرنسية ، وتخفف الضغط الواقع على المراكز الإنجليزية .

لزم ولنجتن دور المنتظر فى تلك اللعبة ، على حين قام نابليون بدور الزاحف المهاجم . واقتصرت الخطة الإنجليزية على الدفاع عن أكمة مون سان چان حتى تصل الفرقة البروسية الواحدة التى انتظرها ولنجتن ، والتى قام بدقته المعهودة إنها الشرط الأساسى للنجاح . غير أن نابليون تأخر حتى الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين صباحاً لبدء الهجوم ، مع أن الحالة استلزمت الاهتمام بالدقائق والثوانى . وعلل الباحثون ذلك التأخير بوصول الأمداد الفرنسية بعد الأوان من جهة ، وبحال الأرض التى جعلتها الأمطار أوحالا تعذر معها نقل المدفعية والخيالة من جهة أخرى . ومهما تكن أهمية هذه الاعتبارات ، فإن نابليون لم يكن ليحفل بها لو أنه أدرك أن تسعين ألفاً من البروسيين – على مسيرة أربع ساعات من معسكره – يسيرون فى سرعة للانضمام إلى ولنجتن أثناء ذلك اليوم . غير أن نابليون برغم وصول خبر من القائد جروشى فى الساعة الثانية صباحاً باحتمال زحف البروسيين

نحو وافر – استبعد أن يفسد عليه بلوخر كل حركاته الحربية ، على اعتقاد أن الجيش البروسى قوة تبددت وخارت عزائمها ، وهى لا تزيد على أربعين ألفا ولت الأدبار بعد أن شطرت شطرين ، وانساب الأول منهما شرقاً نحو ليبج ، والثانى شمالا نحو بروكسل . وعلى ذلك أرسل نابليون فى الساعة العاشرة صباحاً رسالة إلى جروشى لمهاجمة البروسيين عند وافر ؛ ولم يهلع كثيراً حين عرف ، عند الساعة الأولى بعد الظهر ، أن فرقة القائد بولو (Bulow) البروسية على مدى البصر ، إذ حسبها فرقة واحدة لا تزيد على ثلاثين ألف مقاتل ، وليس وراءها ما يظاهرها ؛ فلو تحرك جروشى بسرعة من جمبلو (Gembloux) لأصبحت هذه الفرقة بين نارين ، ولقضى عليها القضاء الأخير . فى ذلك الوقت قال نابليون للقائد سولت : « كان بيدنا فى هذا الصباح تسعون بنطاً فى صالحنا ، والآن لا يزال عندنا ستون مقابل أربعين » .

بذلك التفاؤل الذى يترتب طبعاً على الشجاعة والحيلة ، والذى يكون أحياناً حليف الرأى العنيد ، ازدرى نابليون ولنجتن ورجاله . وقال نابليون وقتذاك للقائد سولت الذى أسف لرحيل قوة كبيرة كتلك التى ذهبت تحت قيادة جروشى ، لأنه عرف الإنجليز فى الحروب الإسبانية : « أؤكد لك أن ولنجتن قائد ردىء وجيشه ردىء مثله» . ثم إن نابليون لم يصدق رى (Reille) – وهو قائد آخر شهد الحرب الإسبانية – حين قال إن المشاة الإنجليزية لا يؤثر فيها الهجوم المباشر ، ولا يمكن التغلب عليها إلا بالخدع العسكرية . ولذا عقد نابليون النية

على استخدام خطط المفاجأة السريعة التى خدمته فى كثير من وقائعه ، والتى تتوجت بالنصر حديثاً عند لنيي ؛ فيباغت الصفوف الإنجليزية الضعيفة ، ثم يخترق قلب الجيش الإنجليزى بهجوم أمامى عام ، بعد أن يصليه ناراً حامية من مدفعيته المركزة ، وأزمع نابليون أن يستعين فى إنفاذ هذه الحركة بعملية تضليل قصيرة نحو مزرعة هوجومون (Hougoumont) ، الواقعة بقرب خط تقدم الجناح الإنجليزى الأيمن . وبعد أن أتم نابليون كل شىء ، جلس إلى خوان صغير وأمامه مصوراته ، وتوقع أن يوم الواقعة الستين من وقائعه سيكون يوماً مجيداً .

ثم اتخذت واقعة واترلو إجمالا شكل سلسلة من الهجمات الهائلة . تظاهرها نار حاصدة من المدافع عن يمين قلب الخط الإنجليزى ويساره ، وسلسلة من المقاومات المستبسلة من الجيوش الإنجليزية والألمانية ، وحدث فى توجيه هذه الهجمات المشهورة غلطتان خطيرتان ، ولعل نابليون لم يرتكبهما بنفسه . ذلك أن الهجوم العظيم الذى بدأته فرقة القائد ديرلون على قلب الجيش الإنجليزى — فى الساعة الواحدة بعد الظهر — تكوّن من أربعة أقسام ضيقة الجبهة عظيمة الطول (بالنظر إلى اشتمال كل قسم على ثمانية أورط مصطفة الواحدة تلو الأخرى) . ولذا غدت فرقة ديرلون هدفاً بديعاً لنيران المشاة الإنجليزية ، على حين ظلت قوتها على إجابة هذه النيران غير وافية . غير أنه جرت عادة نابليون أن يترك الحركات الحربية الصغيرة لقادته ، ولذا فالنظام الردىء الذى سارت عليه هجمة ديرلون ، غلطة يسأل عنها هذا القائد دون رئيسه .

أما الغلطة الثانية فأشد خطراً من الأولى ، إذ ترتب عليها كل الأدوار التالية فى القتال . وتفصيل هذه الغلطة الثانية أنه فى منتصف الساعة الرابعة — والمشاة الإنجليزية لم تتزعزع بعد من مراكزها — أسرع ناى مخترقاً عرض الوادى — لو صح أن نسمى المنخفض القليل العمق الواقع بين جنبى الوادى بذلك الاسم — على رأس قوة كبيرة من الخيالة لمهاجمة المشاة فى أرضهم . حين إذ ذاك ابتدأت سلسلة من الهجمات الراكبة العنيفة ، وهى الهجمات التى ضاعت سدى ضد البسالة المتينة التى أظهرتها المربعات الإنجليزية والألمانية . ومعنى ذلك أن الهجمة الأولى جاءت بلا شك سابقة لأوانها ، ولم تعززها قوات كافية . غير أن هؤلاء الذين يعتبرون أن أية كلمة تخرج من فم نابليون — أو أية حركة حربية يأمر بها — منزهة عن الخطأ يعتقدون أن الهجوم ابتدأ دون علمه .

هكذا كسب الحلفاء الوقعة بفضل مهارة ولنجتن وشجاعته ، وثبات الجيوش الإنجليزية والألمانية ، وبفضل زحف البروسيين الذين بدأوا يؤثرون فى مراكز نابليون بعد الساعة الرابعة مباشرة ، ولم تأفل شمس ذلك اليوم حتى حولوا ارتداد نابليون هزيمة منكرة . ولو أن جروسى توخى السرعة لأمكنه تأخير الزحف البروسى ، غير أنه استحال عليه منع ذلك الزحف ، إذ توفر لدى بلوخر من الجند ما يكفى لمحاصرته ، فضلا عن فرقتين لمساعدة ولنجتن . ولكن هل تتغير نتيجة الحرب لو أن نابليون اقتصر على إرسال فئة صغيرة من الخيالة بدل — فرقة كاملة — لتعقب العدو المتقهقر من لنيى ؟ أو لو أنه أرسل الحرس القديم أكثر

تبكيراً ودفعة واحدة ؟ ذلك محتمل ، ولكن لا يمكن الجزم بشيء . ربما ارتكب نابليون بضع غلطات فى هذه المرحلة من حياته ؛ غير أن المعروف أن عقله ظل صافياً نشيطاً كعادته ، وعلى رغم توعكه صبيحة يوم ١٧ قام بأعمال حربية فوق طاقة رجل عادى . تفصيل ذلك أنه استيقظ يوم واترلو – وكان يوم أحد – الساعة الواحدة صباحاً ، وطاف بالمواقف الأمامية ؛ ثم عاد فى الساعة الثالثة ، فسمع تقارير الكشافة والعيون ، وأصدر أوامر جديدة . وفى الساعة التاسعة ركب إلى ميدان القتال ، حيث بقى حتى الليل مشرفاً على سير الحركات الحربية ، ومصدراً الأوامر بمهارة وعزم ومثابرة . ولما انكسر الجيش انكساراً لا يجبر ، بذل كل ما فى وسعه سدى ليلم شعث الهاربين ؛ ثم ركب مسرعاً ، حتى وصل إلى شارلڤيل (Charleville) داخل الأراضى الفرنسية الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى . ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن نابليون لم يسترح أكثر من أربع وعشرين ساعة ، وأنه بقى ممتطياً جواده أكثر من سبع وثلاثين ساعة ، أثناء أربعة الأيام الحرجة التى استغرقها القتال .

ظل نابليون يغالب القدر المحتوم حتى بعد واترلو ، وذلك من خصائص نفسه الوثابة . ومن الأمثلة على ذلك أنه كتب من فيليبڤيل (Philippeville) إلى أخيه يوسف يقول إنه ما زال من الممكن تعبئة ٣٠٠,٠٠٠ رجل ، وإنه مع المثابرة والشجاعة يحتمل إنقاذ كل شىء . وفى النشرة التى حررها نابليون لجريدة المونيتور (Le Moniteur) – يوم ١٩ يونية – صور النكبة

على أنها نتيجة فزع مجهول السبب ، فى ساعة الانتصار . ولما وصل نابليون إلى باريس — يوم ٢١ يونيه — جال برأسه أولا أن تمنحه الهيئة التشريعية سلطة ديكتاتورية لإنقاذ الدولة ، غير أن بطولة أيام انقلاب برومير ذهبت عنه ، فلما أصرت الغرفتان التشريعيتان على تنازله فى الحال لم يقوَ على الامتناع . وفى ٢٢ يونيه وقّع نابليون على التنازل ؛ وبقى بضعة أيام فى باريس ، والغوغاء تهتف له عند قصر الأليزيه (Elysée) ، وهو يفكر هل يثير الروح اليقعوبية ، ويذكى نار فتنة داخلية بمساعدة الغوغاء ؟ غير أن النفس الإمبراطورية — وهى النفس التى جعلته قديماً يزدرى الغوغاء — أنقذته من خاتمة غير مشرفة ؛ وبينما هو ينسحب إلى قصر ماليزون (Malmaison) ابتدأ فكره يتحول إلى حياة جديدة فى أمريكا يصرفها فى الكتابة والإنشاء . وفى ٢٥ يونيه كتب نابليون رسالة وداع إلى الجيش الفرنسى ، تعد من أعلى صحف الأدب ، إذ ضرب فيها بأسلوبه النثرى الجلى على نغمة الثقة بالنفس وعواطف الرجولة . ثم جاءت الأنباء بعد ذلك بأربعة أيام بأن البروسيين تحت قيادة بلوخر صاروا على مقربة من باريس ، فاتخذ طريقه نحو البحر ، بعد أن رفضت الحكومة المؤقتة بخشونة ما عرض هو عليها من خدمة فرنسا قائداً يأتمر أوامرها .

ولما رأى أخيراً أن الأرض لم تعد آمنة ، وأن البحر يموج بالطرادات الإنجليزية ، أظهر فضيلة اقتضتها الضرورة ، وكتب إلى الوصى على العرش [1]

---

(١) كان ملك إنجلترا وقتذاك جورج الثالث ، وهو الذى ضاع بصره وأصيب ؛ =

فى إنجلترا كتاباً يعلن «أنه أتى مثل ثيميستوكليز (١)، ليحتمى بكرم الأمة الإنجليزية» وليطلب الحماية تحت قوانينها . وربما يأسف قارئ التاريخ أن حياة حافلة بمختلف الأعمال وأبهرها — مثل حياة نابليون — لم تصادف خاتمة هادئة فى معيشة ريفية أرستقراطية فى جو إنجلترا، أو فى جو الجمهورية الأمريكية الحرة . لكن الحكومة الإنجليزية احتراماً لواجبها نحو السلام العام فى أوربا ، ولعهدها مع الحلفاء ، عملت على ألا يعود نابليون لإزعاج العالم بقصف مدافعه مرة أخرى . لذلك أرسلت إنجلترا نابليون إلى جزيرة صخرية ، فى مهب العواصف ، فى أقاصى المحيط الأطلسى . وهناك فى الخامس من مايو سنة ١٨٢١م، وقف نابليون — على قول الشاعر الإنجليزى — كأنه غليون هائل محمل بالكنوز : ناء بأثقاله، قائمة أدقاله فى وجه الأفق الغربى ". وبعد مرض مبرح طويل تحمله بشجاعة ، استغفر نابليون الاستغفار الأخير عن الخطيئة القديمة

= بالجنون أواخر أيامه ، ولذا قام ابنه الأكبر — واسمه جورج كذلك — وصياً على العرش الإنجليزى منذ ١٨١٠ م ، حتى إذا توفى أبوه ١٨٢٠م آل إليه العرش وتلقب جورج الرابع .

(١) ولد ثيميستوكليز (Themistocles) فى أثينا حوالى ٥١٤ ق . م . وهو سياسى كبير ، أصبح الزعيم الأكبر فى أثينا ، وإليه يرجع الفضل فى إنقاذ البلاد من حكم الفرس . ثم تغيرت الحال ، وأصبح تيميستكليز مكروهاً من قومه لصلفه وكبريائه : واتهم بالاختلاس أموال الدولة ، فحكم عليه بالإبعاد ، فرحل إلى بلدة أرجوس (Argos) حيث اتهم بالتآمر على الحكومة . فهرب إلى آسيا خوفاً على حياته ، ونزل تيميستكليز على ملك الفرس فأكرم وفادته ؛ وعاش فى رغد من العيش فى بلدة مغنيسيا (magnesia) حتى وفاته .

لتى لو بحثنا عن أصلها لألفيناها ترجع إلى النزاع بين الثورة الفرنسية والنظام الأوربى القديم . وقضى نابليون وهو فى السنة الثانية والخمسين من عمره ، وكان مولده قبل مولد ولنجتن بثلاثة أشهر .

يتمنى كل شخص لو أن نابليون وقع فى واترلو وهو يقود حرسه القديم ، وشفق الليل ينتشر فى عرض السماء الصيفية . غير أن الأسر فى سنت هيلانة — مع ما كشف عن الجانب الحقير من خلق مختلط — لم يخل من الأهمية التاريخية ، ولا من ثمرات السمو الفكرى . ذلك أن حياة نابليون العملية لم تنته بصعوده إلى ظهر السفينة بليروفون (Bellerophon) التى حملته إلى منفاه ، ولا بنزوله إلى ميناء چيمستون (Jamestown) فى جزيرة سانت هيلانه ، بل بقيت فى رأسه سياسة يريد اتباعها ، ودور يريد القيام به . قال فى سانت هيلانه : « ستبرهن الأيام أن واقعة واترلو خطر على الحريات الأوربية ، كما كانت واقعة فيليبى (Philippi)[1] خطراً على حريات الدولة الرومانية » . وفى وسط الظلام الرجعى الذى تنبأ به لأوربا ، أبصر نابليون من بعيد بارقة أمل للابن الصغير الذى لقبه يوماً ملك روما ، ووضع أمله فى قيام فرنسا يوماً ضد أسرة ملكية رجعت إليها بقوة الجيوش الأجنبية ، وهى أسرة تميل إلى نظام بائد ومذهب عتيق . واعتقد نابليون

(١) فيليبى بلدة قديمة فى مقدونيا ، بناها فيليب أبو الإسكندر الأكبر ، وفيها انتصر أوكتافيوس وأنطونيوس ، سنة ٤٢ ق . م ، على الثائرين الذين قتلوا يوليوس قيصر ، فانتقما له ؛ وقبضا على أزمة الأمور من بعده .

أنه عند بزوغ شمس ذلك العصر الحر ، سيذكر الفرنسيون الإمبراطورية وحكومتها التي قامت على أكتاف الشعب تدعمها النظم الحديثة ، وتحيط بها هالة من الفخار . لذلك أوضح نابليون في محادثاته ومذكراته في سنت هيلانه تلك الأوجه من حياته وسياسته التي بقيت قبولا في عصر حر ؛ وأملى ملخصات عن الحروب الأولى في إيطاليا ومصر والشام ، حينما بنى أساس مجده في خدمة الجمهورية ؛ وقال عن نفسه في بعض تلك المحادثات إنه الصديق المخلص للسلم والحرية ، والحقوق القومية . وكذلك امتلأت وصيته السياسية بخليط من الحقيقة والرياء ، إذ كتبها نابليون بروح عصر مستقبله قريب . عاش على اسم تلك الوصية ابن أخي نابليون ، وهو لويس نابليون الذي تولى إمبراطوراً على الفرنسيين يوم ذكرى مرور السنة السادسة والأربعين على واقعة أسترلتز ، والذي أضحى أحد مؤسسي الوحدة الإيطالية .

حدث نابليون يوماً عن نفسه في سنت هيلانه قال : « إني جلمود صخر قذف في الفضاء » ، فصور شروده الجنوني في التاريخ بشهاب ثاقب . ولا عجب فإنه لما استعرض بإعجاب حياته المدهشة ، اعتقد أنه ليس من المخلوقات التي تسلك المعابر الضيقة المحدودة ، بل قوة عنصرية من قوى الطبيعة ، مجردة عن الحب والكراهية ، أخرجت للناس ، وسيرت بحكم تنازع البقاء الكامن فيها . ورأى أن كثيراً ما ربط صغار الرجال حياتهم على مبدأ واحد ، وتمسكوا بنظريات قديمة ، واحترموا تقاليد شعوبهم ، فظلوا نظريين مقيدين بوساوس الطبقات

المفكرة التى عاشت بين ظهرانيهم . أما عظماء الرجال فيعملون كوميص البرق . ومن لوازم عظمتهم أن يسيروا إلى الإمام بقلب ثابت ، وأن يتجردوا من الإحساس بالتعب الناتج من التقرير فى الأمور والمضى فيها ، وأن يكونوا ممن لا يشعرون بفعل الإرادة حتى فى أشد ساعات الحرج . قال نابليون فى ذلك الصدد : « الرجل القوى هو الذى يكون كل شىء عنده معناه العقل والحركة فى وقت واحد ، بحيث يقرر بسرعة ما يرتئيه بعد تفكير عميق ؛ وحينئذ فشجاعته كلها قطعة واحدة » . ذلك ما جعل حياة نابليون عجيبة ؛ لكن الذى يدعو إلى عجب أكثر أنه اعتقد فى كثير من الأحيان أن حياته كانت من لزوميات العصر ، للقضاء على تقلب الحوادث واختلاف الأزمات التى جاءت بها الثورة الفرنسية .

ودلت الماسات المخيطة بالمعطف الذى تركه نابليون فى عربته بعد واترلو على الروح التى سار بها فى حياته الجريئة ، وهى روح الشعور دائماً . حتى فى أوج عظمته — بأنه يمشى على شفا جرف . أجل ! يعرف كل باحث كيف كان نابليون — وهو إمبراطور — ، ينسل من قصره ، ليتحدث إلى العمال وأرباب الحوانيت ، ليعرف الشعور السائد فى المدينة . ولا عجب ، فما كان للقوة أن تنتج أمانا ، أو أن تهدئ الإحساس بالخطر الذى يأتى مع حياة منصرفة إلى الأشياء العظيمة . وهكذا ظل نابليون طول حياته كالقرصان يترقب أعداءه ، ويشم أقل ريح للخيانة فى الجو .

وحفلت كتب كثيرة بذكر أعمال نابليون الطيبة وكلماته الحسنة ،

وكلها تدور حول التدليل أن نابليون — فيما عدا الأحوال التى تضاربت فيها الأطماع الشخصية بالمصالح العامة — امتلأ لطفاً كثيراً ونجدة تدخل السرور إلى القلوب . نعم إنه أراق دماء بلا حساب ، غير أنه لم يرقها جزافاً ، بل استخدم القسوة بقدر ما استلزمت الأحوال ، مع الاهتمام بوضع السيف فى موضع السيف . مثل ذلك أنه وافق متكرهاً — وهو قائد صغير — على إعدام ٢٥٠٠ أسير تركى ، بعد أن سلموا لضباطه بشرط ضمان حياتهم . ومن الغريب أن يدافع بعض النقاد عن ذلك العمل ، حتى فى العصر الحديث ، اعتماداً على مبدأ استحالة الوثوق من الأسرى إذا أخلى سبيلهم ، واستحالة إطعامهم إذا بقوا . ثم بمضى الزمن صيرت الحروب نابليون لا يهتز للمذابح ، يشهد بذلك أنه كتب فى وصف المذبحة الشنيعة التى حدثت عند بورودينو يقول إنها « أبهى ملحمة » رآها[١] . ما أوسع الفرق بين ذلك وبين وصف ولنجتن حين حدث ليدى شلى (Lady Shelley) بعد موقعة واترلو ؛ إذ قال : « أطلب من الله أن تكون هذه آخر معركة أشترك فيها . عند ما أكون فى وسط المعركة ، أكون مشغولا بدرجة أنى لا أحس بشىء . لكنى أشعر بالحزن بعد ذلك مباشرة ، حتى لا أستطيع التفكير فى العز والفخار ، لأن العقل والعواطف تكون منهوكة . وإنى أشعر بالشقاء

---

(١) نقلا عن خطاب تحت يد اللورد كروفورد ، اقتبس المؤلف منه تلك العبارة — :

"C'est le champ de bataille le plus beau que j'ai encore vu."

حتى فى ساعة الانتصار ؛ وأعتقد أن أكبر شقاء بعد شقاء الهزيمة هو النصر » .

على رغم أن نابليون كوّن بعض أصدقاء مخلصين ، وظل طول حياته قادراً على المصارحة فى أحاديثه مع كل أصناف وطبقات الرجال ، فإنه لم يكن ممن يُعتمد عليهم فى حسن الذوق أو الصدق، أو عمل الخير. كذلك لا يمكن اختياره مثلا للفضيلة فى الأمور الداخلية ، فإن قائمة المحبوبات اللائى جرى وراءهن — بدون احتشام وبدون عواطف — فى أوقات فراغه ، تكفى للدلالة على أنه لم يكن أعلى أو أحط من المستويات المعتادة فى عصره بين أمثاله . على ذلك لم يعش نابليون طاهر الذيل ، غير أنه لم يكن عبد شهواته ، ولم تقم السياسة الفرنسية على التنزه عن المحسوبية والدسائس مثلما قامت فى أيامه ، منذ أيام سان لويس . الواقع أن نابليون وقف يدير شئون الدولة ، ودليله أطماعه الهائلة ، لا يحيد قيد أنملة ، فى وسط ممتلئ بأحداث النعمة المتزاحمين النهمين .

واهتاج قلب نابليون لجمال الأماكن ذات الاتساع العظيم ، وللصوت الغامض الذى يصدر من تموج البحر ، وللجمال الصافى المنبعث من الليالى المتألقة بالنجوم . أما ما خفى من صغائر محاسن الطبيعة مثل ميل زهرة ، أو حسن لونها ، أو تغريد طير ، أو ذبول الشتاء على شجرة ، فلم تسترع نظره ؛ وإن استرعت ، فإنها تنبذ كما تنبذ روايات راسين ، التى اعتبرها صالحة فقط للشبان . وتفسير كل ذلك أن من ضروريات

ذوقه فى الجمال أن يكون الشيء عظيما ، ومن ضروريات ذوقه فى العظمة أن يكون الشيء مما يرفع الأخلاق ، ويقوى الإرادة أمام جلائل النيات . ذلك أيضاً هو تفسير عدم ميل نابليون للخيال والفكاهة والطرب ، وخفة الروح ، وحب الجمال من أجل الجمال ، وغير ذلك من العناصر اللازمة لحياة الفنون وتقدمها . قال نابليون فى ذلك الصدد : « آه ! أيها الذوق الجميل ! إن إحدى عباراتك القديمة لا أعتقد بها ؛ إن ما يسمى أسلوباً — سواء أكان حسناً أم رديئاً — لا يؤثر فىّ . إنى لا أتأثر إلا بقوة الفكر » . على ذلك لم يكن قياسه للآداب والفنون قياس الرجل الذى يحب الجمال ، بل الذى يحب العمل ، ويحكم على قصة بموضوعها وأشخاصها ، وعلى صورة بمغزاها لا بفنها . وقال نابليون عن صورة ترموبيلى (Thermopylae) [١] تصوير داڤيد[٢] : « إن موضوعها ردىء ، ألا ترى أن ليونيداس[٣] هُزم ؟ » . ذلك أن نابليون لم يفهم بأى حق يخرج مصور عن حدوده ، ويخلّد هزيمة قائد عادى ،

---

(١) و (٢) و (٣) ترموبيلى ممر جبلى شهير بين إقليمى تساليا ولوكريس ، فى اليونان القديمة . وعند هذا الممر وقف ليونيداس ملك إسبارطه لصد الفرس سنة ٤٨٠ ق . م. غير أن يونانيا يكره الإسبارطيين دل الفرس على طريق فوق الجبل فسلكوه ، وانقضوا على مؤخرة الجيش الإسبارطى ، وأفنوه عن آخره ، ما عدا واحداً تركته يد المقادير ليقص القصة التى خلدها المصور الفرنسى جاك لويس داڤيد (Jacdnes Louis David) الذى ولد فى باريس سنة ١٧٤٨ م . وداڤيد من أشهر المصورين الفرنسيين ، وكان من أعوان الثورة ، ومن أكبر المعجبين بنابليون . فلما سقط نابليون نفى داڤيد ، فذهب إلى بروكسل وأقام بها حتى مات سنة ١٨٢٥ م .

والأجدر فى نظره أن يكون ميدان الفنون والآداب مكافأة الجدارة والنجاح .

وعلى الرغم مما تقدم ليس من الحقيقة القول بأن الأشياء العظيمة فى الآداب لم يكن لها معنى عند نابليون ، أو القول بأنه لم يستطع تحرير قطع أدبية قيمة . فالرجل الذى قال لجمعية محبى الله والبشر ، وهى طائفة سخيفة مدعية : « هل تبحثون عن السناء ؟ إذا كنتم فإنى أدلكم : اقرءوا صلاة الإله » . مثل ذلك الرجل أحس فى غير شك بتأثير الجمال الساذج . ثم إن بعض نشراته ، التى حررها بعد ثوان من مباشرة القتال ، تعد نماذج بديعة فى الأسلوب الفرنسى الموجز المتوقد ، الملطف هنا وهناك بمس خفيف من الخيال الشعرى ، والمفخم فى بعض العبارات بنفثة بلاغة حقيقية . وأخذ كثير من النقاد الممحصين على نابليون بعض سقطات فى علم البيان ، وحكموا على رسائله بالابتذال ، وقلة الذوق فى الزخرفة ؛ لكن نابليون لم يطلب حكمهم . والواجب هنا ذكره أنه لم يقصد فى نشراته وإعلانه مخاطبة الطبقة الوسطى ذات الأردية السوداء ، بل جنود فرنسا وعامتها . قال نابليون مرة : « ما نجح العظماء الذين غيروا العالم ، بواسطة التسلط على الزعماء أبدا ، بل بالتأثير على العامة » . ولذلك ظلت كتابات نابليون للعامة ؛ ولم يسبق أبداً أن ضربت تلك النغمة الجامعة بين الوطنية والفخار ، من أجل استهواء العامة ، فى أى دولة قبل دولة نابليون . ومثل كتابات نابليون مثل فلسفة روسو ، كلاهما معدود فى صف لغة قادة العامة . وعلى

ذلك فنابليون أمير الصحفيين وأبو المراسلين الحربيين ، وممهد الطريق فى فن تكييف الرأى العام باستخدام الصحافة ؛ فهو أستاذ الشركات الصحفية العظيمة ، التى تنشر فى العصر الحاضر غباواتها المطبقة على جيل متألم .

قال تاليران — وهو ناقد قاس بسبب ما لحقه من الأذى — إن نابليون ذو رأى ثاقب دائماً فى ساعة الروية ، وإنه فى حياته المفعمة بالحوادث ارتكب ثلاث غلطات سياسية خطيرة فقط ، وهى إسبانيا والبابا وروسيا . ولو سلمنا جدلا بأن بحث المؤرخين الحديثين يضيف إلى قائمة الغلطات المتقدمة ، فلن نستطيع البخل بالإعجاب لمهارة نابليون فى استخدام الحوادث وهى المهارة التى حلت مسائل كثيرة فى السلم والحرب ، والتى قضت على كثير من الأخطار ، والتى حولت عدة مرات الهزيمة انتصاراً . مع ذلك سوف تبقى مسألة — هى إلى أى حد اتفقت نهاية أعمال نابليون مع سمو الأخلاق — موضوع المناقشات ، إذ المعروف أن الغزو من أجل الغزو هو المثل الأعلى فى نفس المتوحش ؛ وأن الواجب قبل التماس الأسباب التى تدعو للحروب ، أو تكوين الإمبراطوريات ، إثبات الغرض الذى من أجله تنشب الحروب ، وتقام الإمبراطوريات ، أمام محكمة العدل العام . وإذا بحثنا الأمر ، فأى حكم أكثر شناعة وتوحشاً من السيطرة على الدنيا بالسيف ، بصرف النظر عن هدر الدماء والشقاء والخراب الناتجين مباشرة عن تلك العملية ؟ أى نتيجة طيبة ، أو ذات قيمة ، يمكن الحصول عليها من إذلال شعب ؟

لا نعرف رأى نابليون هنا ، فهو لم يناقش هذا الموضوع . غير أننا نعرف أنه جعل الفخار غايته ، وأنه وجد الطريق الموصل لتلك الغاية فى الفتح ، وأنه مال غالباً لقياس الفخار بمقدار ما يحدثه من الدمار . ولذلك فعلى الرغم من خدمات كثيرة وعظيمة فى القانون ، وطرق الإدارة ، وفى التقدم الأدبى والعقلى فى فرنسا ، سوف يبقى نابليون المثل الحديث العظيم للجرأة التى أدت إلى المآسى قديماً ، والتى لا تتفق أبداً مع مناسبات الحياة البشرية .

ملحق

بعض كلمات نابليون

ــ القوة موضع الاحترام دائماً .

ــ حب الوطن أول فضيلة فى الإنسان المتمدين .

ــ لا تصبح الأمم حكيمة إلا بالتجارب .

ــ المحنة مدرسة لتخريج العظماء ؛ فواجب الملوك إثارتها ونشرها ، لأنها تثير النفوس وتحرك القلوب ، وفى استطاعتها حقاً تكوين الأبطال .

ــ الناس كالأرقام الحسابية ، قيمتها بأوضاعها .

ــ يجب أن يكون قلب السياسى فى رأسه .

ــ تبيـّن الأمر يتمّ بلا عناء .

ــ نقص نظمنا الحديثة فى خلوها مما يثير الوجدان ؛ مع أن الإنسان لا يساس إلا من طريق الوجدان ، ولو أمكن سياسته من غير ذلك الطريق فهو حيوان أعجم .

ــ اختيار الموضوعات للأحداث طريقة فاسدة ، وجدير بهم أن يقرءوا الكتب المطولة ، ليحيط خيالهم بجلائل الأعمال .

ــ التاريخ مرآة للعقل البشرى .

ـ لندن هى مصدر شرور العالم وأضراره .
ـ الضابط العظيم هو الذى يبلغ به الحرص أن يكون مستعداً لصد مفاجآت عدوه من أى جهة ، فإذا عجز عن ذلك دلّ على سوء مركز جيوشه .
ـ لو نجحتُ لأصبحَت إنجلترا من ملحقات فرنسا ، فإن الطبيعة جعلتها لتكون جزيرة فرنسية مثل أولرون[١] ، أو قرشقة .
ـ الدستور الذى لا يعترف بالأشراف يشبه الكرة فى مهب الرياح .
ـ قيام الأشراف (الأرستوقراطية) نظام ثابت ، فإذا قضى عليه بين النبلاء ، تحول مباشرة إلى البيوتات الغنية ذات الجاه والنفوذ من الطبقة الوسطى ، وإذا قُضى عليه من بين هؤلاء ، بقى واجتمع فى ظل زعماء المصانع والشعب .
ـ العمل ديدنى . ولدت وربيت للعمل . أحطت بوظيفة رجلىّ وعرفت مدى بصرى ، ولكنى لم أدرك بعد حدود عملى .
ـ غرامى فى التأسيس لا فى الامتلاك ، إنما أردت امتلاك ناصية الفخار والشهرة .
ـ العالم اثنان : الشرق والغرب ، والدليل على ذلك أن فرنسا وإنجلترا متماثلتان فى العادات والدين والأفكار .
ـ فلان كذوب ، ولا حرج عليه أن يكذب أحياناً ، لا أن يكذب دائماً .

---

(١) تقع جزيرة أولرون (Oléron) قرب الساحل الفرنسى شمال خليج بسكاى .

ـ الحب مشغلة الخامل ، ومضيعة الجندى ، وعثرة الملك .

ـ التجنيد الإجبارى أساس نشأة الأمم ، وبه تقوم أخلاقها ، وتتكوّن عاداتها .

ـ التعليم والتاريخ ألد أعداء الدين القويم .

ـ لا أرى فى الدين سرّ تقمص الروح ، بل سرّ النظام الاجتماعى ، لأنه يقول إن الناس عند الله سواء ، وذلك يمنع الفقير من اغتيال الغنى .

ـ وحدة القيادة أول لزوميات القتال .

ـ أعد نفسى أجرأ رجل عسكرى ظهر فى الوجود .

ـ أول صفة القائد العام التفكير الهادئ .

ـ ما زلت مغرماً دائماً بالتحليل ، وإذا وقعت فى شرك الحب ، أحلل عاطفتى بالدقة التامة ، فإن محاسبة النفس منفعة مهما تطل .

ـ مهما تبلغ من الذكاء فلستَ بفاهم سرّ قلبك ، وإن كل ما تعرفه عنه أنه قطعة من جسمك ، يخترقها عرق ضخم يجرى فيه الدم سريعاً إذا ركضت .

ـ جلال الأشراف وسحرهم وليدا القدم والثبات ، وهما الشيئان الوحيدان اللذان عجزت عن خلقهما .

ـ القائد العبقرى لا بد أن يكون متصفاً بالفضائل ، لأنها السبب فى طاعة الجند واحترامهم إياه .

ـ إراقة الدماء تدخل فى عناصر الأدوية السياسية .

ـ فكرت كثيراً فى مشروع تقسيم فرنسا إلى عشرين أو خمس وعشرين إقليماً عسكرياً ، كل إقليم بجيشه .

ـ أنا لا أعرف بالضبط معنى تدخل الحب فى السياسة .

ـ خطابُك يدل على حذق عظيم ، وهذا ليس ضرورياً فى الحرب ، وإنما الضرورى الدقة ومتانة الخلق والنشاط .

ـ الديانة مادة هامة فى النظم العامة لتهذيب الفتيات ، إذ الواجب تدريبهن على الاعتقاد والطاعة .

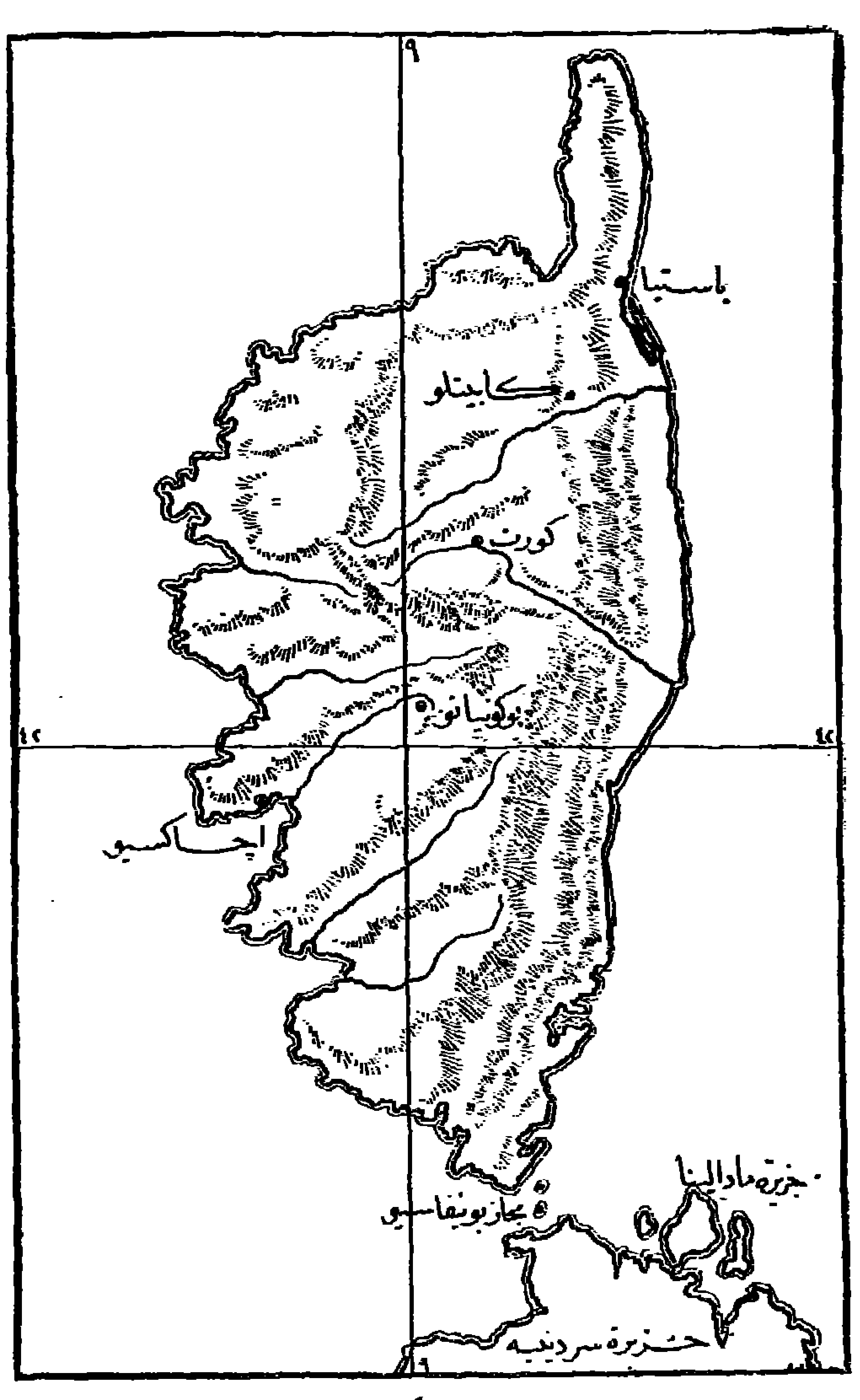
ـ العلماء وأولو النهى كالنساء المتدللات ، فى نظرى . انظر إليهم وحدثهم ، ولكن إياك أن تستوزر أحداً من العلماء ، أو تتزوج إحدى أولئك النساء .

ـ إذا كنت حاكماً فلا تنقض ما أبرمت .

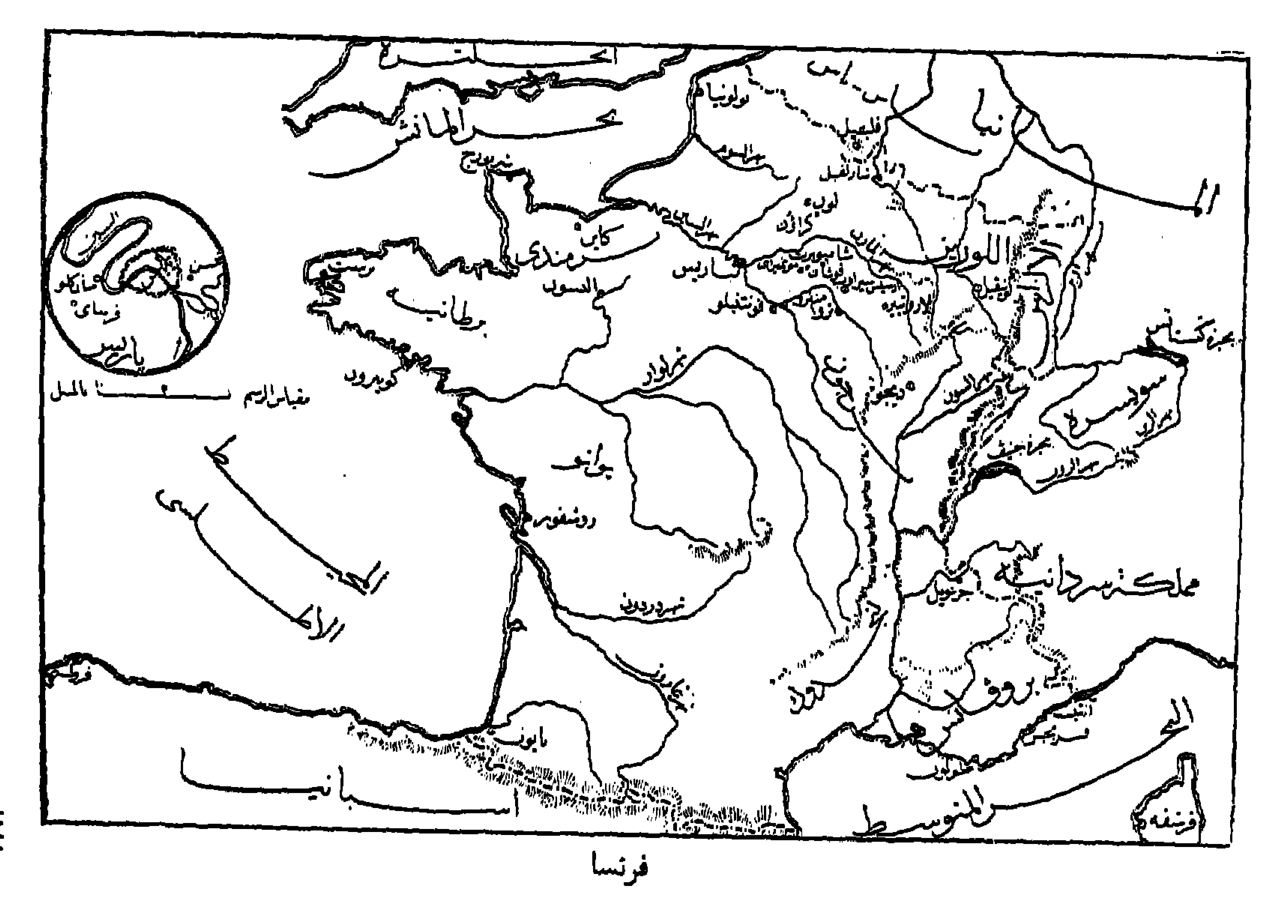
ـ هناك أناس يجيدون القول ، ولكنهم يعجزون عن أضعف الأعمال .

ـ يعتبون علىّ فقرنا فى الأدبيات ، ولكن ذلك ليس من شأنى .

ـ إذا اتصف ملك بالرحمة فنصيب حكمه الفشل .


باستيا
كابيناو
كورت
بوكونيانو
اچاكسيو
بحار بونيفاسيو
جزيرة مادالينا
جزيرة سردينيه
٩
٤٢

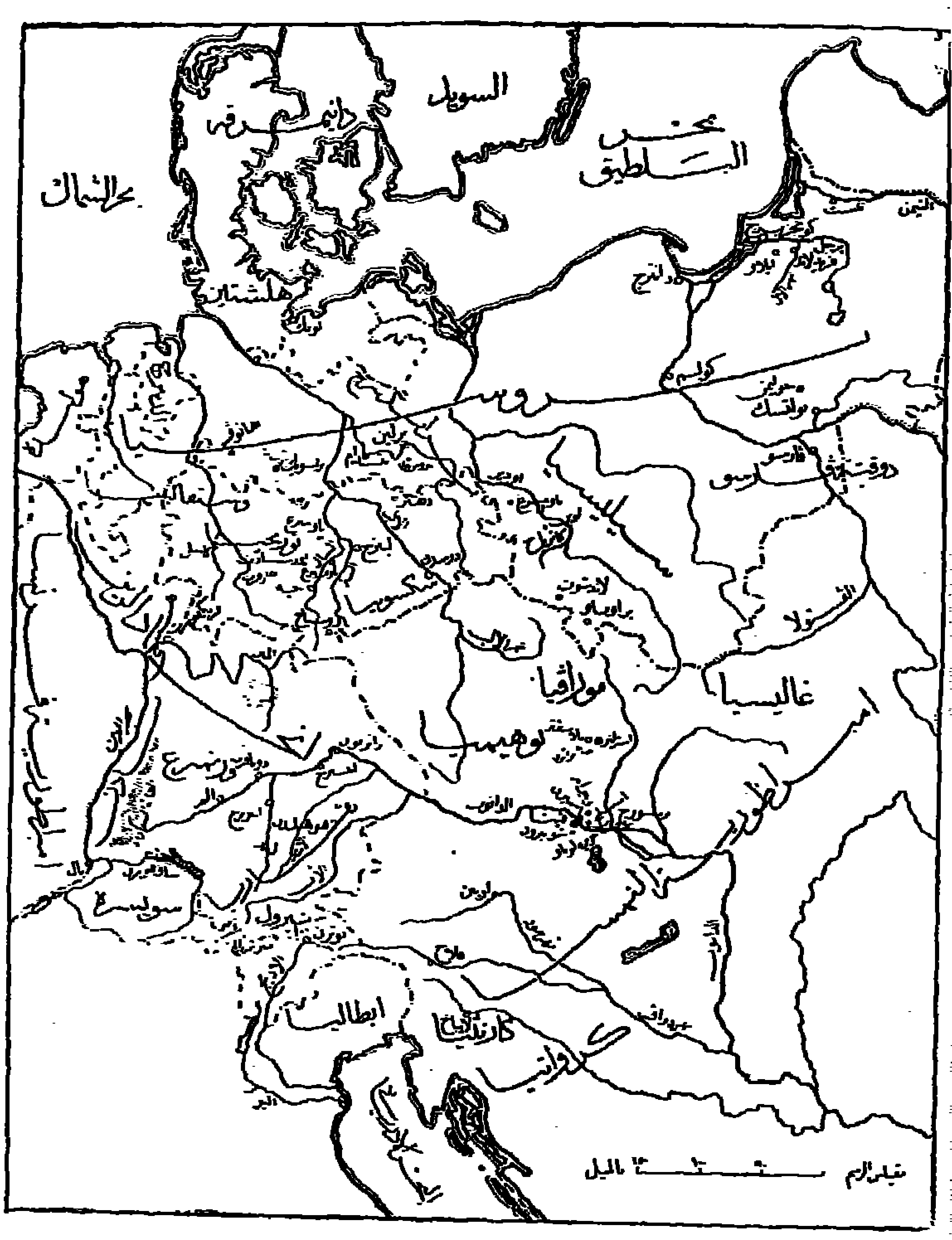
كورسيكا


بحر المانش
نورمندي
برطانيه
باريس
اللورين
سويسره
مملكة سردانيه
اسبانيا
البحر المتوسط

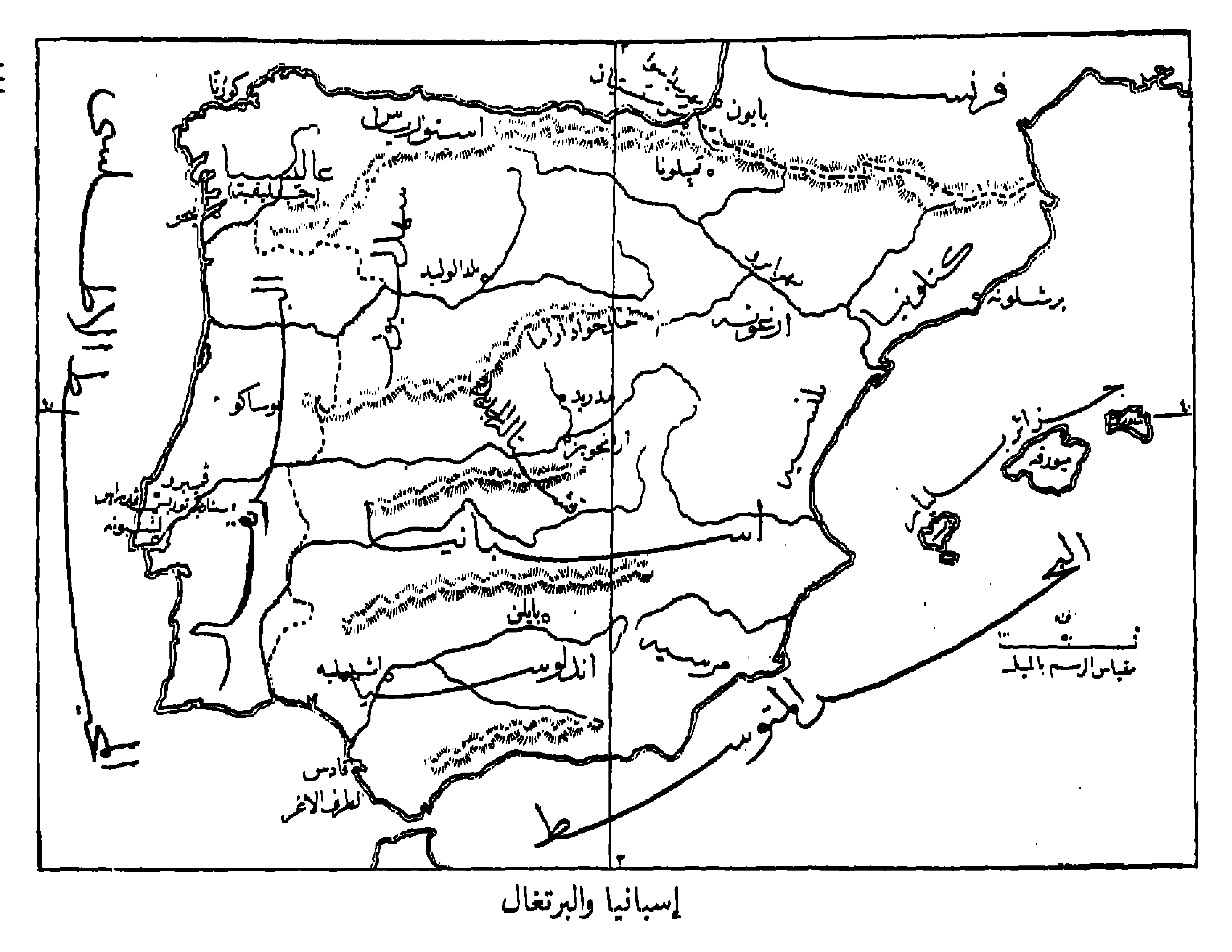
فرنسا



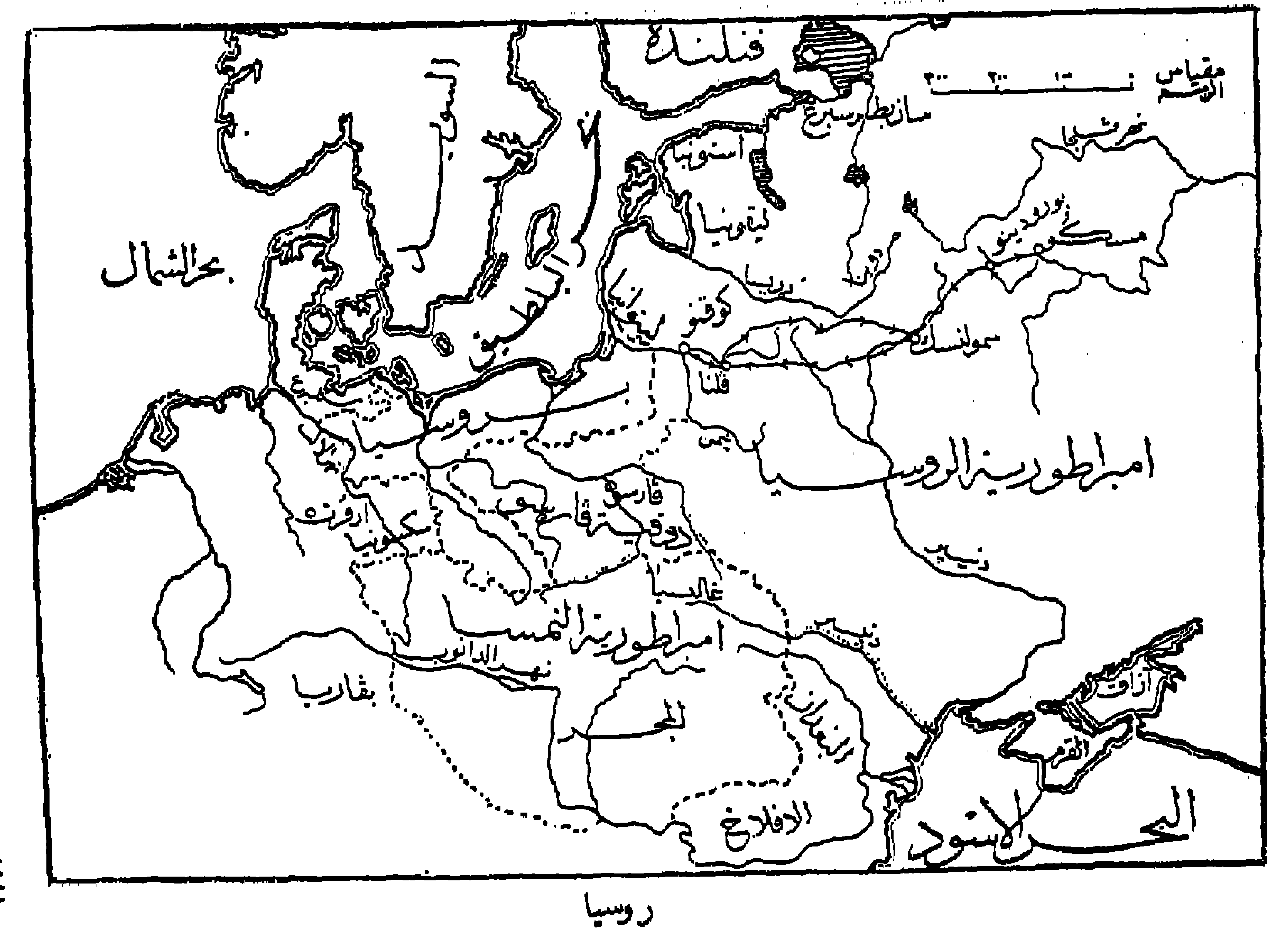
إيطاليا

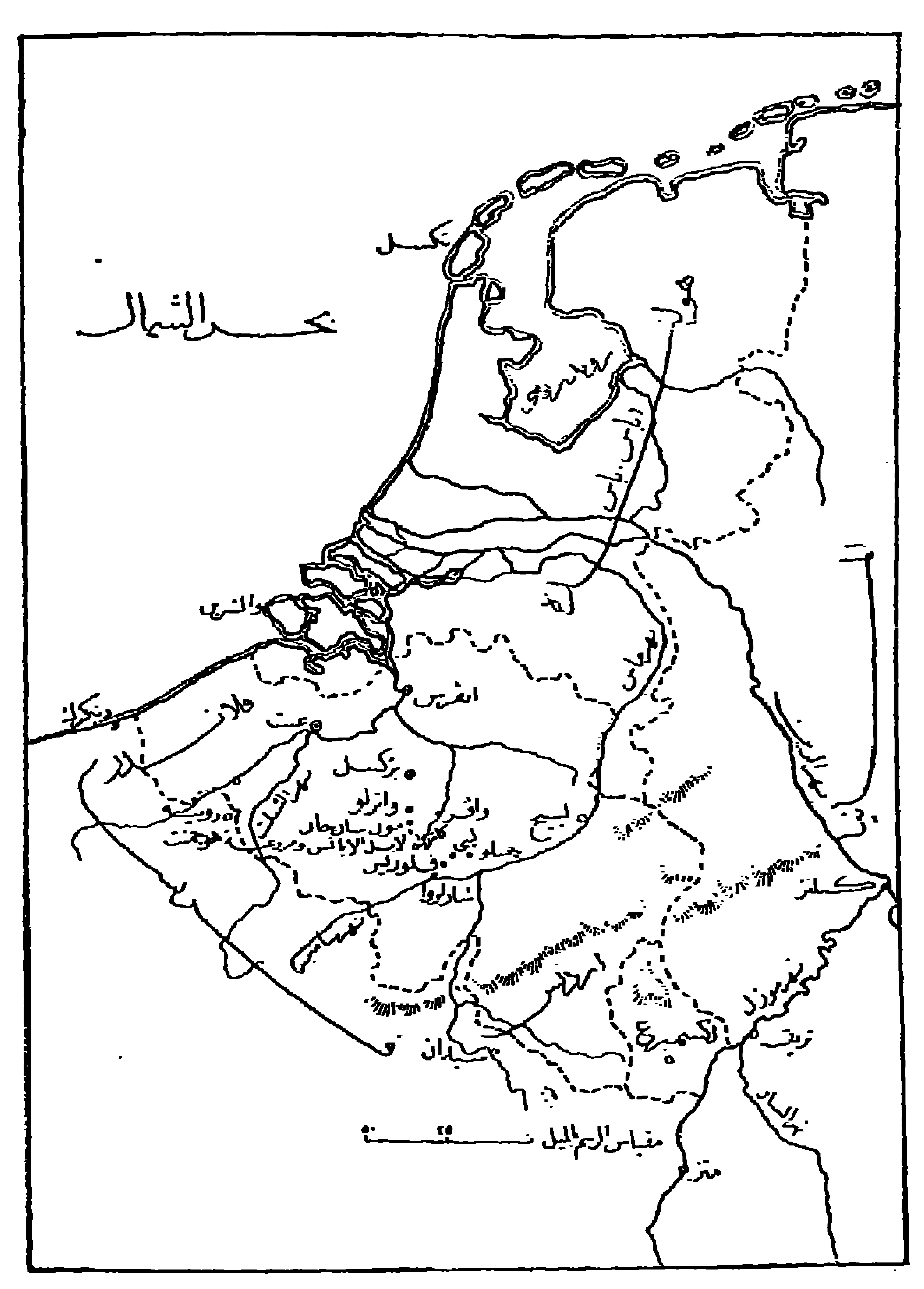


أوربا الوسطى



إسبانيا والبرتغال


فنلندة
مقياس الرسم
سانبطرسبرغ
السويد
البلطيق
بحر الشمال
استونيا
ليتوانيا
نهر دوينا
نهر دوينا
كوفنو
موسكو
بورودينو
سمولنسك
فلنا
بروسيا
امبراطورية الروسيا
فارسوفيا
دوقية فارسوفيا
ارفورت
سكسونيا
نهر دنيبر
غاليسيا
امبراطورية النمسا
نهر الدانوب
نهر دنيستر
بفاريا
المجر
الافلاخ
آزاف
القرم
البحر الاسود
روسيا



بلجيكا وهولندا

فهرس الاعلام والبلدان

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٨

أعلام التاريخ

مجموعة من الكتب العالمية الرائعة ، تصور حياة العظماء الخالدين ، وتروى سيرتهم وفنون جهادهم ونضالهم ، وتجمع بين المتعة والفائدة ، ففيها يلتقى العلم والأدب والسياسة والحب ، وفيها تتضح القوة والضعف وطبائع الإنسانية فى مختلف عصورها . تقدمها دار المعارف إلى المؤرخين والأدباء والطلاب ، فيجد فيها كل منهم ما يحبه ويرضاه من تحقيق علمى ، وقصص شائق ، وأدب رفيع .



دار المعارف للطباعة والنشر

ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة